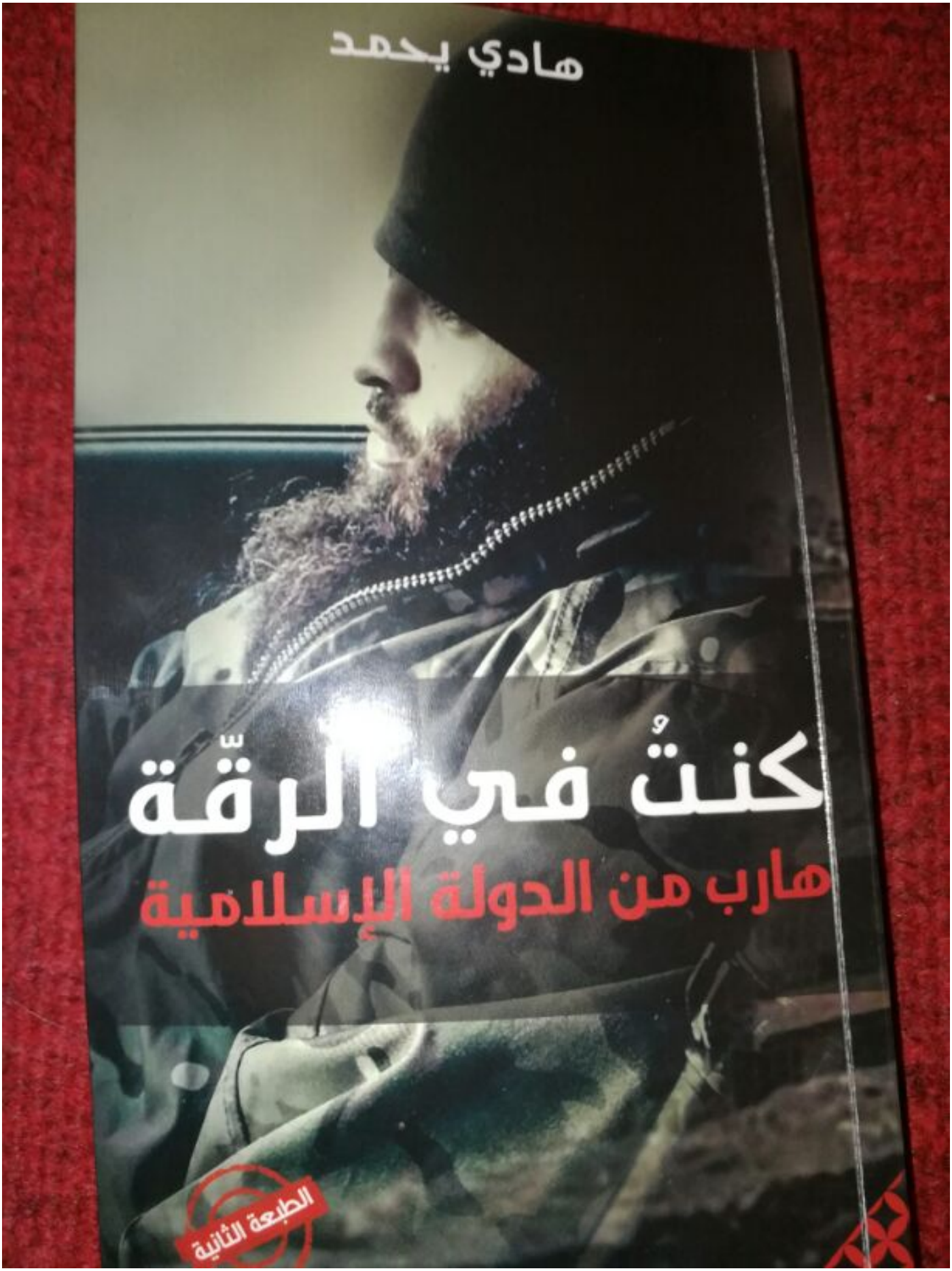
هادي يحمد
كنتُ في الرّقّة
هارب من الدولة الإسلامية
الطبعة الثانية

هادي يحمد

كنتُ في الرّقّة
هارب من الدّولة الإسلاميّة

نقوش عربيّة 2017

"ثمّ إنّه فكّر هل رأى من الوحوش وسواها من صار في مثل تلك الحال ثمّ عاد إلى مثل حاله الأوّل، فلم يجد شيئا فحصل له من ذلك اليأس من رجوعها إلى حالها الأوّل إن هو تركها وبقي له بعض رجاء في رجوعها إلى تلك الحال إن هو وجد ذلك العضو وأزال الآفة عنه"

ابن طفيل - (حيّ بن يقظان)

"وبدا لي التّمثال كريهًا بليدا، وأحسستُ أنّي كنت سئما سأماً عميقا. ولم أكن أستطيع أن أفهم لماذا كنت في الهند الصّينية. ما الّذي كنت أفعله هناك؟ لماذا كنت أتحدّث مع هؤلاء النّاس؟ ولماذا كنت أرتدي هذه الثّياب العجيبة حقًّا؟ كان هوسي قد مات. وكان قد غمرني ودحرجني طوال سنوات، وهأنذا أحسّني الآن فارغا".

جون بول سارتر. (الغثيان)

ترجمة: سهيل إدريس

مقدّمة

هذا الكتاب هو ثمرة لقاء غريب. مأتى الغرابة ليس فقط في الرّواية المشوّقة ولا في أهمّيّة قوّة تفاصيلها ولكن في أن يرويها فاعلُها. ربّما تكون سابقة أن يروي شابّ عاش ضمن تنظيم "الدّولة الإسلاميّة" أو ما يصطلح عليه بـ"داعش" تجربته إلى الرّأي العامّ.

كثيرة هي الشّهادات الّتي جاءت من مُقاتلي تنظيم الدّولة الإسلاميّة، تحت الضّغط وتحت وقع الأسر. هذه الشّهادة ليست بشهادة أسير ولا مضطرّ. إنّها شهادة حرّة. شهادة من الدّاخل. خُطّت بحرّية كاملة دون ضغوط. شهادة كاملة لمسار رحلة تمّت بوعي واختيار.

الكتاب فضلا عن كونه رواية حقيقيّة لتجربة القتال والحياة في الرقّة وغيرها من المدن السّورية، هو أيضا استرجاع النّشأة والطّفولة والمراهقة قبل أن يصبح محمد الفاهم، راوي الحكاية مقاتلا في تنظيم الدّولة الإسلاميّة. أردت فيها أن أفهم، وأراد هو أن ينقل ما وقع له.

فكرتي في تأليف هذا الكتاب انطلقت مع صدور كتابي الأوّل في فيفري 2015 والّذي عنوانه: "تحت راية العُقاب.. سلفيّون جهاديّون تونسيّون". بعدها شرعت في ما حسبت أنّه سيكون الجزء الثّاني من الكتاب وهو مواصلة الرّحلة مع قصص شباب السّلفية الجهاديّة في تونس والتّحوّلات الّتي عرفوها بعد تصنيف تنظيم أنصار الشّريعة منظمّة إرهابيّة في أواخر شهر أوت 2013. بدأت قبل هذا التّاريخ الاغتيالات ولحقتها فيما بعد العمليّات الإرهابيّة في تونس وبدأ المئات من الشّباب يهاجر إلى سوريا والعراق وليبيا.

زاد من ضرورة إصدار هذا الكتاب سياق الأعمال الإرهابيّة الّتي يعيشها العالم من حولنا. فطوال الخمس سنوات الأخيرة شهدنا موجة من الأعمال الإرهابيّة والقتل الأعمى تحت عنوان "نصرة الدّولة الإسلاميّة".

عاش العالم منذ صعود أبي بكر البغدادي على منبر الجامع الكبير في الموصل وإعلانه دولة خلافته في رمضان 2014 مرحلة دمويّة غير مسبوقة في تاريخ المنظّمات الإرهابيّة.

تابعنا بحزن حينها مذبحة قاعدة سبايكر في العراق في جوان 2014 (1907 ضحيّة) وبعدها مجزرة مطار الطبقة في سوريا في أوت 2014 (250 ضحيّة) ومجزرة نزل الامبريال في مدينة سوسة بتونس في شهر جوان 2015 (39 ضحيّة) ومجزرة باريس بفرنسا يوم 13 نوفمبر 2015 (130 ضحيّة) ومجزرة مدينة أورلندو في الولايات المتّحدة في جوان 2016 (49 ضحيّة) ومجزرة إسطنبول يوم غرّة جانفي 2017 (39 ضحيّة)... دخلنا دوّامة من العنف الدّينيّ والّتي لم تنته

بعد. كانت هذه ضمن مجازر أخرى كثيرة ارتُكبت زادت العالم حيرة وأربكت النّخب والباحثين.

في مرحلة معيّنة من الأحداث الّتي تتالت والبشاعات الّتي ارتكبت، كان من المهمّ أن نفهم ما الّذي يجري تحديدا في عقول هؤلاء الشّباب. مع كلّ مجزرة جديدة يرتكبها داعش في منطقة ما من العالم يزداد مطلب الفهم إلحاحا.

لم تعد الإدانة والسّخط على أهمّيتهما كافِيَين لفهم ما يجري. نعم يبقى للإدانة والسّخط معنى سياسيّ، وهما أيضا ضرورة شعبيّة غير أنّ همّ الباحث أبعد من هذا كلّه.

كان من المهمّ أن نفهم طريقة تفكير هؤلاء. ما هي حوافزهم؟ وما هي ينابيع تشدّدهم ودمويّتهم؟. هل تكفي مجرّد قراءات خارجيّة إحصائيّة، على أهمّيتها، تستند على أرقام التّهميش الإجتماعيّ والحيف السّياسيّ من أجل فهم الظّاهرة؟ هل تكفي قراءة النّصوص الدّاخليّة ومشاهدة إصدارات داعش وكلماتهم المسموعة من أجل الوقوف على مصادر عُنفيّة الظّاهرة؟ هل يكفي الاطّلاع على الملفّات القضائية واعترافات التّحقيقات من أجل الإحاطة بآليات التّشدّد ونوازع القتل العقائدي؟

الأكيد أنّ كل ما سبق مُهمّ من أجل فهم الظّاهرة والإحاطة بجميع تعرّجاتها واختلافات نماذجها ومسارات الفاعلين فيها.

كنت كغيري من الإعلاميّين والباحثين، مهتمّا بما يجري، مهموما بالتّراجيديا الواقعة الّتي منطلقها عالمنا العربيّ والّتي لا تهدّدنا فقط وإنّما تهدّد كلّ مكتسبات البشريّة في العيش بِحرّية وكرامة بعيدا عن الكراهيّة

وأساليب الإكراه ومحاكم التفتيش الدّينية والقتل على الهويّة.

كنت قد جمعت العديد من المواد حول ما حسبتُ أنّه سيكون الجزء الثّاني من كتابي. حاورت العديد من عائلات الإرهابيّين كما الضّحايا وانتقلت إلى أكثر من مكان في تونس وخارجها وشاركتُ في العشرات من النّدوات العلميّة من أجل فهم ما يجري.

سكنني همٌّ بحثيٌّ حقيقيّ طارحا أسئلة عدّة حول أسباب هجرة الشّباب إلى داعش للقتال إلى جانب تنظيم يعتبر من أكثر التّنظيمات دمويّة ورعبا. لماذا ينجذب إليه شباب العالم عامّة وكيف نفهم كثافة هجرة الشّباب التّونسي خاصّة وهو الّذي يعتبر الأكثر انفتاحا في المنطقة العربيّة؟!

في مرحلة معيّنة من البحث كنت متيقّنا أنّ هناك أمرا ما ينقصني هو مساءلة هذا الشّباب ذاته. بدا لي الأمر من الاستحالة بمكان. كيف لهؤلاء، أن يتحدّثوا وهم الّذين يكفّرون ويحاربون العالم كلّه. انتهت أغلب المحاولات الإعلاميّة والبحثيّة إلى رفض قطعيّ من قبل هؤلاء للحديث. كنّا في أغلب النّدوات العلميّة نتحدّث عنهم بضمير الغائب لسبب واقعيّ هو أنّهم لا يتحدّثون إلى الإعلام ولا علاقة لهم بما يعتبرونه ترفا لا قيمة له لباحثين أشبه بالجواسيس ويخدمون أجندات من يسمّونهم "الطّواغيت".

من المحاولات القليلة الّتي تمكّنتُ من استنطاق أفراد من داخل داعش هو بالقطع الشّريط الّذي صوّره

الصّحفي الألماني "يورغن تودنهوفر" الّذي زار الموصل في ديسمبر 2014، وشريط الفلسطينيّ البريطاني "مدين دابرية" الّذي سُجّل في أوت من نفس السّنة.

قوّة هذه الأعمال أنّها سجّلت وصوّرت الحياة تحت حكم تنظيم الدّولة الإسلاميّة أو داعش. مثّلت هذه الأشرطة المصوّرة مادّة مهمّة في فهم داعش من الدّاخل مع كثير من الاحترازات حول ترتيب زيارة الصّحفيين وما سمح داعش بتصويره وما قام التّنظيم بالتّعتيم عليه. ومهما يكن من أمر، نحن أمام موادّ ذات أهمّية لا تضاهى من أجل فهم ميكانيزمات (آليّات) التّنظيم من الدّاخل.

في نفس هذا السّياق صدر باللّغة الفرنسيّة في ديسمبر 2016 كتاب "العائدون" للصّحفي الفرنسيّ "دافيد تومسون" الّذي حاور فيه مجموعة من العائدين الفرنسيّين من تنظيم داعش والّذين يخضعون للمراقبة الأمنيّة حاليّا في فرنسا.

على هذه الأرضيّة البحثيّة الإعلاميّة بالذّات يندرج هذا الكتاب. هو يستهدف البحث في العقدة الأصعب من الظّاهرة الجهاديّة بما يعنيه من الاستنطاق الدّاخلي لها ودفع مرتكبي الأعمال الإرهابيّة ذاتهم إلى الحديث حديثا حرّا اختيارًا دون ضغوطات المراقبة الأمنيّة ولا السّجن من قبيل الحوارات الّتي قام بها بعض الصّحفيين الأمريكيّين مع أسرى تنظيم داعش لدى القوّات الكرديّة في شمال سوريا.

عندما عثرت على شهادة كاملة من داخل داعش تغيّرت منهجيّة بحثي تركت كلّ المواد الّتي جمعتها وبدأت تأليف هذا الكتاب متّخذا من هذه الشّهادة عمودا فقريّا لكلّ الكتاب:

داعش، فكرها ورعبها وجاذبيّتها ووعودها وإحباطاتها من خلال رحلة أحد مقاتليها إليها.

اقتنعت أنّ الأهمّ من كلّ الشّهادات الخارجيّة حول الظّاهرة الّتي جمعتها ومن كلّ الإحصائيّات ومن كلّ التّحليلات المبنيّة على الوثائق، هو هذه الشّهادة ذاتها. تغيّرت منهجيّة العمل كليّا بالنّسبة إليّ. أصبح لي مشروع آخر أصليّ هو هذه الشّهادة وأصبحت كلّ المعلومات الّتي تحصّلت عليها فرعا وخلفيّة للكتاب وداعمة له.

انصبّ كلّ جهدي على العمل طبقا لمنهجيّة الرّؤية والقراءة من الدّاخل. لا باستعمال كاميرا ولكن بتأليف كتاب لا يستنطق العشرات ولكنّه يتّخذ من المفرد نموذجا من أجل فهم عقليّة المجموعة ومنهجها. الأكيد أنّ الأمر يستدعي الكثير من النّقاش حول التّركيز على شخص بعينه في الفهم بالنّظر إلى اختلاف المسارات داخل ظاهرة معقّدة غير أنّ ما يرجّح وجاهة الاختيار هو وجود المشترك في تنظيم أهمّ سماته هو تبنّي العقيدة الواحدة والرّأي الواحد أي اشتراك المتعدّد والجماعيّ في النّظرة الواحدة والمصير الواحد.

في هذا الباب وفي كتابي "تحت راية العقاب" كان الجهد منصبا على البحث في المشترك بين ذوات مختلفة وقصص عدّة لجهاديّين من مختلف الطّبقات الاجتماعيّة وذوي مستويات علميّة متباينة. كان الهمّ وقتها منصبّا على البحث في المشترك بين بورتريهات متعدّدة.

كتابي الحاليّ اختلفت منهجيّته. نحن إزاء بورتريه واحد لشخصيّة محوريّة تحكي لنا حياتها كاملة تقريبا. ما الّذي

وقع لتهاجر في مرحلة عمريّة معيّنة إلى داعش؟ وما الّذي دفعها إلى الخروج منها؟ ولكن قبل كلّ هذا هو محاولة الإجابة عن سؤال محوريّ وهو كيف صُنعت داعش داخل هذه الشّخصية؟

تطرح مسألة اختيار وإيجاد الشّخصيّة المناسبة لمثل هذه القصّة نقاشا آخر أكثر تعقيدا. الجواب عن هذا السّؤال هو بحدّ ذاته إشكاليّ لأنّنا أمام أمر لا يخضع لرغبة ذاتيّة من الباحث أو الإعلاميّ.

كم عدد الجهاديّين الّذين خاضوا تجربة ضمن تنظيم دمويّ كداعش ويقبلون طواعيّة وبكلّ حرّيّة روايتها كاملة مع الوعي باستتباعاتها الذّاتية والأمنيّة والمستقبليّة؟!

الأكيد أنّنا أمام فرص محدودة جدّا حتّى لا نقول نادرة وخاصّة إذا حُكيت التّجربة بتفاصيلها دون أسماء مستعارة وهذه أوجه قوّة الشّهادة في هذا الكتاب. نحن أمام شهادة من الدّاخل تسفر عن وجهها وتعطي هويّتها كاملة وتتحدّث بحرّيّة وبكلّ أريحيّة عن الأمكنة والأزمنة. هي بهذا المقياس بالذّات سابقة مكتوبة.

عندما اقتنعت بوجاهة الفكرة وقوّة الاختيار، ولمّا عثرت بجهد كبير وسفر وترحال على القصّة المناسبة، طُرح أمامي إشكال آخر لا يقلّ أهمّيّة عن إشكال العثور على الشّهادة المناسبة. واجهتني إشكاليّة الأسلوب وشكل تأليف الكتاب. وجدتني مرّة أخرى أمام حيرة لا تقلّ عن حيرتي الأولى.

من سيحكي في الكتاب؟! وكيف؟! هل ستكون سيرة ذاتية بضمير المتكلّم autobiographie أم سيرة غيريّة

biographie أم تراني سأعتمد أسلوبا ثالثا جامعا بينهما أتحكّم فيه بمسار الرّواية ويُمكّنني من التّدخل من أجل تضمين الخلفيّات الحدثيّة والشّياقيّة اللاّزمة وهذا ما انتهيت إليه.

ثمّ جاءت حيرة ثالثة مضمونيّة تندرج ضمن دوائر أخلاقيّات العمل الإعلاميّ وهو كيف لي أن أخوض في منهجيّة الفهم من الدّاخل دون أن يؤدّي الكتاب بشكل غير مباشر إلى الدّعاية للإرهاب أو تمجيده. أحسب أنّي اجتهدت وأصبت في أن يكون الكتاب بعيدا عن كلّ هذا. من نافلة القول أنّ صاحب الكتاب يدرج نفسه في الضّفّة الإعلاميّة والبحثيّة الّتي تعمل على الدّفع في اتّجاه مجتمع مدنيّ حرّ تعدّديّ يتّخذ من العقلانيّة بوصلة وحيدة لقيادة البشريّة.

في الجانب المضمونيّ أيضا وحتّى يبتعد الكتاب عن إعطاء معلومات جافّة حرصت أن يكون الكتاب أشبه بالرّواية المشوّقة تستخدم تقنيّات السّرد وتستعمل أدوات الحكي عبر تقنيّات المراوحة بين السّيرة الذّاتيّة والغيريّة. فاعتمدت ضمير المتكلّم في أجزاء حَدثيّة مهمّة من الكتاب وتدخّلت في العديد من المواضع الّتي تتطلّب تدخّلي دون أن تفسد سياق السّرد ودون إسقاطات عديمة الجدوى. ربّما من المهمّ أن يكون للقرّاء رأي في هذه المنهجيّة المعتمدة كانت مغامرة أسلوبيّة شبيهة بالمشي في حقل من الألغام أعلم أنّ بعضا من الحيرة ستنتاب القارئ في بعض الصّفحات حول من يتحدّث في هذه الفقرة أو تلك. كان الأمر بهذا المعنى لعبة ضمائر وتنازع مساحات وذوات.

سمحت لي منهجيّة التّناول في أريحيّة كبيرة لتناول الشّخصيّة وكشف عالمها الدّاخلي. ربّما قوّة هذه المنهجيّة أنّها سمحت بمستوى كبير من تبئير الشّخصيّة وكشف كلّ خفاياها بقدر كبير من التّركيز. كان الكتاب أسلوبيّا ومضمونيّا ومن وجهة نظر معيّنة أشبه بمقابلة إكلينيكيّة تندرج ضمن علم النّفس السّريري Psychologie clinique قمت أنا الكاتب بتحفيزها وترتيبها زمنيّا وصياغتها لغويّا وسياقيّا وحدثيّا ومضمونيّا. وكانت الشّهادة عبارة عن كمّ هائل من الأقوال الاستذكاريّة الاسترجاعيّة والّذي هو أشبه بـ"النّداعي الحرّ" في علم النّفس السّريريّ.

من وجهة نظر اجتماعيّة تطرح المسألة من زاوية أخرى وهي كيف يمكن جعل الشّخصيّة الفرديّة محرارا لتغييرات الهويّة الجماعيّة وتحوّلاتها؟! ربّما تعوزني الآليّات السّوسيولوجيّة الكافية لقراءة الحكاية وسياقاتها الاجتماعيّة وهو أمر في نظري متروك للمختصّين في العلوم الاجتماعيّة.

الأكيد أنّ هذا الكتاب باعتباره شهادة بحث يُركّز اجتماعيّا على أنموذج واحد من أجل فهم المشترك مع ما للعمليّة من صعوبة في فهم الظّاهرة من كلّ جوانبها. كيف يمكن أن نقرأ قصّة شابّ تونسيّ من بين أكثر من ثلاثة آلاف شابّ آخرين ذهبوا وانخرطوا إلى جانب تنظيم داعش؟

إعلاميّا وبحثيّا يحاول الكتاب الإجابة عن سؤال: لماذا ذهب هذا الشّابّ التّونسيّ إلى داعش ولماذا خرج منها؟ كما يحاول الإجابة عن أسئلة أخرى أكثر أهمّيّة وهي ما الّذي فعل في هذه "الدّولة".

يروي لنا محمّد الفاهم في هذا الكتاب تفاصيل حياته في الرقّة وفي مدن سوريّة أخرى. يروي لنا تفاصيل لم تُحك من قبل، عن مسار هجرته السّرية من تونس مرورا بإسطنبول ووصولا إلى تلّ أبيض في سوريا. يحكي لنا عن مشاهداته وانطباعاته عند وصوله إلى الشّام وحلمه الّذي تحقّق بمزيد من الحكي يتحدّث إلينا عن العلاقات بين المقاتلين، عن حياة المهاجرين، عن تطبيق الحدود، عن الهرميّة التّنظيمية وعن الأمراء والجنود وعن الدّواوين. كما يحكي لنا عن "الغزوات" والحروب الّتي خاضها.

الكتاب هو أيضا قصّة الخروج من الدّولة. في هذا الباب بالذّات يُخيّب محمّد الفاهم، انتظارات المتلقّي وأمانيه. ليس في هذا الكتاب لا توبة ولا رغبة في العودة إلى تونس ولا إلى غيرها وبقي بعدها مصيره مجهولا. إنّها قصّة الهروب من الدّولة إلى ما بعد الدّولة. ربّما بتأويل مؤلّف الكتاب هو الضّياع والعدميّة بحثا عن معنى جديد للحياة!.

أهمّيّة الكتاب لا تتوقّف على تفاصيل الرّحلة إلى الرقّة وما تستأثره من حيّز كبير. الكتاب هو أيضا عمليّة عودة إلى الوراء، إلى الماضي الّذي شكّل الشّخصيّة وحدّد مسارها. يغوص الكتاب في طفولة محمّد الفاهم وفي مراهقته وشبابه وفي العوامل الّتي ساهمت في تكوين شخصيّته.

في الفصول الأخيرة من الكتاب يروي لنا محمّد الفاهم كيف أصبح سلفيّا جهاديّا. الأكيد أنّ تجربته تتقاطع مع تجربة المئات الآخرين الّذين جاؤوا إلى داعش من تونس ومن السّعودية ومن فرنسا ومن مناطق أخرى من العالم. الأكيد أنّ تجربته لا تلخّص الظّاهرة ولا تفسّرها في كلّيتها

وليس هذا طموحها. إنّها إضاءة تكشف ما تكشف مقا يُخفى داخل العتمة وإرادة الإنكار وهروب البعض من مواجهة الإشكال الثّقافي والدّيني الّذي يحيط بنا.

نعم لا يخجل الكاتب في اعتبار قصّة هذا الشاب إدانة لكلّ النّمط الثّقافيّ والدّينيّ الّذي أنتجه. كان أحد أهدافي من هذا الكتاب، تفكيك المركّب وتعرية الأنماط الثّقافية والدّينية الّتي أنتجت الإرهاب. من هذا الباب وحتّى لا يتحوّل الجلاّد إلى ضحيّة، من نافلة القول أنّ صاحب الشّهادة يتحمّل مسؤوليّته كاملة عن كلّ خياراته وأقواله وأفعاله الّتي ارتكبها.

ليس من مهامّ هذا الكتاب تقديم صاحب الشّهادة كضحيّة لأنّه واع ومسؤول عن انتمائه في زمن ما إلى منظمة إرهابيّة. أبعد من مجرّد إدانة صاحب الشّهادة، الجلاّد ذاته، يطمح الكتاب إلى البحث عن الجلاّدين الآخرين وما أكثرهم.

الكتاب بهذا المعنى وفي كلمات قليلة، هو جهد ضمن جهود أخرى تهدف إلى إلقاء حجرة أخرى في البركة الرّاكدة منذ قرون والّتي لم تحرّك مياهها أنهار الدّم المتدفّقة فوقها يوميّا في عالمنا العربيّ والإسلاميّ.

إنّه جهد آخر يهدف إلى المكاشفة الذّاتية أمام المرآة التّاريخيّة حتّى لا نبقى سجناء ذهنيّة العناد والمكابرة والإنكار.

هادي يحمد

تونس في 17 جانفي 2017

سَراب دابق

أواخر جانفي 2016

كنتُ يومها في مدينة منبج وكان الطّقس باردا، ممطرا. سكنتُ حينها في شقّة وسط المدينة. لا أتذكّر جيّدا معالم الشّقة المنبجيّة الّتي وصلتها منذ حوالي شهرين قادما من الرقّة.

لم تعد تفاصيل الشّقق الّتي أسكنها تمثّل لي شيئا مهمّا. شقق كثيرة سكنتها في المناطق الّتي تسيطر عليها الدّولة في الشّمال السّوري، بين مدن الرقّة والباب ومنبج. في أحيان كثيرة كنت أتأمّل صور ساكنيها القدامى المخبّأة في أدراج خزاناتها المهملة. كانت حينها وجوها باهتة لا حياة فيها. لم تكن هذه الصّور للسّكّان القدامى، وقتها، تعني شيئا لي وأنا المهاجر الجديد إلى الدّولة. كنت في زمن آخر. زمن المهاجرين الوارثين، الّذين تركوا كلّ ما يملكون في أوطانهم الأصليّة من أجل الاستيطان في دولة الإسلام "الّتي لا يُظلَم فيها أحد".

كانت هذه كلماتي في أحد الإصدارات الّتي أنتجها المكتب الإعلاميّ لولاية حلب[1]. يومها كنت في مدينة الباب وتحدّثت عن هجرتي من تونس وأنا الألمانيّ المنشأ من أجل وصولي إلى الدّولة الإسلاميّة. كان هدف الفيلم الدّعائي وقتها هو الرّدّ على موجات هجرة السّوريين وتركهم لديارهم. جاء هذا الإصدار مباشرة بعد الضّجّة الّتي أثارها موت الطّفل آلان الكردي على أحد الشّواطئ التّركيّة. غرق "آلان الكردي" ذو الثّلاث سنوات يوم 2 سبتمبر 2015 في أحد السّواحل التّركيّة حينما كان في مركب هجرة سرّيّة إلى اليونان.

كان عنوان الإصدار هو "ويستبدل قوما غيركم"[2] في إشارة إلى حلول المهاجرين القادمين من أصقاع الأرض الأربعة محلّ السّوريين الّذين غادروا ديارهم. كان في الإصدار الدّعائيّ مهاجرون تونسيّون وأزبك وطاجيك وصينيّون وأوروبيّون. كانوا يتحدّثون وقتها عن جنّتهم الجديدة.

أنتج هذا الإصدار في شهر سبتمبر من عام 2015 أي في بداية قراري بالخروج من الدّولة.

كنت موقنا وقتها أنّي أتحدّث دون قناعة حقيقيّة بما كنت أقول. قلت ما كان يريد سماعه الإعلاميّ صاحب الكاميرا. لم تعد الدّولة هي الدّولة ولم أعد أنا ذات

[1] المكتب الإعلامي لولاية حلب: أحد مكاتب الإعلام الّتي تتركز في كل ولاية خاضعة لسيطرة الدّولة يدير مكتب الإعلام المركزي كافة المكاتب الإعلاميّة في الولايات. ويعتبر مؤسّسات الفرقان و الاعتصام والحياة متصدّرة من حصّة مهاجرين آخرين.

[2] "ويستبدل قوما غيركم" إصدار مرئي بدوم عشر دقائق، نشر يوم 20 سبتمبر 2015 ظهر فيه محمد الغاعم

الشّخص الّذي سجد شكرا عندما خطّا أولى خطواته عابرا الأسلاك الشّائكة قادما من الأراضي التّركيّة.

في شقّة منبج تغيّر كلّ شيء تقريبا. لم أعد كما كنت محايدا بين الجدران الّتي أسكنها. ثمّة شيء ما تغيّر هذه المرّة. هذه الشّقّة ليست لي. إنّها لساكنها الّذين هربوا منها والّذين سيعودون إليها يوما. كنت أعلم أنّ بقائي فيها مؤقّت وأنّني بصدد قضاء أيّامي الأخيرة في الدّولة.

كانت المدينة وقتها معرّضة للقصف في كلّ حين من قبل طيران التّحالف حينا ومن الطّيران الرّوسي حينا آخر، فيما كانت قوّات سوريا الدّيمقراطية[1] تتقدّم نحو المدينة بعد سيطرتها جنوبا في شهر ديسمبر 2015 على سدّ تشرين الّذي أطلقت عليه الدّولة تسمية سدّ الفاروق.

هي كذلك الدّولة الإسلاميّة، ليست مجرّد دولة حرب، إنّها دولة تُغيّر أسماء السّدود والمدن والشّوارع وتلقّب مقاتليها بالكنى تعويضا لأسمائهم القديمة في تقليد قديم عند الجهاديّين منذ أيّام أفغانستان. أنا حملت كُنيتي معي من تونس. كنيتي "أبو زكريّاء". لم أغيّرها عند وصولي إلى أراضي الدّولة.

يوم الخروج، أفقت من نومي حوالي السّاعة الحادية عشرة صباحا، طبعا لمن يعرف عادات السّوريين. فإنّهم ينهضون من النّوم متأخّرين. يبدؤون نهارهم حوالي السّاعة العاشرة صباحا. يشرعون في فتح محلاّتهم التّجاريّة لتتسارع بعدها حركة الشّارع رويدا رويدا.

[1] قوّات سوريا الدّيمقراطية: تكوّنت في أكتوبر من سنة 2015 من قبل عدّة فصائل سوريّة مسلّحة تؤمن بالدّولة الدّيمقراطيّة العلمانيّة في سوريا تشكّل وحدات حماية الشّعب الكرديّة عمودها الفقري إلاّ أنّها تتكوّن كذلك من مجموعات عربيّة سريانيّة وأرمينيّة سوريّة

ركبت السّيارة الّتي كانت تحت تصرّفي وقتها. سيّارة مملوكة لإدارة المعسكرات المنضوية تحت ديوان الجند. اتّجهت إلى منزل أحد الإخوة حيث كنّا نجهّز أنفسنا للهرب. كنت في مجموعة متكوّنة من ثلاثة مهاجرين آخرين تصحب أحدهم زوجته مع أبنائها الثّلاثة. كلّنا تونسيّون. قرّرنا مغادرة الدّولة دون رجعة. كان اليقين السّائد بيننا جميعا أنّه لم يعد لنا مقام هنا. كنّا نخشى الاعتقال في كلّ حين من الأمنيّين[1]. كثرت الأقاويل حول ولائنا للدّولة. ما جمعنا هو قناعتنا بأنّ أيّ يوم إضافي في هذه المدينة، هو خطر على وجودنا. كنّا في صراع مع الوقت.

قصدت بعد وصولي إلى المنزل، أحد المحلاّت التّجارية لشراء بعض الحاجيات غير أنّه وأثناء رجوعي انزلقت بي السّيارة نتيجة المياه المتجمّدة الّتي تغطّي بعض الطّرق الإسفلتيّة في ذاك البرد القارس من شهر جانفي.

تسبّب لي الانزلاق في رضوض طفيفة نتيجة ارتطام السّيّارة بعمود على حافّة الطّريق ولكنّي تمكّنت من نقلها إلى أقرب ميكانيكيّ طالبا منه إمكانيّة إصلاحها في أقرب وقت ممكن.

بعد حادثة السّيّارة، اضطررنا إلى دفع جزء مهمّ من الأموال المخصّصة للمهرّب الّذي سينقلنا إلى الأراضي الواقعة خارج سيطرة الدّولة، إلى الميكانيكيّ.

عالج هذا الأخير السّيّارة ولكنّه لم ينجح في إصلاح عطبها تماما. فبمجرّد خروجنا من منبج في السّاعة

[1] الأمنيّون يشغلون العهد الأمني في داعش الذي يتبع تنظيميا ديوان الأمن العام وهو من أبرز دواوين الدولة (انظر فصل دولة الخلافة)

الخامسة مساء تقريبا في اتّجاه مدينة الباب، تعطّلت بنا العربة وأبت مواصلة السّير. توقّفت بنا وسط الطّريق.

قرّرنا الرّجوع مجدّدا إلى منبج والمبيت فيها وتأجيل موعد سفرنا إلى يوم الغد. هاتفت عبر تطبيقة "واتساب" المنسّق الّذي عبره سيكون تأمين وصولنا إلى المناطق الّتي تسيطر عليها إحدى المجموعات الإسلاميّة المنضوية تحت لواء المعارضة السّورية. أخبرته بتأجيل موعد وصولنا نتيجة عطل السّيّارة.

علمت فيما بعد أنّ "أبو موسى" القياديّ في جبهة النّصرة، والّذي نسّق خروجنا من الدّولة، نظّم في السّابق العشرات من المقاتلين من الدّولة. حصلت على رقمه عن طريق أحد الإخوة الّذين سبقني في الهروب.

المهمّ وفيما يخصّنا، تركنا السّيّارة بعد تعطّلها في مدخل منبج وعدنا إلى بيت أحد الإخوة. وطبعا عندما أتحدّث عن بيت أحد الإخوة فإنّي أقصد البيوت الّتي استولت عليها الدّولة ومنحتها إلى المهاجرين بعد خروج أهلها واعتبارها من عقارات الدّولة الإسلاميّة.

كانت منبج طوال سنوات التّأسيس، إحدى المناطق الحدوديّة المهمّة مع تركيا. منذ السّيطرة عليها تدريجيّا وافتكاكها من تنظيمات الجيش الحرّ في نهاية جانفي 2014 إلى غاية استعادتها من قبل قوّات سوريا الدّيمقراطية في أوت من سنة 2016.

اعتبرت منبج منذ سيطرة الدّولة عليها مدينة المهاجرين دون منازع، لا يضاهي اختلاط المهاجرين فيها وتنوّع جنسيّاتهم إلاّ كثرة المهاجرين الّذين سكنوا مدينة الرّقّة.

في أشهر الدّولة الأولى، كنت تسمع في منبج الأصوات العربيّة بمختلف اللّهجات، تونسيّة ومصريّة وجزراويّة ومغربيّة وشاميّة... تختلط بلغات أخرى مثل الفرنسيّة والإنجليزيّة والألمانيّة والرّوسيّة والصّينيّة... كانت منبج مدينة صغيرة تجمع أشتات المهاجرين من كلّ أصقاع الأرض.

لم تكن لي ذكريات مهمّة في هذه المدينة، باستثناء أيّام المعالجة الطّبية القاسية بسبب مرض ألمّ بي وقتها وهو الّذي سأتي على ذكره لاحقا.

ربّما ما بقي من ذاكرتي في منبج هو مطعم البيك[1] الّذي كثيرا ما تردّدت عليه وتلك اللاّفتات الّتي تنتشر في مداخل المدينة وساحاتها والّتي تشيد بمآثر الدّولة الإسلاميّة وطاعة ولاة أمرها.

في الأسابيع الأخيرة قبل مغادرتي للمدينة، أصبحت أنظر إلى هذه اللاّفتات الّتي تنتشر في كلّ مكان والّتي تكتب عادة باللّون الأبيض على لافتات سوداء نظرة تذكّرني بازدراني للافتات الإشادة بنظام بن علي في تونس والّتي كانت تنتشر في شوارع مدينتي مع حلول ذكرى وصول الرّئيس إلى السّلطة. ما تغيّر في ذهني فقط هو لون اللاّفتات. كانت هناك بنفسجيّة، أصبحت هنا سوداء.

كان السّؤال الّذي يراودنا بعد عودتنا إلى منبج هو كيفيّة توفير الأموال للخروج من المدينة بعد تعطّل السّيّارة. كان الحلّ الأقرب هو بيع قطع السّلاح الّتي لدينا.

[1] البيك سلسلة مطاعم مشهورة في منطقة الشّرق الأوسط وتأسّس أوّل فرع لها في مدينة جدّة في السّعوديّة في سبعينات القرن الماضي

اعترض الإخوة في البداية على فكرة البيع لسبب مهمّ وهو أنّ دكاكين بيع السّلاح أصبحت في الأشهر الأخيرة تحت أعين رقابة أمنيّي الدّولة.

كانت دكاكين بيع السّلاح أحد المظاهر الجديدة الّتي فاجأتني بمجرّد وصولي إلى الشّام. كانت هذه المحال تنتشر في كلّ المدن الّتي تسيطر عليها الدّولة تقريبا. دكاكين تباع فيها مختلف الأسلحة الخفيفة والمتوسّطة. والحقيقة وهو ما فهمته من خلال حديثي مع بعض التّجّار، أنّ هذه الظّاهرة انتشرت في الشّمال السّوري عموما منذ بداية العمل المسلّح في بداية 2012.

لم تغيّر الدّولة من وضعيّة هذه الدّكاكين عند سيطرتها على الرّقّة والمدن المحيطة بها ولكنّها أخضعتها للرّقابة من قبل ديوان الحسبة، رقابة تشمل أسعار الأسلحة لتصل إلى البائعين والشّارين للأسلحة من العوامّ ومن جنودها.

زادت رقابة الجهاز الأمنيّ في الأشهر الأخيرة على تجّار السّلاح نتيجة هروب العشرات من المقاتلين من الدّولة وخاصّة في المناطق الشّماليّة المحاذية لتركيا. أصبح الأمنيّون أكثر تشدّدا في مسألة بيع الأسلحة من قبل المقاتلين من المهاجرين.

فكلّما وصلتهم معلومة بأنّ مقاتلا ما باع سلاحه إلاّ وأخضعوه مباشرة للتّحقيق وإذا ثبتت رغبته في الانشقاق والهروب يخضع لدورة استتابة فإن لم تنفع يكون مصيره السّجن، وقد تصل العقوبة إلى القتل إذا ما اكتشف

الأمنيّون في معتقداته تبنّيه لأفكار ما يطلقون عليهم غلاة وخوارج[1].

كثيرة هي قصص الرّعب الّتي تداولناها قبل خروجنا سرًا، عن قتل أمنيّي الدّولة للمتّهمين بالانشقاق والخروج عليها من مقاتليها عامّة ومهاجريها خاصّة. كان مطار كشيش العسكريّ قرب قرية مسكنة في ريف حلب الشّرقيّ والّتي أطلقت عليها الدّولة تسمية مسلمة، مقبرة لكلّ من ثبتت عليه تهمة الغلوّ والخروج.

في اليوم التّالي لعودتنا إلى منبج، أفقت صباحا وحملت بندقيّتيّ كلاشنكوف، واحدة على ملكي والأخرى تركها لي أحد المهاجرين ممّن نجح في الخروج قبلنا بيوم واحد.

كان سلاح الكلاش الّذي أملكه الأغلى ثمنا ويُعرف بين مقاتلي الدّولة بالكلاش ذي النّجمة المختومة على حافته. أتذكّر أنّي تحصّلت عليه في بداية هجرتي إلى الدّولة من مخزن في مدينة القائم العراقيّة.

بسبب رغبتي في إتمام عمليّة البيع بسرعة، أعتقد أنّ صاحب متجر السّلاح فهم أنّي كنت مضطرًا لبيع بضاعتي، فاستغل الفرصة لشراء الرّشاشين بأرخص الأسوام. بعت له السّلاحين بألفي دولار فقط وغادرت المحلّ.

رافقتني الكلاش الّتي بعتها في مختلف غزواتي في الدّولة تقريبا وهي الغزوات الّتي سأذكرها لاحقا. كانت هذه الكلاش عزيزة على نفسي ومرافقتي طوال مدّة إقامتي في

[1] نشر المكتب الإعلامي لولاية الرقة بتاريخ 21 ديسمبر 2014 إصدارا مرئيا تحت عنوان "القبض على مئة من الغلاة حاولت التسرّب إلى دولة الخلافة". أورد هذا الإصدار اعترافات مجموعة من المهاجرين من أصول آسيا الوسطى بتبنّيهم منهج تكفير عوام المسلمين وتكفير قيادة داعش طبقا لعقيدة "عدم العذر بالجهل".

الدّولة. أتذكّر أنّ أحد المهاجرين عرض عليّ شراءها بألف وخمسمائة دولار ولكنّي رفضت تعلّقا بها.

بعد بيعي لقطعتيّ الكلاش، جهّزنا أنفسنا وقصدنا محطّة سيارات الأجرة الّتي تسمّى عند السّوريين بالكاراج. إتّفقت مع أحد السّائقين على نقلنا إلى قرية تلّ بطال الّتي تقع بين مدينتيّ الباب والرّاعي في الرّيف الشّمالي لحلب.

ركبنا سيّارة الأجرة بعد أن ساد بين رفاقي تفاهم أنّه، وفي صورة إيقافنا من قبل حواجز الدّولة، أن نقول لهم، أنّنا في طريق الذّهاب لخطبتي لإحدى فتيات "العوام" وهو المصطلح الّذي تطلقه الدّولة على العامّة من المسلمين من غير جنودها. سأكون أنا العريس المنتظر.

لم يقع إيقافنا في أيّ حاجز في الطّريق. ولكنّ الإشكال بالنّسبة إلينا في علاقة بالحواجز، وهو أنّ الدّولة تعمد إلى تكثيفها في المناطق المؤدّية إلى الحدود التّركية أو إلى نقاط الرّباط مع فصائل الجيش الحرّ أو الجيش النّظامي. خفّف تحليق طيران التّحالف المتواتر في الأشهر الأخيرة من كثافة الحواجز. فقد كانت هدفا سهلا للطّيران لأنّها توجد في المناطق المكشوفة الخالية من السّكان. كان هذا في صالحنا أثناء الخروج من منبج.

باعتبارنا مهاجرين ونرتدي البزّات العسكريّة فإنّ مرورنا بالحواجز ما كان ليلفت الانتباه. كثيرا ما تثير هذه الحواجز الرّعب بين العامّة من السّوريين بسبب انتشار المسلّحين من الأمنيّين المقنّعين فيها والّذين يوقفون السّيّارات بصورة آليّة لتفتيشها أمام سواتر ترابيّة تساندهم عادة سيّارة رباعيّة الدّفع.

في الحقيقة وبصرف النّظر عن هذه الحواجز، فإنّ حالة التّأهّب تسود كلّ أفراد الدّولة سواء المنتشرين بين الحواجز أو المرابطين أو الّذين يتواجدون في المدن. فسمة الدّولة الّتي هي في حالة حرب دائمة هو الوصف الأليق بالدّولة الإسلاميّة.

عبرنا إلى مدينة الباب واتّجهنا منها شمالا وباقترابنا من قرية تلّ بطال هاتفت المهرّب السّوري الّذي نقدته ألف دولار عن كلّ شخص مع استثناء الأطفال.

من المهمّ القول إنّه وفي كلّ المعاملات الماليّة داخل الدّولة الإسلاميّة الماليّة، تعتمد العديد من العملات من قبيل اللّيرة السوريّة والدّينار العراقيّ غير أنّ أكثر العملات قيمة هو الدّولار الأمريكيّ. بالدّولار الأمريكيّ تصرف كفالات المهاجرين وعائلاتهم وتصرف مرتّبات المقاتلين. كان مرتّب المقاتل لا يتجاوز الخمسين دولارا تضاف إلى ما يوازيها من كفالة مأكل وسكن. وتدفع الدّولة خمسة وثلاثين دولارا على كلّ طفل في العائلة.

مع خسران الدّولة للعديد من المدن ونضوب مواردها انخفضت قيمة الكفالات. كان كلّ ما يتعلّق بالمصاريف المالية للمهاجرين يتمّ بعملة الدّولار.

لم تستطع الدّولة رغم خروجها ورفضها للنّظام العالمي برمّته أن تخرج من رقبة الدّولار الأمريكيّ وتلك قصّة أخرى!

قضّينا ليلتنا في بيت المهرّب في قرية تلّ بطال قبل أن نخرج صباحا بعد أن حلقنا ذقوننا ونزعنا بزّاتنا العسكريّة.

كان حلق ذقوننا طريقة لحماية المهرّب في صورة القبض عليه من جند الحدود التّابعين إلى الدّولة. بالنّسبة إليّ كانت هذه المرّة الأولى الّتي أحلق فيها لحيتي منذ وصولي إلى الدّولة. أتذكّر أنّ آخر مرّة حُلِقت فيها لحيتي كانت بسجن المرناقيّة بتونس العاصمة.

بالمقابل حافظت على شعري الطّويل المنسدل على كتفيّ والّذي كثيرا ما افتخرت به.

يعجبني الشّعر الطّويل منذ أن كنت مراهقا. كثيرا ما أتمتّع برؤية تموّجات شعر الفتيات المنسدل على أكتافهنّ في معهد محمود المسعدي في مدينة نابل حيث درست. عند وصولي إلى الدّولة كان مشهد المقاتلين الّذين يطيلون شعورهم يشدّني. كان مشهدا مهيبا بالنّسبة إليّ.

كان الغرض من تغيير مظهرنا هو الذّوبان في الجموع الكبيرة من العوامّ الّذين يغادرون المناطق الّتي تسيطر عليها الدّولة خوفا من القصف المتواصل.

سرنا في صباح اليوم التّالي باكرا يتقدّمنا المهرّب ويصحبنا العشرات من عوام السّوريين الّذين غادروا مساكنهم. لازمنا الصّمت طوال الطّريق بين الجموع وكان الاتّفاق بيننا أن لا نتحدّث فيما بيننا حتّى لا تكتشف لهجتنا التّونسيّة بين العامّة من السّوريين.

قادنا المهرّب بين الطّرق الفلاحيّة مُجنّبا إيّانا حقول الألغام المزروعة في محيط المناطق الّتي تسيطر عليها الدّولة. كانت الدّولة تزرع بشكل عشوائيّ الألغامَ في المناطق الحدوديّة وتلك الّتي تفصلها عن نقاط التماس مع الجماعات المسلّحة الأخرى. لم تكن تضع أيّة خريطة للألغام الّتي

تزرعها. عديدون هم جنود الدّولة نفسها الّذين قتلوا نتيجة الألغام الّتي تزرعها دولهم.

عبرنا في طريقنا العديد من الضّياع والقرى في طابور طويل من العوام.

تلّ بطال هي واحدة من عشرات القرى الّتي تقع بين منبج وأعزاز في ريف حلب الشّمالي. بين القرى العديدة الّتي زرتها في هذه المنطقة ظلّت دابق أكثر القرى الّتي علقت بذاكرتي. كانت هذه القرية أثناء فترة خروجنا تحت سيطرة الدّولة. زرت دابق قبل خروجي في طريقي إلى أعزاز قبل ذلك مرّتين.

بخلاف الهالة الضّخمة المرسومة لها عند بعض من مقاتلي الدّولة وفي بعض وسائل الإعلام لم تكن للقرية الصّغيرة أيّ ميزة تُذكر. بيوت متناثرة تحيط بها أراض فلاحيّة. لا شيء يميّزها عن أيّة قرية أخرى في ريف حلب الشّمالي.

آخر زيارة لي لدابق كانت مع أمير كتيبة تونسيّ رافقته عندما كان في مهمّة رباط. أتذكّر أنّنا وصلنا إليها بعد الظّهر. يومها خاطبني مرافقي قائلا: "أترى هذه القرية الصّغيرة والضّياع المترامية حولها؟"... "هنا ستقع حرب نهاية العالم بين معسكر الكفر ومعسكر الإيمان" أضاف[1].

في الحقيقة لم يضف الأمير التّونسيّ لي معلومات جديدة عن دابق. لا أتذكّر جيّدا ردّة فعلي وقتها. الأكيد أنّي

[1] دابق قرية سورية تبعد 35 كلم شمال شرق حلب. وقعت بها يوم 8 أوت 1516 معركة مرج دابق بين العثمانيين والمماليك. تقول الشّريعة الإسلاميّة إنها ستكون مكانا لمعركة آخر الزّمان بين المسلمين والكفّار بناء على حديث في صحيح مسلم مروي عن أبي هريرة يقول "لا تقوم السّاعة حتى ينزل الرّوم بالأعماق أو بدابق فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض." (صحيح مسلم. كتاب الفتن وأشراط السّاعة. الحديث رقم 5161) أطلقت داعش على إحدى مجلاّتها الشّهيرة باللّغة الأنجليزيّة تسمية دابق.

لم أكن حينها إلاّ مباركا لقوله. كيف لي أن أقول خلاف ذلك؟!

كان ما شاهدته في دابق مجرّد سراب للصّورة الّتي حملت إلينا ونحن في تونس. في مخيّلتي عوّضت دابق تدريجيّا حلمي الطّفوليّ بالعودة إلى مدينة دورتموند الألمانيّة. خبا حلم العودة إلى ألمانيا وحلّ محلّه تدريجيّا حلم الهجرة إلى الشّام.

كان الشّوق إلى دابق حينها هو شوق إلى الشّام والجهاد في الشّام. فالشّام تنادي كما كنت أسمع في أحد الأناشيد التّحريضيّة. فيما كانت بقايا كلمات شيخي وحبيبي وقتها الخطيب الإدريسي[1]. منظّر التّيار السّلفي الجهاديّ في تونس، تتناهى إلى سمعي. كان يردّد لنا في غير موضع بأنّه "قد قرب الإمام وموعدنا الشّام"!.

بقي الخطيب هناك في تونس وجئنا نحن إلى هنا. جئنا إلى الشّام بالآلاف. قتل منّا المئات وأُسر العشرات. المهمّ جئت إلى هنا. تحقّق "حُلمي" بالوصول إلى الشّام. ولكن ماذا بعد؟!

خضتُ الغزوات. كنتُ شاهدا على دماء الرّعب الغامقة واختنقتُ برائحة البارود ومشيتُ على بقايا الأشلاء الآدميّة وصمّت أذاني المفخّخات. هذا قانون الحروب الّتي جئنا بالآلاف للمشاركة فيها. إذا لم تَقتل تُقتل. الأفضل لي أن أنسى كلّ هذا الآن.

[1] الخطيب الإدريسي منظّر السّلفيّة الجهاديّة في تونس. أصيل قرية سيدي علي بن عون بولاية سيدي بوزيد (انظر فصل "العشرينيّة المظفّرة" من ص 51 من كتاب "تحت راية العقاب: سلفيّون جهاديّون تونسيّون" تأليف هادي يحمد. دار الميدان للنشر. تونس 2015)

بعد سنة قضيتها في الشّام، أصبحت دابق عبارة عن سراب منازل متباعدة لا قيمة لها. نفس السّراب الّذي شاهدته قبل هذا التّاريخ بعام تقريبا عند عبوري الصّحراء هاربا في اتّجاه ليبيا قادما من تونس.

كنت لهلتها عطشان حافيَ القدمين، أبحث عن أيّ منزل أو عابر سبيل في الصّحراء لأروي عطشي. كلّما تراءى لي شيء من بعيد ظننته منزلا دون جدوى. ما كان أشدّ من العطش وسراب البيوت، كانت رغبتي في أن أصل إلى بُغيتي كنتُ حينها أشقّ الرّمال والسّباخ حافيًا عطشانَ من أجل هدف واحد وحلم غيّر حياتي، الوصول إلى الشّام.

حُلم الشّام

أواخر ديسمبر 2014

كان الوصول إلى الشّام حُلمي. كان الدُّخول إلى أراضي الدّولة الإسلاميّة قمّة نشوة هذا الحُلم. نعم رأيت في المنام في زاوية مظلمة من زنزانة بمركز الإيقاف ببوشوشة بتونس العاصمة أنّي وصلت للشّام. رويت رؤيتي لأحد الموقوفين الّذين التقيتهم عرضا في الزّنزانة. ثمّ تحقّق الحلم.

كان الأمر بالنّسبة إليّ بمثابة إحياء وعد النّبوّة القديم بما يعنيه ذلك من إقامة شرع الله وتطبيق حدوده وتجسيدا لمعاني التّوحيد. من كان يجهل بيننا وقتها الحديث الّذي يقول "ثمّ تكون خلافة على منهاج النّبوّة"؟. كان إعلان تأسيس الدّولة في غرّة رمضان 2014 نقطة فارقة في حياتي.

لم أُخْفِ فرحتي بإقامة الدّولة وأنا أشاهد إصدارا يصوّر احتفالات يوم إعلان التّأسيس بدوّار النّعيم في الرّقّة. ردّدت بعدها بين أصحابي "اليوم أصبحت لنا دولة!"

لن أستطيع التّعبير بالكلمات عن الفرحة الّتي غمرتني بالوصول إلى أراضي الدّولة. كان الأمر يتعلّق بالنّسبة إليّ بتحقيق مشروع العمر.

في مراهقتي المبكّرة كان حلم حياتي هو الهجرة إلى ألمانيا. هجرة إلى هناك تعني العودة إلى البلد الّذي قضيت فيه السّنوات الخمس الأولى من طفولتي. تغيّرت وجهة هذا الحلم. لم تعد ثلوج مدينة دورتموند الشتوية تجذبني أصبحت شمس مدينة الطّبقة ولهيب صحراء تدمر وأزقة الرّقّة الأقرب إلى قلبي. كان شوق الوصول إلى الشّام لا يوازيه شوق الجنّة الأوروبيّة الّتي يحلم بها الشّباب التّونسيّ والعربيّ بشكل عامّ.

وسط الحملة الأمنيّة على التيّار الجهاديّ الّتي بدأت تسود تونس، بعد اغتيال النّاشط اليساريّ شكري بلعيد يوم 6 فيفري 2013 وتصنيف تنظيم أنصار الشّريعة تنظيما إرهابيا وبعد اغتيال النّائب في المجلس التّأسيسي محمد البراهمي يوم 25 جويلية 2013، أصبح التّمكّن من مغادرة البلاد والوصول إلى مدينة إسطنبول هو نجاح فعليّ في الوصول إلى الدّولة الإسلاميّة. كلّ أصحابي الّذين سبقوني في الهجرة يردّدون لي بالقول: "الوصول إلى إسطنبول يعني الوصول إلى الرّقّة".

كان يوم إثنين حينما وصلت إلى مدينة إسطنبول التّركيّة قادما من مطار معيتيقة بالعاصمة طرابلس عبر الخطوط اللّيبية في نهاية شهر ديسمبر 2014.

نزلت بنا الطّائرة في مطار مصطفى كمال أتاتورك. كان الأمر يتعلّق بالنّسبة إليّ بآخر مرحلة يمكن أن تجعلني أطأ أراضي الدّولة الإسلاميّة.

نزلت بنا الطّائرة على المدرّج في حدود السّاعة الخامسة بعد الظّهر. بلحية خفيفة مع تسريحة شعر عصريّة مرتديا

سروال جينز وجاكته سوداء تقدّمت في الممرّ. عبرت النّفق الصّغير الرّابط بين الطّائرة والمطار. إعترضنا شرطيّ تركيّ كان يقوم بمراقبة أوّليّة لجوازات القادمين. جاء دوري. نظر إلى صورتي في الجواز. كانت لحيتي كثّة في وثيقة الجواز الخضراء.

أمعن النّظر فيّ وسألني بابتسامة ساخرة "تونسيّ!؟" أجبته بـ"نعم". كنت أعلم سبب سخريته المبطّنة!.

لم يمرّ يوم واحد، في تلك الفترة، دون وصول شبّان تونسيّين إلى مطار إسطنبول. طبعا الوجهة هي الشّام. كان طريقا مفتوحا للمهاجرين عامّة والتّونسيّين خاصّة نحو غازي عنتاب وأورفا وأنطاكية وغيرها من المدن التّركيّة الّتي تمثّل المعابر الحدوديّة مع سوريا.

عبر إشارة من رأسه أفسح لي الطّريق للمرور إلى مصلحة جوازات المطار. لم تكن مخاوفي وريبتي وأنا القادم من طرابلس في محلّها. كان الأمر كما أكّد لي أحد الإخوة التّونسيّين في مدينة صبراتة حيث أقمت لعدّة أيّام "تمام التّمام" لمرور الشّباب من أمثالي من مطار إسطنبول.

كانت العلاقات بين تنظيم الدّولة والسّلطات التّركيّة في ذلك الوقت جيّدة. تكرّرت المؤشّرات والأحداث الّتي تثبت متانة هذه العلاقة. كُنت في الرّقّة حينما وقع نقل قبر سليمان شاه[1] يوم الأحد 22 فيفري 2015 من قبل الجيش التّركي من الأراضي الّتي تسيطر عليها الدّولة الإسلاميّة إلى

[1] سليمان شاه جدّ عثمان الأول، مؤسس الإمبراطورية العثمانية (1299 - 1923) يوجد ضريحه في سوريا ويعتبر طبقا لمعاهدة تركية فرنسية وقعت سنة 1921 الأرض الوحيدة الّتي تقع تحت السيادة التركية خارج تركيا وقع نقل الضّريح لثلاث مرّات داخل الأراضي السّوريّة، آخرها نقله إلى قرية أشمة المتاخمة بنقل الضّريح من قرية قرة قوزاق التي تسيطر عليها الدّولة.

الأراضي التّركية. كان ذلك دليلا قويا بالنّسبة لي وقتها
متانة هذه العلاقات.

جاء دور ديوانة الحدود من أجل ختم الدّخول
جوازي. من بين الطّوابير العديدة أمام نوافذ متعدّ
اخترت نافذة شرطيّة حدود تركيّة. دقّقت قليلا في
سفري وفي وجهي قبل أن تعيد لي الجواز مختوما. تعلّ
الأمر بالنّسبة إليّ باللّحظات الأخيرة لتحقيق حلم طا
انتظاره. "خلاص" كنت أردّد. أصبحت على أبواب أراضي
الدّولة.

قريبا ستخوض الحروب وتُشاهد دماء الرّعب الغامض
وتختنق برائحة البارود وتمشي على بقايا الأشلاء الآدميّ
وستصمّ آذانك المفخّخات. كان هذا قانون الحرب الّتي
جئت من أجلها. إذا لم تَقتل تُقتل. الأفضل لك أن لا
تتحدّث في كلّ هذا الآن.

لم أتجاوز نافذة الدّيوانة ببضعة أمتار حتّى هاتفني
الإخوة من سوريا. سألوني: "أين وصلت؟!" أجبتهم: "خلاص
لقد مررت من نافذة الجمارك!". كانوا على اتّصال بي قبل
ركوبي الطّائرة من مدينة طرابلس اللّيبية. كان الرّقم الّذي
وصلني من الإخوة في الرقّة مُشفّرا يتمّ عن طريق تنزيل
تطبيقة على الهواتف النّقّالة لا تمكّن متلقّي المكالمة من
معرفة مصدرها.

قلت للإخوة بأنّه وقع ختم جواز سفري وتجاوزت حاجز
القمارق. أنا الآن في تركيا. سمعت في الطّرف المقابل من
الهاتف تكبيرات وحمدلة وابتهاجا كبيرا بدخولي لإسطنبول.

طلبوا منّي الاستعداد لدخول الشّام وسيعملون على ترتيب
كلّ التّفاصيل من أجل الرّحلة إلى الحدود.

قبل وصولي إلى تركيا أمدّني ابن عمّي في الرقّة برقم
امرأة سوريّة من مدينة إدلب شمال سوريا ومناصرة
للدّولة ومقيمة في إسطنبول.

حملت حقيبتي الصّغيرة وامتطيت إحدى سيّارات
الأجرة السّاكنة في باب المطار دُون أن أجادل سائقها كثيرا
في السّعر. طلبت منه نقلي إلى حيّ "لاليلي" في وسط
إسطنبول. استلقيت على المقعد الخلفيّ للتّاكسي وغصت
في فرح لاحظه السّائق في المرآة العاكسة داخلها. "أخيرا
سأحقّق حلمي بالوصول" كنت أردّد في سريرتي.

في الطّريق إلى وسط المدينة، أبهرتني شوارع إسطنبول
بنظامها ونظافتها ومساجدها الّتي تزيّنها قبابها الخضراء
ومآذنها العالية. لم يبق في ذاكرتي الطّفوليّة الشّيء الكثير
من هندسة مدينة دورتموند حيث ولدت.

ربّما ما بقي في ذاكرتك هو تلك العمارات العالية الّتي
حُشرت فيها أُسر العملة المهاجرين والّتي كنتَ تلعبُ بين
باحاتها. كنتَ طفلا وكنتَ تمنعُ ابن الأسرة الألمانية الّتي
تعيش في نفس عمارة والديك، من أن يقترب من
صديقاتك البنات.

كُنتَ تُريدهُنّ لنفسك فقط. تعلّمتَ مبكّرا أن لا
يُشاركك أحد في ما تعتبره مساحات خاصة بك. نَمت في
هذه المساحات قيمة الإعتزاز بالنّفس الزّائدة عن اللّزوم
والإصرار على أن تصل إلى ما تُريده.

في إسطنبول خالجك ذات الشّعور. إنّك تنال اليوم ما كنتَ تُريده. قرّرت الوصول إلى "دولتك". لن يمنعك شيء من الوصول. ها أنت قاب قوسين من الوصول.

دلفتُ باب أوّل نُزل وصلت إليه بعد نُزولي من سيّارة التّاكسي في منطقة لالي. طلبتُ غرفة. لا أتذكّر ملامح عون الاستقبال. لم أكن أبالي بملامح الوجوه العابرة قبل الوصول إلى بُغيتي. وضعت حقيبتي في الغرفة ونزلت من أجل شراء بعض الحاجيات البسيطة الّتي أحتاج إليها.

عدتُ إلى غرفة النّزل. أخذتُ حمّاما وتمدّدت في فراشي قلّبت أرقام هاتفي لأعثر على رقم "أمّ المجاهدين" السّورية.

علمت فيما بعد أنّ زوجها قُتل من قبل النّظام السّوري وقامت هي كردّة فعل وحبّا في الدّولة بتزويج بناتها الثّلاث من مقاتلين في الدّولة.

هاتفتها عن طريق تطبيقة "الواتساب". أخبرتها أنّي أبو زكرياء ابن عمّ "أبو مصعب" المتواجد في الرقّة. بمجرّد أن عرفت هويّتي طلبت منّي المجيء للمبيت عندها، رغم إخباري إيّاها أنّي حجزت غرفة في نزل. ورغم الأمطار الغزيرة المتهاطلة على اسطنبول تلك اللّيلة، ألحّت أمّ المجاهدين عليّ بالمجيء وأرسلت إليّ سائقا حملني إلى بيتها. خضعت إلى رغبتها.

كان لأمّ المجاهدين إضافة إلى بناتها الثّلاثة اللاّتي زوّجتهنّ إلى مقاتلي الدّولة، ثلاثة أبناء صغار أكبرهم سنًّا في حدود الأربعة عشرة سنة تقريبا. استقبلني أبناؤها واستضافتني هي بترحاب كبير.

كان من الواضح أنّ بيت أمّ المجاهدين أصبح محطّة عديد المقاتلين الأجانب الّذين يصلون إلى إسطنبول قبل اتّجاههم إلى الشّام.

قضّيت جزءا من ليلتي الأولى في الحديث معها بحضور أبنائها. حدّثتها عن مسيرتي في تونس ومغامراتي هناك مع أجهزة الأمن، وروت لي هي قصّتها وقصّة مقتل زوجها وخروجها من سوريا وإقامتها في إسطنبول وتزويج بناتها من مقاتلي الدّولة.

أفصحت لي أمّ المجاهدين ليلتها، أنّها ما كانت لتتردّد في تزويجي من ابنتها الصّغرى لو وصلت إلى إسطنبول قبل هذا التاريخ بشهر.

زوّجت أمّ المجاهدين بنتها الصّغرى لأحد الشّرعيّين في الدّولة. ذات الشّرعيّ الّذي سأمثُلُ أمامه بتهمة كيديّة في الرقّة والّذي سأتي على ذكره لاحقا. المهمّ شكرتها على حسن ظنّها وثقتها ملاحظا لها أنّي متزوّج، وأنّ زوجتي ستلتحق بي إلى الشّام. كما أخبرتها أنّ زوجتي لا تمانع في زواجي بثانية باتّفاق بيننا منذ أن ربطت مصيرها بمصيري.

قضّيت في بيت أمّ المجاهدين يومين آخرين، كانت لي فرصة للتّجوّل في إسطنبول والتّنزّه بين شوارعها في انتظار اليوم الموعود.

في صبيحة اليوم الثّالث ودّعت أمّ المجاهدين وامتطيت سيّارة يقودها نفس السّائق الّذي أحضرني إلى منزلها. قادني بتعليماتها إلى حيّ "اكساراي" في وسط إسطنبول حيث كان بانتظارنا مجموعة من الأُخوة.

نزلت من السّيّارة عند محطّة المترو. وجدت خمسة أشخاص بانتظاري. علمت فيما بعد أنّهم أربعة جزائريّين يرافقهم سوريّ. كانوا جميعا عناصر تعمل لصالح "إدارة حدود الدّولة" مستقرّين في إسطنبول. كان دورهم هو تسفير المهاجرين بمجرّد وصولهم إلى إسطنبول إلى الحدود السّورية. علمت فيما بعد أنّ للدّولة شبكة متكاملة من الخلايا في هذه المدينة وفي مدن أخرى حدوديّة مع سوريا. كانت مهام هذه الخلايا حصرا الاستقبال والتّنسيق مع المهرّبين على الحدود.

كان لقاؤنا مقابل مسجد "الوالدة السّلطانة" الّذي يعدّ من أقدم المساجد العثمانيّة في منطقة الفاتح، تحت جسر قريب من محطّة التّرامواي بأكسراي في المفترق المؤدّي إلى شارع كمال أتاتورك.

رحّب بي الشّبان الجزائريّون الأربعة فيما وجّه لي الشّاب السّوري تحيّة مرحة باللّهجة السّورية. "شلونك" المصطلح الأكثر تردّدا بين السّوريين للسّؤال عن الحال. كانت هذه المرّة الأولى الّتي أتحدّث فيها إلى شامي. أعجبني اللّهجة السّورية كثيرا. بعد إقامتي في الدّولة أصبحت أجيد التّحدّث بها وأفرّق بين لهجة الحلبيين والرقّاوية والأدالبة وغيرها من اللّهجات الشّاميّة.

إتّخذنا لنا ركنا في مقهى" مادو Mado" القريب من المكان وأوضح لي أحد الشّبّان الجزائريّين الأربعة تعليمات الوصول إلى الحدود مع الشّام. كان كلّما تحدّث عن الطّريق الّذي سنسلكه ازداد شوقي لهذا اللّقاء المرتقب.

رغم إلحاحهم في أن أشرب شيئا ما، شاكيا على عادة الأتراك أو قهوة على عادة التّونسة، فإنّني رفضت بلطف. كنت راغبا في إنهاء المقابلة والإتّجاه فورا إلى الحدود. كان لي من الأشواق ما لا يمكن وصفه للوصول إلى أراضي الدّولة. شعروا برغبتي وابتسم السّوري وطلب منّي قليلا من الصّبر مضيفا أنّ هناك أحد الإخوة الجزائريّين قد وصل هذا الصّباح مع زوجته من الجزائر إلى إسطنبول وسوف يكون معي في رحلة الطّريق.

في نهاية اللّقاء، قدّم لي أحد الشّبان الجزائريّين بعض التّوصيات من أجل الرّحلة من بينها أن لا أتحدّث إلى مرافقي وزوجته في الحافلة الّتي ستقلنا إلى مدينة أورفا على الحدود التّركيّة السّوريّة.

وصل الشّاب الجزائريّ رفقة زوجته إلى المقهى. فوجئت بمظهره. كان صاحب لحية كثّة طويلة ترافقه زوجته المنتقبة. كان مشهد الجزائريّ وزوجته المنتقبة وهو يمتطي معي الحافلة إلى مدينة أورفا، جربنا وواضحا بشكل لا يدع مجالا للشكّ أنّه مُسافر للإلتحاق بساحات الجهاد في سوريا. كان هذا الأمر بالنّسبة إليّ مظهرا آخر من حالة التّساهل الّتي اعتمدتها تركيا في تلك الفترة مع نشاطات عناصر تنظيم الدّولة على أراضيها.

قطع لنا أحد الشّباب الجزائريّين الّذين قابلتهم في المقهى تذاكر السّفر إلى مدينة أورفا. جلست في الحافلة في نفس خطّ مقعديْ الجزائريّ وزوجته. إنطلقت بنا الحافلة وتذكّرت توصيات المنسّق وتوصيات أمّ المجاهدين قبل توديعها. أخبرتني أنّ أجواء الطّريق لا تبعث على القلق

عموما، ولكنّ إذا حدث طارئ ووقع إيقافنا من قبل الجندرمة التّركيّة أوصتني بأن أخبرهم أنّي سوريّ الجنسيّة طبعا أوصتني بهذا الأمر بعد أن أخذت جميع وثائق هويتي بما فيها جواز سفري.

كانت رغبتي في تلك الفترة هي التّخلّص من هويّتي سلّمت لها كلّ وثائقي الّتي أصبحت عبئا عليّ، عبء انتماء إلى هذا الجواز اللّعين الّذي حُرمْتُ منه يوما ما. ذكريات انتماء لعين للطّابور الطّويل الّذي ساقوني إليه أثناء دخولي إلى سجن المرناقيّة بالعاصمة. كانوا يشدّونني بعلك من لحيتي ومن شعري الطّويل. كان عون السّجون يصيح في وجهي يومها: "إستنجد الآن بخليفتك الدّجّال البغدادي ابن العاهرة".

كان الضّرب ينهال علي من كلّ جانب. شدّة الضّرب أحدثت غمامة بيضاء أمام عينيّ. لم أعد أرى شيئا حتّى وصولي إلى السّجّان الّذي حلق شعري ولحيتي. لسبب مازلت أجهله مَنَعَهُمْ هذا السّجّان ذُوني. توقّف ضربهم لي.

اليوم في الطّريق إلى أورفا كنت أرى كلّ شيء. انزاحت الغمامة البيضاء من أمام عينيّ بشكل نهائيّ. كان هناك بياض آخر في بعض المناطق الّتي عبرتها الحافلة. إنّه بياض الثّلوج الّتي تغطّي بعض الجبال والهضاب. تتنوّع جغرافيا بلاد الأناضول بين مساحات تغطّيها الثّلوج وأخرى تكسوها مساحات شاسعة من السّهول الخضراء الّتي تزيّن الطّريق.

ظننت يومها كذلك أو هكذا خيّل إليّ أنّني بدأت صفحة جديدة من حياتي المهمّ لم أعد أعبأ بعد وصولي إلى إسطنبول بوطن سابق أو هويّة أو انتماء. غدا سيكون لك هوية أخرى ووطن آخر، على الأقلّ إلى حين.

في كلّ الحالات حتّى لو لم أسلّم وثائقي لأمّ المجاهدين فإنّ "إدارة حدود الدّولة" ستتكفّل بأخذها تحت عنوان "الأمانات" وهي كلّ ما يتركه المهاجر الجديد عند وصوله. كانوا يأخذون منه كلّ شيء تقريبا إلاّ أمواله الّتي جاء بها. تتكفّل الدّولة عبر هذا الإجراء الحدوديّ بنزع جوازات السّفر وبطاقات الهويّة عند الوصول بفسخ الهويّة الأولى. سيكون لكلّ مهاجر هويّة أخرى، إسم جديد بكنية يختارها.

بقي مصير وثائقي وخاصّة جواز سفري مجهولا إلى حدّ السّاعة. أتذكّر أنّه بعد وصولي إلى الشّام راسلت أمّ المجاهدين من أجل استرداد الوثائق دون جدوى. لا أدري ماذا فعلت بها.

خرجنا من إسطنبول ليلا ووصلنا بعد إثنتي عشرة ساعة إلى مدينة أورفا، أي عشيّة اليوم الموالي.

استقبلتنا المدينة الّتي تعاقبت عليها العديد من الممالك والحضارات. كانت أورفا عاصمة "مملكة الرها" السّريانيّة الغابرة، حكمها السّاسانيّون والبيزنطيّون وأطلق عليها الإغريق إسم "أديسا" قبل أن تخضع لسلطان العثمانيّين ويقوم القوميّون الأتراك في عشرينات القرن الماضي بتهجير سكّانها المسيحيّين!

في محطّة الحافلات هناك من كان بانتظارنا. قادنا هذا الشّخص إلى بيت أو ما فهمت بعدها أنّها "مضافة" تتّخذ محطّة إقامة مؤقّتة للمهاجرين قبل تسفيرهم خفية عبر

الحدود. طبعا كنّا نجهل سبب اختيار مدينة أورفا كمنطقة حدوديّة للعبور إلى الشّام.

كانت الدّولة وقتها تسيطر على مساحة واسعة ومدن حدوديّة أخرى واختيار مناطق العبور يخضع للتّنسيق مع المهرّبين وترتيبات إدارة الحدود بالدّولة.

المهمّ، ركبنا سيّارة تركيّة خاصّة إلى المضافة الّتي تقع في منطقة ريفيّة.

في المضافة إلتقيت بالعديد من المهاجرين الّذين ينتظرون موعد تهريبهم. التقيت هناك بشابّ من تونس العاصمة وآخرين: مصريّ وجزراوي (من الجزيرة العربيّة) ومغربيّ. لفت الجزراويّ انتباهي بخفّة روحه وفكاهته. لفت انتباهي أكثر ربّما بالشّراهة الّتي يدخّن بها السّجائر، وكأنّه محكوم عليه بالإعدام تُحقّق له آخر أمنياته قبل ذهابه إلى المقصلة!

في نفس ليلة وصولنا جُهّزت لنا أكلة "الكبسة" المشهورة في بلدان الخليج والمكوّنة من الأرز واللّحم. بعد العشاء أخبرنا مسؤول المضافة أنّ الطّريق مفتوحة وأنّه يمكن العبور.

أستثني الشّاب الجزائريّ وزوجته من الذّهاب معنا. فهمت فيما بعد أنّهم دلّسوا لهما وثائق سوريّة وقاموا بإرسالهما عبر بوّابة تلّ أبيض الّتي يسيطر على جانبها السّوريّ مقاتلو الدّولة.

في ما يخصّنا، ركبنا سيّارة رباعيّة الدّفع فيما كانت أخرى تسبقنا وتستكشفُ لنا الطّريق.

بعد حوالي نصف ساعة سيرا في طرقات ترابيّة مع سائق سوريّ وصلنا إلى المنطقة الحدوديّة. نزلنا من السّيارة. كان في استقبالنا مُهرّبان تُركيّان من الواضح أنّهما يعملان مع إدارة الحدود التّابعة للدّولة. بالكاد كانا ينطقان ببعض الكلمات العربيّة بلهجة تركيّة. كلمات تكفي لتهريب شخص عبر الحدود!.

من المهمّ القول إنّني ومنذ أن وطأت قدماي مطار مصطفى أتاتورك في إسطنبول إلى غاية وصولي إلى الحدود مع بلاد الشّام من جهة مدينة أورفا، تكفّلت إدارة حدود الدّولة بجميع مصاريف الإقامة والتّنقّل.

وربّما يختلف هذا التّرتيب مع المهاجرين الّذين قدموا إلى الشّام دون تنسيق مع أفراد من الدّولة.

في خصوص مسألة التّنسيق ودخول المهاجرين إلى الدّولة بالذّات، فإنّ غالبيّة العمليّات تتمُّ عن طريق "التّزكية" التّقليديّة من قبل أفراد في الدّولة لأصدقائهم وأقاربهم وأفراد عائلاتهم. والتّزكية تقليد قديم منذ أيّام الدّولة الإسلاميّة في العراق زمن "أبو مصعب الزّرقاوي" حيث يقع قبول المهاجرين الجُدد بناءً على تزكيتهم وضمان ولائهم من أصحابهم الّذين سبقوهم إلى أراضي القتال أو أولئك الّذين يُنظّمون عمليّات تسفيرهم.

غير أنّ الجديد الّذي سَنَتَهُ الدّولة الإسلاميّة مع البغدادي في علاقة بقبول المهاجرين الجدد هو فتحها إمكانيّة القدوم إليها لأيّ شابّ يرغب في ذلك دون تزكية. إذ يمكن لأيّ شخص يرغب في الهجرة إلى الدّولة الاتّصال بأيّ حساب على الأنترنت لمقاتل أو لمهاجر موجود في الدّولة.

طبعا تبقى مهمّة التّحقيق وقبول هؤلاء المهاجرين الّذين قدموا دون تزكية من مهام الأمنيّين وما أدراك ما الجهاز الأمنيّ للدّولة الّذي يقوم بالتّحقيق واستقبال كلّ المهاجرين الجدد بمجرّد دخولهم.

أشارا لنا المهرّبان إلى أضواء متبعثة من بعيد. قالا بعربيّة محشوّة بعبارات تركيّة ما معناه "هذه البيوت هناك. سوريا. وستجدون حاجزين من الأسلاك الشّائكة يجب أن تعبروها". وأضاف أحدهما: "عندما تصلون هناك، اقرعوا أيّ باب بيت يواجهكم وأخبروهم أنّكم مهاجرون وسيأتي عناصر الدّولة لاستقبالكم".

لم يلتزم المهرّبان التّركيّان توصيتنا بعدم التّوقف للجندرمة الأتراك إذا ما اقتفوا أثارنا أو أطلقوا علينا النّيران. كان إطلاق النّار في الهواء المعتمد في تلك الفترة لمجرّد التّحذير لا أكثر ولا أقلّ.

كان يوم دخولنا إلى الشّام فجر الجمعة وكنّا خمسة أشخاص. سرنا ليلا في اتّجاه السّياج الحدوديّ نحمل بعض متاعنا في حقائب صغيرة.

هذه المرّة الثّانية في حياتك الّتي تعبر فيها الحدود خلسة. هذا الهروب الثّاني في حياتك وسيتلوه هروب ثالث. أكتبَ عليك أن تعيش حياة الهرب خلسة بين الحدود؟! هو هروب أيضا من معتقدات إلى أخرى. هل من قَدَرِكَ أن تعيش مطاردا خائفا من أن يتخطّفك النّاس؟.." يَدَاكَ أوكتا وفُوكَ نفخ"!

أتذكر الرّمال الّتي كانت تشدّ حذاءك الرّياضي في الصّحراء التّونسيّة اللّعينة؟ لزعت هذا الحذاء وواصلت

المشي حافي القدمين بين الرّمال والسّباخ. هذه المرّة لم تكن وحدك عابرا للحدود خلسة. هذه اللّيلة تعبرها رفقة خمسة أشخاص. وحشة الصّحراء وحيدا هناك كانت ثقيلة على النّفس والجسد والفم العطشان الّذي يبحث عن شربة ماء. على حدود الشّام، كان فمك هذه المرّة تزيّنه ابتسامة عريضة ولامبالاة غريبة بوعورة الوديان والأسلاك الشّائكة.

بعد مسيرة ساعة تقريبا أزهقْنا تَعَبًا. لم يتوقّف فيها الشّابّ الجزراويّ عن التّبرّم من طول الطّريق. بالمقابل كنت أضحك عليه. كان هو يصيح في الظّلام المؤدّي إلى الحدود: "يا أبو زكرياء والله ماعاد أقدر على المشي". حاولت مساعدته وانتهى بي الحال إلى حمل حقيبته بدلا عنه. تفدّمت المجموعة. ما هي إلاّ بضعة كيلومترات وأصل إلى بغيتي! لم يَبْقَ على تحقيق حلمي إلاّ القليل.

وصلنا إلى السّياج الحدوديّ. كان عاليا ذا أسلاك شائكة. حاولنا الزّحف من تحته دون جدوى. جذبتنا الأشواك وردّتنا خائبين. انسحبنا بعد أن علقت الأسلاك في أطراف ثيابنا. بقينا حائرين عمّا يجب فعله. جاءتني فكرة إلقاء حقائب الظّهر الّتي نحملها على السّياج حتّى ينخفض فنمرّ فوقه. تمّ الأمر على أحسن ما يرام ومررنا فوق السّياج واحدا تلو الآخر بشيء من المغالبة والألم. كان كلّ شيء يهون من أجل الخطوات الّتي سنخطوها بعد بضعة أمتار.

كنتُ على بعد أمتار من الوعد. ذاك الّذي سمعتهُ وحفظته عن ظهر قلب في مساجد تونس. "يا طوبى للشّام

يا طوبى للشّام". وحديث آخر يقول "عليكم بالشّام، فمن أبى فليلحق بيمينه وليستق من غدره". كثيرة هي فضائل الشّام الّتي سمعت وقرأت عنها. ها أنّي على أبوابها هذه اللّيلة!

لم ينته الأمر عند هذا الحاجز، فبمجرّد سيرنا بضعة أمتار وجدنا أمامنا أسلاكا شائكة أخرى ولكنّها أقلّ سمكا عبرناها وواصلنا السّير. تأكّدنا أنّنا دخلنا أراضي الدّولة الإسلاميّة. كان شعورا بالفخر والرّغبة والشّوق. ظنّي أنّ شوقي كان مضاعفا عن البقيّة. لم أعد أشعر بالتّعب رغم طول المسافة ولفح البرد وتثاقل حذائي الرّياضي بطين الأرض المبلّل بالمطر.

جالت بخاطري أيّام سجن المرناقيّة والرّؤية الّتي قصصتها في مركز الإيقاف ببوشوشة لأحد الموقوفين عن وصولي إلى الدّولة. ها قد تحقّق حلمي. تذكّرت أمّي وشارع الحيّ والأصحاب. سأخبر الجميع بعد قليل أنّي وصلت!

مع اقترابنا من البيوت المضاءة بدأت كلاب شاردة تنبح بقوّة وعنف. هل استقبلتنا الكلاب فرحا أم تراها تهابنا أم هي على رأي صاحب الحيوان "كثرة نباحها فزعا" أم هي من النّوعيّة الّتي قال فيها القائل: "ومن يربط الكلب العقور ببابه"!

أتذكّر ذاك الكلب الّذي حال بينك وبين والديْك في أحد شوارع دورتموند في ألمانيا عندما كنت طفلا؟ كبرت وتغيّرت المدن غير أنّ أصوات نباح الكلاب لها ذات الوقع على القلوب الرّاجفة الهاربة.

تجاهلنا الكلاب. كانت رغبتنا في الوصول أقوى من كلّ العقبات. وصلنا إلى أوّل بيت اعترضنا. طرقناه. كانت السّاعة تشير إلى حوالي السّاعة الثّالثة صباحا وكانت الرّياح الباردة تلفح وجوهنا.

فُتح الباب. استقبلنا شابّان، وسارعا بإدخالنا، وهاتفا عناصر حدود الدّولة. لم يمض وقت طويل حتّى وصل شابّان مسلّحان في سيّارة رباعيّة الدّفع. كانا على علم مسبق بوصولنا. صعدنا وانطلقا بنا نحو الشّمال.

انطلقت بنا السّيارة من هذه القرية في الرّيف الجنوبيّ لمنطقة تلّ أبيض. لم أشعر بالهواء البارد الّذي يلفح وجهي ولم أرهب لرؤية هذين المسلّحين. كان يغمرني شعور بالفرحة والفخر وأنا أنظر إلى أحد المقاتلين الشّباب وهو طليق الشّعر مدجّج بالسّلاح. آه! نفس الشّعر الطّويل الّذي أفضّله. الصّورة الّتي كنت أشاهدها في إصدارات الدّولة قبل وصولي. شباب وأسلحة وسيارات رباعيّة الدّفع. أنا الآن هنا! هاقد وصلت إلى ما أطمح وأريد!

على الحواجز المتعدّدة الّتي مررنا عليها، أبهرت بطريقة معاملة جنود الدّولة لبعضهم البعض. كانت الكلمة الأكثر تردّدا بين مقاتلي الدّولة على هذه الحواجز هي "أخي". معاملة فيها الكثير من التّقدير واللّين.

بعد مسيرة نصف ساعة تقريبا، وصلنا إلى مضافة في وسط مدينة تلّ أبيض. في هذا البيت استقبلنا مسلّحون كان بعضهم ملثّما. علمنا فيما بعد أنّهم من أمنيّي إدارة الحدود. كنت سعيدا جدّا، محاطا بما اعتقدت وقتها أنّهم خير أجناد الأرض!

على عكس ما كانوا يوحون به من خلال مظهرهم
تصبني أيّة رهبة من لقائهم، بل شعرت بسعادة غ
وقرب منهم. لم أتردّد في إمعان النّظر إليهم. أنا الآن
حضرة هؤلاء الّذين يرهبون العالم بأكمله. رغم مظهر
الّذي قد يبث لناظره الرّعب فإنّ شعوري كان الرّا
التّامّة والسّعادة المطلقة. أردت الحديث إليهم لكنّهم كا
قليلي الكلام. سألت أحد الملثّمين: لماذا أنت ملثّم أخي
أجابني باللّهجة السّوريّة ضاحكا: "هيك!" أي هكذا دون
يضيف كلمات أخرى.

مع نسمات الفجر الباردة الّتي تهبّ على تلّ أبيض
وبمجرّد الانتهاء من إجراءات الوصول وتسليم الأمانا
كتبت على موقعي الاجتماعيّ على الفايسبوك الكلما
التّالية: "الحمد لله ربّ العالمين. الآن تطأ قدماي أر
الخلافة بعد عناء طويل".

مَضافة تلّ أبيض

منذ أن التقيت به في مضافة مدينة أورفا، كان الشّاب الجزراوي يُردّد في إصرار مشوب بالسّخرية: "أنا رايح أدقّم.. رايح أدقّم". وهي العبارة الّتي يستعملها الجزراويّة للإشارة إلى العمليّات الانتحاريّة.

في مضافتنا في تلّ أبيض توقّف الجزراوي عن التّدخين. من الواضح أنّه ألقى بالبقيّة الباقية من علبة سجائره عند الحدود التّركيّة قبل دخولنا إلى أراضي الدّولة. ففي الدّولة الإسلاميّة يمنع التّدخين وتصل عقوبة متعاطيه إلى الجلد بحسب الحالة.

بعد كلمة التّرحيب، خاطبنا أحد الملثّمين بلهجة سوريّة راجيا تفتيشنا بكلّ لطف. طلب منّا أوّلا تسليمنا كلّ ما لدينا من وثائق وهواتف نقّالة مع استثناء أموالنا الّتي تركت لنا. كان المُلثّم بعدها يردّد عبارة تباعا "أخي ممكن أفتّشك؟" مع كلّ واحد منّا، بعدها يمرّر يديه وسط جيوبنا وبين أطراف الملابس.

في السّاعات الأولى لوصولي، ازداد تعامل الملثّمين معي بلطف ولين، من إعجابي الشّديد بالدّولة ومُقاتلها. كنتُ

أردّد أن وداعا لقسوة المعاملة والإهانة أو هكذا
عادت بي ذاكرتي للحظات لأسابيع الإيقاف والمطاردة
اليوم الّذي عبرت فيه الرّواق الطّويل المظلم الّذي
بين زنزانتي وغرفة الزّيارات حيث حادثت أمّي من
"البارلوار"[1] من وراء بلّور سميك وبكيتُ وبكتْ كما لم
من قبل. كان اللّقاء الأوّل بها بعد إيقافي.

بعد تفتيشنا سألنا أحد الملثّمين قائلا
السّورية: "شُو بِدّكُمْ تَسَوُّ هَلأ؟" بما يعنيه ماذا تريدون
تفعلوا؟ أي هل تريدون الاغتسال أو الأكل أو
ملابسكم؟

صاح الشّاب الجزراوي قائلا: "أنا بِدّي أدفّم!" تعا
ضحكاتنا وصوت ضحكات الملثّمين من وراء أقنع
السّوداء من قول الجزراوي لتخرق الصّمت الّذي
فجر ذلك اليوم من أيّام مدينة تلّ أبيض.

في تلك الفترة من وصولي إلى الشّام، كانت تلّ أبيض
وبقيّة المناطق الحدوديّة مع تركيا تستقبل كلّ يو
العشرات من المهاجرين الجدد. ومن المهمّ القول إ
المضافات الحدوديّة شهدت نشاطا كبيرا لاستقبا
مهاجرين من مختلف الجنسيّات.

من بين كلّ الجنسيّات، كان التّونسيون يمثّلون ظاهرة
مثيرة للانتباه في المضافات. لا يمرّ يوم جديد إلاّ ويستقبل
المشرفون على المضافات تونسيّين من بين أفواج المهاجرين
الجدد الّذين يعبرون الحدود.

[1] البارلوار كلمة فرنسية تعني المكان المخصص للتحدث بين السّجين وزائريه في السّجون

شغلت ظاهرة كثافة التّونسة المهاجرين وسائل الإعلام
العالميّة ولفتت انتباه الدّوائر القريبة من أبي بكر البغدادي.
ما سرُّ أفواج هجرة الشّباب التّونسيّ إلى الدّولة؟ قالت
الأرقام إنّهم يشكّلون حوالي ثلاثة آلاف شابّ بحسب
السّلطات التّونسية[1] وستّة آلاف شابّ بحسب العديد من
مراكز الدّراسات الأوروبيّة والأمريكيّة.[2]

صبيحة اليوم الثّاني من وصولنا، قام أمير المضافة
بالإجراءات الأوليّة للتّعرّف على هويّة المهاجرين الجدد.

كان يجلس مع كلّ واحد منّا لنصف ساعة تقريبا
طارحا عليه مجموعة من الأسئلة حول مسيرته وعن كيفيّة
استثماره في إدارات الدّولة أو أجهزتها المدنيّة أو الأمنيّة
والعسكريّة. كانت الدّولة في تلك الفترة تسعى لتغطية
النّقص في العديد من الميادين الإداريّة بعد سيطرتها على
العشرات من المدن والقرى السّوريّة والعراقيّة.

علمتُ فيما بعد أنّ مضافات استقبال المهاجرين الّتي
تنتشر على الحدود، تشكّل محطّة مهمّة للتّعرّف على
المهاجرين الجدد وإمكانيّات استثمار قدراتهم وخبراتهم.
تتواصل الإقامة في المضافات الحدوديّة في العادة عشرة
أيّام يزور خلالها المضافة مُمثّلون عن دواوين مختلفة
للدّولة. غير أنّ أيّا من الدّواوين لا يمكن أن يبدأ عمليّات

[1] قال الهادي المجدوب وزير الداخليّة التّونسيّ يوم 4 جانفي 2017 إنّ عدد التّونسيين في بؤر التّوتر هو 2929 شابا

[2] هذه مراكز بحثية تقول إنّ الأرقام تصل إلى عدد 6000 شابّ تونسيّ في بؤر التّوتر كمثال على هذه المراكز

The Heritage Foundation
The International Centre For the Study of Radicalisation and Political Violence

الاختيار قبل حضور الأمنيّين والتّحقيق الأمنيّ الّذي
يقومون به مع كلّ مهاجر قبل تزكية قبوله نهائيًا.

في نهاية اليوم الثّاني لوصولنا، قدمت مجموعة
الملثّمين يتوشّحون السّواد ومسلّحين بمختلف
الأسلحة. قال لنا أمير المضافة يومها بكلمات مختصرة إنّ
الأمنيّون وسيقومون بالتّحقيق مع كلّ شخص على حدة
بمعزل عن البقيّة.

لم أفزع لمنظرهم المهيب. كنت مطمئنًا. جاء دوري
دخلت وجلست أمام ملثّم يكتب على جهاز إعلاميّة وإلى
بجانبه شخص ثان فيما كان الثّالث قرب باب الغرفة.
وقفت أمام صاحب جهاز الإعلاميّة. سألني بكلّ لطف عن
حالي. وبلهجة سوريّة قال لي: "طَمِّنا عَنَّك". كنت أشعر
بالرّاحة. كان عندي يقين أنّي أمام أخ لي رغم مظهره
المخيف. سألني الأمنيّ عن طريقة وصولي إلى الشّام وعن
الأشخاص الّذين أعرفهم في الدّولة والشّخص الّذي زكّاني
والّذي يمثّل ضامنا لي. سألني عن مسيرتي في تونس وحفظي
للقرآن والأحاديث كما طرح عليّ أسئلة عن الصّعوبات
والضّغوطات الّتي تعرّضت لها. سألني عن الملتزمين دينيًا في
عائلتي وعن أقاربي.

كانت كلّ أسئلته تدور حول علاقتي بالتّديّن ونظرتي
للجهاد ومن حرّضني عليه ومعرفتي برموز الدّولة
ومجاهديها كأبي مصعب الزّرقاوي وغيره من أمراء الجهاد.

في ختام الاستجواب سألني الأمنيّ عن صنف القتال
الّذي أفضّله بين المقاتل أم الانغماميّ أم الاستشهاديّ

أجبته دون تردّد أريد أن أكون مقاتلا. لم أكن أنظر بعين
الرّاحة لوظيفة الاستشهادي!

وفي خصوص هذه العمليّات بالذّات، كنت وحتّى قبل
وصولي إلى الشّام، متحفّظا تجاهها وأنظر إليها بعين الرّيبة.
لم أكن مرتاحا لهذه الطّريقة في الموت. كان الأمنيّ يكتب
كلّ كلمة أقولها. انتهى التّحقيق. غادرت الغرفة إلى قاعة
الجلوس.

كانت مضافة تلّ أبيض الّتي وصلنا إليها، تحتوي على
العديد من الغرف وتضمّ مجموعات من المهاجرين من كلّ
الجنسيّات تقريبا، عرب، عجم، أوروبيّين معتنقي الإسلام
وأفارقة من جنوب الصّحراء الكبرى وصينيّين ومسلمين من
جمهوريّات آسيا الوسطى.

كان هذا البيت الّذي ينتصب في قلب تلّ أبيض يتوفّر
على جميع مقوّمات الاستقرار من مأكل بمختلف أنواعه
وملابس وأغطية. كان مكانا ملائما لاستقرار العشرات من
المهاجرين دفعة واحدة.

في هذه المضافة، ورغم الأجواء الأخويّة وحضور النّكتة
بيننا كمهاجرين جدد، ورغم الاهتمام البالغ بنا من قبل
أميرها وتلبية جميع رغباتنا ورغم بحبوحة العيش بين
غرفها، فإنّ نفسي التّوّاقة إلى الحرّيّة بعد أتعاب الطّريق
ورحلة الهروب والتّشرّد كانت تأبى البقاء عشرة أيّام كاملة
فيها. لهذا السّبب هاتفت أصحابي المستقرّين في الرّقّة،
ودعوتهم للحضور من أجل إخراجي من هنا.

رغم وصولي إلى الدّولة، فإنّ وجودي حبيسا في المضافة
أشعرني أنّني لم أصل إلى ما أريده فعلا. ما جئت من أجله

انتشر التّوانسة في كامل أنحاء الرقّة تقريبا حتّى أن مناطق عديدة كانت تُعرف بهم على غرار مسجد الفردوس في قلب الرقّة والّذي يعرف بجامع التّوانسة وكالمتهيا "الخطّاب" قرب دُوّار النّعيم. والّتي تعرف كذلك بمقهى التّوانسة.

كثافة تجمّع التّوانسة في بعض مناطق الرقّة دفعتهم إلى إطلاق تسميات تونسيّة على بعض المقارّ الإداريّة الأمنيّة التّابعة للدّولة. من قبيل إطلاق تسمية "حيّ التّضامن" على مقرّ التّسليح التّابع للدّولة. فيما أُطلق على كاراج "البولمر" لسيّارات الأُجرة في الرقّة المتّجهة إلى البوكمال ودير الزّور إسم "محطّة باب عليوة" وهي إحدى محطّات سيّارات الأُجرة في تونس العاصمة.

لا أبالغ إذا قلت إنّ التّونسيّين يشكّلون أكبر عدد من المهاجرين الأجانب في الرقّة. كانوا يتفوّقون عددا على كلّ بقيّة الجنسيّات. ربّما لا يقاربهم عددا إلاّ مهاجرو جمهوريّات آسيا الوسطى مجتمعين. كطجكستان والشّيشان وأوزباكستان وأذربيجان..

كان حضور التّوانسة جزءا من موزاييك كامل من الجنسيّات الأخرى الّتي انتشرت في شوارع المدينة. كنت ترى عائلات بأكملها من أوروبا ومن جمهوريّات آسيا الوسطى ككزاخستان وأوزباكستان والشّيشان كما كان يمكنك أن تشاهد جموعا أخرى من العرب ومن الصّينيّين ومن الأفارقة السّود.

كان من اليسير أن تعثر على التّوانسة في الرقّة. من مختلف الولايات ومن كلّ الأصناف. من بين الّذين التقيتهم

كذلك منشد الرّاب التّونسي مروان الدّويري[1] والّذي يُلقّب "بامينو" والّذي أثارت هجرته إلى الشّام ضجّة كبيرة في تونس. التقيت أمينو في قاعة ألعاب شبابيّة في الرقّة. بادلته السّلام وعرّفته بنفسي وقلت له أنّي كنت معجبا به لمّا كنت مغرما بأغاني الرّاب في تونس!.

التقيت بعدها بأمينو أكثر من مرّة. أسرّ لي أنّه يريد التّنفيذ، أيّ يريد القيام بعمليّة استشهاديّة على حدّ تعبيره. لم أكن من المشجّعين له بالنّظر لريبتي من هذا النّوع من القتال. أعتقد أنّه تراجع عن الفكرة فيما بعد وانضمّ للعمل في المكتب الإعلاميّ لولاية الرقّة مع إذاعة البيان الّذي يغطّي الولاية.

في الرقّة كذلك التقيت كمال زرّوق وهو أحد أبرز وجوه أنصار الشّريعة في تونس قبل هجرته إلى الشّام. غير أنّ القيمة الكبيرة الّتي كان يحظى بها زرّوق في مسجد بجبل الأحمر بتونس العاصمة حيث كان يؤمّ المصلّين لم تكن مثلها في الرقّة. لم يُعْطَ زرّوق قيمته الحقيقيّة وعاش ظروفا صعبة وانتهى الأمر بمقتله في ظروف غامضة أمام نادي الفروسيّة في مدينة الرقّة نتيجة استهداف الطّيران وسط شكوك تقول إنّه وقع دَسُّ شريحة هاتف له من قبل أمنيّي الدّولة في الرقّة حدّدت مكانه من قبل طيران التّحالف.

في اللّيلة الأولى لوصولي إلى الرقّة، تردّد صوت الطّيران في سمائها وسمعنا دويّ انفجارات عنيفة على أطراف

[1] نفس طريقة مقتل أبي بكر الحكيم قُتل مروان الدّويري في أواسط سنة 2016 بقصف على سيّارته في مدينة الموصل.

طوال فترة الانتظار في المضافة وبالنظر إلى
المعيشية القاسية فيها، تُدفع المهاجرات عادة إلى
بأوّل زوج يأتي يطلب يدهن.

من جهتي زُرت مضافة الرقة للمهاجرات أكثر
من أجل العثور على زوجة. غير أن ردّ
وزوجته كان في غالب الأحيان بالسلب. ليست لنا
جديدات بالمواصفات التي تطلبها.

تقضي الإجراءات الإدارية بملء استمارة يقوم
طالب الزواج بالتنصيص على مواصفات وأصول
التي يريد الارتباط بها. وإذا تمّ العثور على واحدة
المواصفات التي طلبها تعقد له "جلسة نظرة شرعية"
المعنيّة بالأمر بحضور أمير المضافة وزوجته. وإذا
القبول من الجانبين يتمّ الزواج.

إضافة إلى "مضافة المهاجرات" خصّصت الدولة مضافات
أخرى، واحدة لـ"أرامل الشهداء" وأخرى لـ"مطلّقات" وكلّ
المضافات تمثّل فرصة لمقاتلي الدولة ومهاجريها لانتقاء النساء
اللاتي يرغبون فيهنّ.

قضيت أسبوعا في الموصل وتردّدت كثيرا على شارع
الجامعة حيث حرصت الدولة على حسن نظامه وتركيز
سيّارات المرور التابعة للشرطة الإسلاميّة في مفترقاته
وتوفير كلّ مظاهر الجمال فيه لأنّه يشكّل أحد أهمّ
شوارعها الرئيسيّة.

بعد أسبوع الموصل عدت إلى الرقّة وعدت معها إلى
مشكلة الانضمام إلى كتيبة سيف الدولة. تأكّدت أنّ قدري
هو الالتحاق بالكتيبة وبالتالي الابتعاد عن أصحابي الّذين

لهفي معهم أفضل الأوقات. كان الأمر بالنّسبة إليّ بمثابة
انكسار وبداية الشعور بالضّيق والتّبرّم.

كان مقرّ كتيبة سيف الدّولة في مدينة الرقّة حيث
حوّلت العديد من الشّقق إلى مقرّات خاصّة بها. ولكنّ
تحاذاها لمدينة الرقّة كمنطلق لعملياتها لم يمنع من
تصنيفها لدى الأمراء على كونها كتيبة مختصّة في قتال
الجيش العراقيّ أي أنّ أرض تحرّكها في العادة هي بلاد
الرافدين هذا يعني بالنّسبة إليّ مغادرة الشّام إلى العراق.

لم أرغب في البداية في الالتحاق بالكتيبة رغم الضّغط
الذي مورس تجاهي من بعض أصحابي وكانت مؤاخذاتهم
التي يردّدونها هي من قبيل "أنّ من يأتي إلى الدّولة عليه أن
يستعدّ ليموت في سبيل الله".

كانت إجابتي آنّي نعم أريد أن أموت في سبيل الله
ولكن أريد كذلك أن أحيا كذلك في سبيل الله! "أنا لم أت
فقط للموت في الدّولة" كنت أجيب دائما. أعتقد أنّ الموت
ليس هدفا بحدّ ذاته.

الأكيد أنّ تبرّمي من الالتحاق بكتيبة سيف الدّولة لم
يُثر شكوكا في إخلاص نيّتي وحبّي للدّولة ولكنّه أثار بالنّسبة
إلى البعض، وحتّى وإن لم يعلنوا ذلك صراحة، شكوكهم في
شجاعتي في خوض القتال.

بعد شهر من التّردّد، اضطررت في نهاية الأمر إلى
الالتحاق بالكتيبة. لم يكن لي أيّ اختيار آخر. حدّثت نفسي
بقوله تعالى "وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم". فربّما
يلتحق بي أصحابي وربّما التقي بأصحاب جدد ويفتح الله
لي سبيلا جديدا.

أنّ ساكن العمارة توسّل له قائلا: "كيف سنأتي لك
طائعة يا شيخ، وقد كنتم بصدد رجمها بالحجارة!"
انتهى الأمر بإيجاد حلّ وسط وهو أن يقوم بعض
سكّان العمارة ذاتها بنقل المرأة بأنفسهم إلى المشفى
كان من البيّن بالنّسبة إليّ، من خلال حادثة الزانية
الهاربة أنّ سكّان الرقّة رغم قوّة الدّولة وتسلّطها أبقوا على
جانب من التّضامن بينهم وهو أمر تأكّد في العديد من
الحوادث الّتي شهدتها المدينة فيما بعد.
مرّت أيّام الرقّة بعد حادثة الزّانية الهاربة رتيبة قبل أن
يهاتفني أميري في كتيبة سيف الدّولة من أجل الحضور إلى
المقرّ. علمنا فيما بعد أنّ غزوة كبيرة يقع التّحضير لها
وتتطلّب تجميع عناصر جيش الخلافة بمختلف كتائبه
لم يعلمنا الأمراء لا بمكان الغزوة ولا بزمانها، غير أنّنا
علمنا أنّنا أمام معركة كبيرة قد تكون حاسمة في تاريخ
الدّولة.

قبل المعركة بأسابيع عديدة نُظّمت لنا دورة شرعيّة
وألزمونا بحضورها في مساجد الرقّة. كان الأمر يتعلّق بدورة
تحفيز وتحريض لخوض هذه المعركة الّتي وصفها أحد
الشّرعيّين أنّها "ستفصل بين فسطاط الإيمان وفسطاط
الكفر!".

ذهبت ترجيحاتنا وسط كلّ هذا التّشويق المعلن من
قبل الشّرعيين أنّ الأمر يتعلّق بـ"فتح دمشق"! أعلن الشّرعيّ
أنّ الأمر يتعلّق بمدينة بها سجن ومطار ويمكن لفتحها أن
يدرّ على الدّولة غنائم كبيرة. وفي خضمّ الحديث عن الغزوة
المنتظرة، لم يتردّد الكثير منّا أن يطلبوا من الشّرعيّين بعدم

التّركيز على مسألة الغنائم. أوضحنا لهم أنّ الكثير منّا، جاء للشّام وقد ترك أمواله وأعزّ ما يملك. فمن بين المئات من المهاجرين الّذين قابلتهم في الرقّة والموصل كان البعض سليلي عائلات ثريّة في بلدانهم وخاصّة المهاجرين الجزراويّة الّذين توافدوا على الشّام بالآلاف.

كانت الغزوة المنتظرة بالنّسبة إليّ بمثابة حضور أوّل معركة في الدّولة الإسلاميّة. كنت مقبلا على هذه التّجربة بكثير من الأسئلة، كثير من الشّوق والرّهبة لتفاصيل المعارك، وكثير من اللّهفة الممزوجة بالخوف.

جاء اليوم الموعود. أخذونا أفواجا أفواجا إلى إقامات في مدينة الطبقة على بحيرة الأسد الّتي تشكّل امتدادا لنهر الفرات. كانت الإقامات عبارة عن منتجع سياحيّ أو هكذا تصوّرتها.

كالعادة ونسبب الطّيران، مُنعنا من الخروج من غُرف المنتجع مخافة تصوير "الدرون" وبالتّالي إمكانيّة قصفنا إذا ما وقع كشف مكاننا.

بقينا في هذا المنتجع حوالي ثلاثة أسابيع. قضّيت أوقاتا ممتعة مع مهاجرين جُدد التقيهم لأوّل مرّة. كنّا نشرب "المتة" وهي شبيهة بالشّاي وتتكوّن من عشب اليشمة البرغوانيّة وتنتشر عادة في سوريا ولبنان.

كانت لنا أوراد تعبّديّة يوميّة بعد صلاة الصّبح تتلوها دروسا حول سيرة الصّحابة والمعارك الّتي خاضوها. من جهتي كان لي برنامجي الشّخصي لحفظ القرآن بعد الأوراد نقوم بتمارين رياضيّة فرادى وأزواجا في حديقة المنتجع خشية جلب انتباه الطّيران.

غزوة تَدْمر

ماي 2015

اتّجهت بنا الشّاحنات نحو جنوب مدينة الطبقة دُون أن ندري إلى أين نحن ذاهبون. في خلفيّة الشّاحنة حيث كنت مقرفصا، ساد صمت وسط ترتيلات خافتة للبعض ودعاء لآخرين. مع ساعات الفجر الأولى وصلنا إلى منطقة صحراويّة. كان شغلي الشّاغل يومها هو أن أغسل وجهي من الغُبار الّذي غطّى الشّاحنة بسبب الطّريق التّرابيّ.

وصلنا إلى منزل يتوسّط الطّريق الصّحراويّ الّذي سلكناه بحثتُ سريعا عن الماء. غسلت وجهي وشعريّ من غبار الأتربة العالقة. رتّبت أغراضي وأسلحتي. بشعري الأشعث المُغبرّ، شعرت أنّي أصبحت فعلا جنديّا من جنود الدّولة! أنا الآن بصدد بناء لبنة من لبناتها. كان المقياس في الرّقيّ لتقدير المقاتلين ومهاجري الدّولة هو كم من معركة خضت وأيّ الملاحم شهدت؟

كان مقياسا ومعيارا مهمّا في نظرة المهاجرين وجنود الدّولة عامّة. كان هذا الأمر بمثابة الامتحان في دين المرء وصلابة عقيدته.

لم تخلُ إقامتنا في هذا المنتجع من أوقات لتفر
والضّحك. تردّد في ذهني سؤال غريب: كيف لهؤلاء البُسطاء والعفويّين حدّ البلاهة أن يتحوّلوا إلى وحوش كاسرة وأن يكونوا مصدر خوف وإرهاب للعالم كلّه؟!

على خلاف رحلتي إلى غزوة "حديثة" في العراق التي تمّت، والّتي عشت فيها كثيرا من الرّتابة. فإنّ رحلتي هذه المرّة كانت أكثر راحة وطمأنينة. رغم بعض الأسئلة التي راودتني، كنت مصرّا هذه المرّة على مغالبة النّفس وتحذيرها من فرارها من الزّحف الّذي هو من أكبر الكبائر.

في منتجع الطبقة أكثرتُ من قيام اللّيل ومن الصّوم نهارا. كنت موقنا أنّي ذاهب إلى الموت. تزيد وتيرة العبادات بين المقاتلين قبيل أيّ غزوة. عادة ما يقضون أوقاتهم بين الصّلوات والدّعاء وقراءة القرآن وتنظيف أسلحتهم.

جاءت ليلة الانطلاق إلى الغزوة وزارنا رموز شرعيّي الدّولة ومن ضمنهم التّونسيّ كمال زرّوق. ألقى علينا الشّرعيّون كلمات تحفيزيّة وتحريضيّة ثمّ أخرجونا من المنتجع في شكل مجموعات وحملونا في شاحنات كبيرة.

كان الظّلام دامسا وكان طريقا صحراويّا طويلا. قادونا نحو مدينة الطبقة.

وسط هذا الطّريق الصحراوي وقع توزيعنا في
مجموعات عديدة على طول المكان. طرحنا مجددا السؤال
حول مكان وجودنا وحول المنطقة المستهدفة بالغزو من
أمراء السّرايا وأخبرونا أنّ غزوتنا ستكون على مدينة تدمر
ومستودعاتها ومناطقها العسكريّة.

لم يسبق لأيّ تنظيم أن زاحم النّظام السّوري في تدمر
لأسباب عديدة من بينها أنّها منطقة جبليّة شديدة
التّحصين. هذا فضلا عن كون الطّريق إليها مكشوفا
لطبيعته الصّحراويّة.

كانت لتدمر فضلا عن قيمتها العسكريّة والإستراتيجيّة
مكانة سياسيّة وتاريخيّة ورمزيّة خاصّة بالنّسبة للنّظام
السّوريّ بالنّظر لاحتوائها أبرز المعالم الأثريّة السّوريّة
كقلعتها وآثارها المصنّفة عالميّا ضمن الآثار العالميّة
لليونسكو.

إضافة إلى كتائب جيش الخلافة شارك في معركة تدمر
مقاتلو ولاية حماة[1]. قسّمنا إلى سرايا ووقع تحديد مهامّنا
بعد رصد أماكن تمركز العدوّ مستعينين بصور آلات
متطوّرة تحمل تقنيّات تركيز وتكبير عالية جدّا هذا إضافة
إلى طائرات الدرون الّتي تستعملها الدّولة للتّصوير.

في الخطّة العسكريّة الّتي ضُبطت، كانت سريّتنا مكلّفة
باقتحام المستودعات الكبرى ومبنى الضّبّاط فيما قُسمت
بقيّة السّرايا على نقاط أخرى. أمّا المدينة فقد كُلّف بها
مقاتلو ولاية حماة.

[1] إذا كان جيش الخلافة يتشكّل في مناطقه من المهاجرين فإن جيش الولايات يتكون من سكان الولايا
أساسا من قبيل ولاية حماة أو حمص أو حلب.

تقاسمت سرايا المشاة ليلا في اتّجاه مناطق تمركز
الجيش السّوريّ في المستودعات فيما كان الثّقيل
بالدّبابات والكورنات والمدرّعات والقاذفات يغطّي كلّ
المنطقة من خلفنا.

أطلقت على نقاط الاستهداف تسميّات عدّة من أجل
سهولة التّواصل المُشفّر بالقابضات[1] بين القادة العسكريّين
المنتشرين على طول المستودعات الّتي تصل بين الجبلين.
إضافة إلى المستودعات كانت قلعة تدمر[2] الشّهيرة تُغطّي
تارتا المنطقة كما المدينة بأكملها تقريبا. وفي الجهة المقابلة
لقلعة تدمر ارتفع برج عسكريّ يُغطّي كذلك منطقة
المستودعات.

كانت تدمر بين طرفي كماشة وكان من الصّعب
اقتحامها وهو السّبب الّذي يفسّر عدم تجرّؤ الفصائل
السّوريّة المسلّحة على اقتحامها طوال السّنوات الماضية.

إضافة إلى تحصينها الشّديد كانت تدمر جغرافيّا أقرب
نقطة من الأراضي الّتي تسيطر عليها الدّولة إلى العاصمة
السّورية دمشق وهي تتّصل جغرافيّا بريف حمص الشّرقي.

بعد تقصير صلاة المغرب والعشاء أُخطرنا ببدء الهجوم.
كُنت في مجموعة الاقتحاميّين. حملت كلاشي وحقيبة
ذخيرة على ظهري كما حملت عبوة ناسفة محلّية الصّنع
من وزن الخمسة كيلوغرامات. كان في تسليحي الكثيف بهذه
الطّريقة بعض من الرّهبة في أوّل مواجهة أخوضها في
تنظيم الدّولة الإسلاميّة.

[1] القابضات أجهزة اللاسلكي

[2] قلعة تدمر ويسمى أيضا قلعة فخر الدين المعني أو قلعة ابن المعن بناها الدماليك في القرن الثامن
فترتفع 150 م على سطح الأرض

ودبيتي عندما عاينتُ أنّ نقاط المرابطة لا تتوفر على أي
إسناد تبادر إلى ذهني سيناريو كوباني مع كلّ الخسائر التي
تكبّدتها الدّولة أثناء تلك المعركة إلى اليوم يتداول الناس
من كوباني أسئلة لا جواب لها حول مقتل أربعة آلاف من
خيرة جنود الدّولة في تلك المعركة. ما الّذي وقع حقيقة في
كوباني؟! وما الّذي قاد هؤلاء الشّباب إلى المعركة؟!

المهم أنّ تلّ أبيض أيّامها كانت لشبه خلوة على
عروشها فيما كُنّا نواجه أحيانا شتائم بعض العوام
وتحذيراتهم لنا من مغبّة الاقتراب من منازلهم مخافة
القصف.

طبعا لمن يعرف حرص الدّولة على عدم الاعتداء على
عوامّ المسلمين[1] في المدن الّتي تحتلّها يفهم عدم قدرتنا على
ردّ أيّ فعل أمام شتائم بعض العامّة أثناء القصف. كانت
الدّولة حريصة باسم "الحاضنة الشعبيّة"[2] على إرضاء
العامّة قد تصل عقوبة الاعتداء على أيّ عامّيّ القتل
تعزيرا.

وبالمقابل كنّا ندخل بعض البيوت المفتوحة والخالية
من سكّانها احتماء من تصوير الطّائرات دون طيّار وخوفا
من القصف الكثيف على المدينة.

[1] يستعمل تنظيم الدّولة مولفه من عوامّ المسلمين في كتابه بعنوان "الموضحات العرفانية لعقيدة
[2] مفهوم "الحاضنة الشعبية" لسلفي العراق أبومصعب الزّرقاوي وأبيه العقلي مصطفى عبد
الرّحمان أبو مصطفى حيث مرّ بنا أنّه نقله عن محمود العامّة الشعبية دون أن يذكر

سادت الفوضى والارتباك صفوفنا وانتشرت الأقاويل
بين المقاتلين بأنّ علينا الانسحاب وأنّه لا فائدة من البقاء
في المدينة.

نشرت الشّائعات بيننا فتهكة ما تبقّى لنا من معنوياتنا
وقدرة على الصّمود. بدأت أعداد القتلى في صفوفنا تتزايد
يوميّا بفعل القصف اليوميّ غير أنّ معظم الشّباب كان
يرفض الإنسحاب من المدينة.

أقمنا الصّلوات والدّعاء وصمّمْنا على البقاء في المدينة.

في اليوم الرّابع لوصولنا قدم لنا أحد الأمراء مصحوبا
بستّة سيّارات رباعيّة الدّفع وأمرنا بالصّعود. اتّجه الرّكب
إلى الطّريق المؤدّي إلى مخرج المدينة. تأكّد مُعظمنا أنّ الأمر
يتعلّق بانسحاب من تلّ أبيض. ولكن أُوقفنا في منتصف
الطّريق من طرف حاجز للشّرطة العسكريّة وتمّ إجبار كلّ
الرّتل على التّوقّف. أمرنا أمير الحاجز بالرّجوع إلى وسط
المدينة وأبلغنا قائلا "جاء أمر من الخليفة بمنع خروج أيّ
مقاتل من تلّ أبيض!".

استجبنا لأمر أمير المؤمنين وعدنا إلى وسط مدينة تلّ
أبيض غير أنّ عشرات من المقاتلين تمكّنوا من عبور
الحاجز بطريقة التفافيّة واتّجهوا إلى الرّقّة. في ما يخصّنا،
عدنا إلى وسط المدينة وتوزّعنا على نقاط الرّباط دون
نظام تعويض وهي عادة المرابطة في غالب الأحيان والّتي
تتمّ عبر تقسيم وقت الحراسة بين المقاتلين.

صبيحة اليوم التّالي، تحوّلنا من النّقاط القريبة من
البوّابة الحدوديّة مع تركيا إلى نقاط متقدّمة في اتّجاه
القوّات الكرديّة القادمة إلى المدينة. أصبح فنالنا مع قوّات

سوريا الدّيمقراطيّة بمثابة حرب كرّ وفرّ لم تشد
واحد بسبب القصف المتواصل.
في نهاية اليوم جاءنا أمر بالانسحاب من المدينة
ما فائدة هذا الأمر في هذا الوقت وقد طوّقت
الكرديّة تلّ أبيض بشكل شبه كامل؟!
حُدّد لنا أمر بالانسحاب إلى نقطة حاجز قريبة
البراميل القريب من قرية المشرفة ومنها يمكننا أن نتجه إلى
عين عيسى ومنها إلى الرقّة. بمجرّد خروجنا من وسط
المدينة اكتشفنا أنّ القوّات الكرديّة قطعت الطّريق منذ
حوالي السّاعة ولا سبيل أمامنا إلاّ الرّجوع إلى وسط تل
أبيض.

سُدّت جميع المنافذ حولنا خاصّة أنّ كلّ المسالك
الرّيفيّة قد قُطِعَتْ نارًا أي أنّها أصبحت تحت النّقطة
النّارية للأكراد.

لم يعد لنا من خيار إلاّ القتال أو الهروب إلى الحدود
التّركيّة وهو الأمر الّذي كان غير مطروح في ذلك الوقت.

اتّخذنا من محطّة بنزين تتوفّر على عدد من المباني
الكبرى في مدخل المدينة ساترا لنا. كنّا حوالي مائتي مقاتل.
انتشرنا في منطقة قطرها حوالي كيلومتر مربّع. حاولنا
بعدها التّقدّم إلى ضيعات في خطّ المواجهة الأوّل للأكراد.

كانت لنا سيّارة مفخّخة من نوع "كيا" kia غير أنّها لم
تغر أحدا منّا بالتّنفيذ!

عرض علينا أحد الأمراء السّيارة وقال: "من يريد الدّفع
(التّنفيذ) يا شباب"؟ صمت الجميع. كرّر الأمير: "يا شباب
هذه سيّارة مُفخّخة من يريد المتعود فليستعن بالله". لم

يجب أحدٌ أبعدنا السّيارة عن محيط قتالنا حتّى لا
تُستهدف من قبل الطّيران.

لم تُغر السّيارة المفخّخة أيّا من المقاتلين الّذين كانوا
معي بالنّسبة إليّ كان الأمر محسوما. لم أطرح على نفسي
يوما أن أركب سيّارة مفخّخة ولا الموت بهذه الطّريقة في
سبيل الله. صحيح أنّ بعض الشّباب الّذين رأيتهم في الرّقّة
وفي غيرها كان ينظر إلى هذه المُفخّخات كأنّها قطار سريع إلى
الجنّة والحور العين غير أنّ الأمر اختلف عندي. كان هناك
في قلبي شيء من الرّيبة والشّكّ حول هذه الطّريقة من
التّضحية في سبيل الله.

عادة ما يُجلب الانتحاريّون في الدّولة ممّا يسمّى
"كتيبة الاستشهاديّين" وهي كتيبة خاصّة يُعزل أفرادها
عن باقي الكتائب. يُجمعون في مضافة خاصّة ولا يختلطون
ببقيّة المقاتلين. أمّا اختيار أفرادها فيتمّ بمجرّد حلولهم
بالدّولة كمهاجرين جدد حيث يملؤون استمارتهم في إدارة
الحدود باختيارهم لوظيفة "الاستشهاديين".

حينما قُدّمت لي نفس الاستمارة في مضافة تلّ أبيض
في اليوم الأوّل لوصولي اخترت وظيفتي في الدّولة كمقاتل.

وبالنّظر إلى تعدّد الجهات الّتي تخوضها الدّولة وحينما
يقع شُحّ في عدد الانتحاريّين فإنّ الانتدابات لهذه المهمّة
تُجلبُ من الدّورات العسكريّة. كثيرون هم الّذين غيّروا
مهمّتهم من مقاتلين أو اقمامسيّين إلى انتحاريّين بعد أشهر
من وصولهم إلى الدّولة.

في وضعنا الحالي، لم نعثر على التحاقي
نظرا إلى الحصار المضروب علينا ومنع أي تعزيزات
تصلنا من الرقة.

المهمّ رابطنا في بعض الضيعات وبدأنا الاشتباك
الأكراد. أردنا التسلّل إلى خندق غير أنّ الطيران
التقدّم أكثر. قصفتنا طائرة ووقع الصاروخ على
بيكات صينيّة النوع جعل منها أثرا بعد عين.

تراجعنا مرّة أخرى لوسط المدينة. داهمنا الليل
للّيلة الثانية على التوالي. لم أعد قادرا على المشي
مرهقا بدنيّا ونفسيّا. دخلت أحد البيوت اعتقدت
أنّ هذه آخر ساعات حياتي. شدّة القصف وتركيزه
المناطق المحيطة بنا جعلني أوقن أنّي انتهيت فعلا
نهايتي مسألة وقت لا أكثر ولا أقلّ.

انزويت في أحد أركان البيت المهجور وأقمت الليل
قليلا. أكثرت من الدّعاء. هي تلك علاقتي بالعبادات في
الدّولة. هذه من الأمور الّتي لا يتحدّث عنها كثيرا خشية
الرّياء. عادة ما يصوم مقاتلو الدّولة يومَيْ الإثنين والخميس
ويواظب عالميّتهم على قيام اللّيل. قبل الغزوات يتغيّر الأمر
تماما. الوعي بأنّنا ذاهبون إلى الموت يزيد من وتيرة
العبادات، صلاة وصياما. أتذكّر مثلا أنّ مضافة الطبقة
الّتي وصلناها قبل غزوة تدمر تحوّلت غرفها وزواياها ليلا
إلى مهجع اعتكاف ودعاء وترتيلات.

استرقت بعض الرّكعات لأعود سريعا إلى أصحابي.
جاءنا أحد سكّان الضّيعة فطلبنا منه إخراجنا من
المنطقة. قال لنا إنّه فعلا عاجز عن فعل أيّ شيء. كان

الأبيار بابا عليها كان خلّنا مهاجرين وبعض من المقاتلين
المحوريين.

عاودت إحدى الطّائرات قصفنا ونحن في الضّيعة.
سمعت صفير الصّاروخ نازلا. قلت مرّة أخرى إنّها النّهاية.
زادت الشّهادة عدّة مرّات. ضرب الصّاروخ قريبا جدّا من
المكان ساد الغبار كلّ أرجاء البيت. اختنقت. خرجت سريعا.
سمعت صراخ أحدهم. اتّجهت نحو مصدر الصّراخ. كان
أحد المقاتلين ملقى على الأرض. كانت هناك أشلاء ساقين
له من جهة الفخذين. كان يناوّه بألم كبير: "أخي أخي تعال
بين إرجلي ساقي". يقصد ربط أعلى ساقه حتّى ينقطع
النّزيف. تحوّل المكان حوله إلى حفرة عميقة وبقايا قطع
أشجار محترقة متناثرة. تقدّم إليه أحد المقاتلين وشرع في
ربط ساقه من جهة الفخذ حتّى يتوقّف النّزيف.

بعد هذا القصف، زاد يأسي. صوت القصف ينبئ أنّ
صاروخا آخر قد يستهدفنا في أيّ لحظة. التفتّ إلى أحد
الأصحاب وقلت له "اسأل الله أن يتقبّلنا". غيّرنا مكاننا
واتّجهنا إلى ضيعة أخرى. في الأثناء علمنا أنّ سريّة من
كتيبة سيف الدّولة كانت تعمل على فكّ الحصار انطلاقا
من الرّقة باحثة عن منفّذين لعمليّات استشهاديّة لفتح
الطّريق دون جدوى.

كان الأمل الوحيد الّذي أمامنا هو اختراق صفوفهم في
المنطقة الّتي لُعتبر مغطّاة ناريّا للوصول إلى الضّيعات الّتي
تلي منطقة الحصار الخطورة الوحيدة في العمليّة أنّنا
سنتعرّض إلى إطلاق نار كثيف أثناء العبور ولكن إذا تمكّنا
من تجاوز المنطقة المغطّاة ناريّا فرأينا نستطيع النّجاة

الشّعبيّ والقوّات العراقيّة التّحرير النّهائيّ لأكبر مصفاة نفط عراقيّة ولمدينة بيجي. اضطرّ وقتها من بقي من مقاتلي الدّولة إلى اللّجوء إلى جبال حمرين.

في الأيّام التّالية لوصولي إلى الرّقة قادما من معركة تل أبيض، لم أتردّد في إظهار غضبي لمن أقابله من الأصدقاء ومن القادة في المقرّات. لم أخفِ تذمّري من سوء التّصرّف الّذي يصل إلى مرتبة القتل المدبّر. كنت أعتقد أنّ الأمر لم يكن مجرّد ارتباك. بل ربّما يصل إلى الرّغبة في التّخلّص من الشّباب في معركة خاسرة مسبقا. كانت عندي شكوك حقيقيّة حول وجود خيانات في مستويات كبرى في الدّولة لم أنّي لا أملك دليلا إلاّ ما يتعلّق بالأخطاء والخسارات المتكرّرة.

بدل فتح تحقيق حقيقيّ حول ما جرى في تلّ أبيض والإستماع إلى الشّهود الّذين عايشوا الواقعة قام الجهاز الأمنيّ بتبليغي رسالة مضمونة الوصول: "عليك بالصّمت وإلاّ ستحال بتهمة التّخذيل".

والتّخذيل تهمة يحال بمقتضاها كلّ عنصر من عناصر الدّولة أو من ساكنيها ممّن يُتّهمون بتخذيل المقاتلين ودفعهم إلى التّذمّر والحطّ من عزائمهم.

المهمّ التزمت الصّمت على الأقلّ في مقرّات الدّولة وبين المهاجرين الّذين لا أعرفهم. لم يعد من الممكن أن أواصل تذمّري بهذه الطّريقة. لقد وصلت رسالتهم قويّة. كان أصحابي يهكّمون مازحين: أبا زكرياء، عليك بالصّمت وإلاّ اعتقلوك وأصدروا شريط ذبح في شأنك!

زادت خشيتي حينما علمت أنّ القضاء الشّرعيّ أرسل مكتوبا لزوجة صاحبي أبي دجانة (محمّد النّزين) تعلمها بأنّه وقع تنفيذ

حكم القصاص فيه من أجل تهمة الإفساد في الأرض والاحتطاب[1] وقتل نفس بغير حقّ في إشارة إلى قتله لأحد العوامّ. علمت فيما بعد أنّه وقع سجن أبي دجانة في الرّقة وبعدها نُقل إلى أحد مقرّات الأمنيّين السّريّة ومُنع من أيّ زيارة من العالم الخارجيّ إلى غاية قتله في مطار كشيش في ضواحي الرّقة وهو المكان الّذي تُعدم فيه الدّولة المنشقّين والمتمرّدين عنها.

زاد حزني وانتقل التّذمّر إلى أصحابي ولكنّنا كنّا في تلك الفترة نُبرّئ أمير المؤمنين أبا بكر البغدادي من هذه التّجاوزات. كنّا نقول بأنّ الشّيخ لم يكن على علم بكلّ هذه المظالم. غير أنّ حديثا جانبيّا أجريته يوما مع أحد القادة الشّرعيين جعلني أكتشف أمرا آخر مختلفا.

قال لي "أبو الحارث المصري" والّذي من الواضح أنّه كان قريبا من دوائر القرار في ولاية الرّقة. إنّه لا يمكن تنفيذ حكم القصاص في أيّ مقاتل أو مهاجر في الدّولة الإسلاميّة إلاّ بعلم وختم رسميّ من البغدادي شخصيّا!

أي أنّ البغدادي قد زكّى فعلا مقتل أبي دجانة وأنّ أمير المؤمنين من مهامّه تزكية أو رفض أيّ قرار تصدره المحاكم الإسلاميّة وله الحقّ في التّعزير من مجرّد النّظرة والّتي تصل إلى القتل في القضايا المتعلّقة بالمهاجرين ومقاتلي الدّولة من العراقيّين والسّوريّين.

[1] الاحتطاب ذكر المسطلح ابن قدامة في المغني عندما قال: "وإذا غرز الأمير بالناس لم يجز لأحد أن يحتطب ولا يحتش ولا يبادر علفا ولا يخرج من العسكر ولا يحتش حشا إلا بإذنه" ويستثنى أن الاحتطاب الذي شاع في بعض المناطق في الجيانة بمعنى استغلال الأموال. لكن تحيلنا شرعيا على "إذن الأمير" خصّص تنظيم الدّولة في بعضها غرفا خاصة بما يسمّيه بـ"مباحو الأموال" وهم من مقاتلي التّنظيم ممن استحلّوا أموال العامّة واغتنموها دون إذن الأمير.

بعد مقتل أبي دجانة والهزائم العسكرية في كوباني ثم
أبيض وغيرها بدأت أفهم أنّ هناك خورا كبيرا في الدولة
ولكن ظللت أعتقد بأنّ الدّولة على حق رغم كلّ أخطائها
الأكيد في كلّ ما جرى بالنّسبة إليّ أنّ أنموذج الدّولة
الإسلاميّة العادلة بدأ ينهار. الأكيد أنّ هذا الحلم الذي جاء
لتحقيقه وقطعت آلاف الكيلومترات وتركت خلفي الأهل
والنّفيس لأجله، أصبح فيه شيء من العبث شاركني
هواجسي العديد من أصحابي.

أصبحنا نعيش في أجواء الخوف. ما يزيد في خشيتنا من
انتشار أمنيّي الدّولة في كلّ مكان تقريبا. كنّا نتفاجأ أحيانا
باكتشافنا أنّ بعض المُهاجرين يعملون كمخبرين بشكل
مستمرّ مع الجهاز الأمنيّ للدّولة وأنّ التّقارير ترفع تباعا إلى
الأمنيّين بمجرّد سماع نقد للدّولة أو لوالي الرّقّة آنذاك أبي
لقمان وهي كنية المَتوريّ علي موسى الشّواخ، والّذي كان
محلّ كراهيّة كبيرة من قبل معظم المهاجرين لتصلّبه
ولتميّزه الشّاوية وهي قبيلته الرّقّاوية بطريقة غير مباشرة على
غيرهم.

لم نتردّد في بعض مجالسنا كتونسة في السّخرية بانتقاد
بعض أمراء الدّولة. وكان البعض منا يهكّم من منع النّقد
داخل الدّولة الإسلاميّة بالقول: "يمكنك في تونس أن تشتم
الباجي قايد السّبسي نقدا فيما يُقطع رأسك إذا انتقدت
الخليفة أبابكر البغدادي أو أبا لقمان والي الرّقّة!".

أظهر تنظيم الدّولة قدرة جهازه الأمنيّ في أكثر من إصدار
فضلا عن اختراق الجهاز الأمنيّ للدّولة للكثير من فصائل
المعارضة السّوريّة كما ظهر ذلك مثلا في الإصدار المرئيّ
المعنون "فسكفيكهم الله"[1] الّذي أصدره المكتب الإعلاميّ
لولاية الفرات. فإنّ الجهاز الأمنيّ كان أيضا ينشر جواسيسه
ويحاول تسجيل وتصوير أيّ مجلس للمهاجرين يشتبه فيه
لتقديمه للدّولة وأمرائها.

لم تعد لي الثّقة في أحد تقريبا باستثناء الأصحاب
المقرّبين والّذين أعرفهم حتّى قبل هجرتي إلى الشّام. رغم
مواقفهم شكوكي في إمكانيّة وجود سقطات وأخطاء وربّما
خيانات على مستوى عال. كان أغلب أصحابي يطالبوني
بعدم التّحدّث في هذا الموضوع الّذي قد يجرّنا إلى مشاكل لا
حصر لها. كنّا على يقين بأنّ الأمنيّين يزرعون آلات التّسجيل
في كلّ المجالس العامّة تقريبا. المقولة الدّارجة الّتي كانت تتردّد
بيننا هو "إحذر التّسجيل"!.

عندما نتطرّق في مجالسنا إلى موضوع الأخطاء والانتقادات
إلى قيادات الدّولة، كان البعض يرفعون إبهاماتهم إلى أفواههم
آمرين بالصّمت ويرفعون أيديهم إلى رقابهم في إشارة إلى الذّبح.

لم تكن عمليّات الذّبح الّتي يقوم بها بعض مقاتلي الدّولة
مجرّد مشاهد رعب للعالم فقط ولكنّها أيضا رسائل قويّة لكلّ
جنودها وأنصارها في الدّولة.

لم يتردّد منتقدو الدّولة من التّيارات الجهاديّة الأخرى في
مؤاخذاتها على سنّها لسنّة الذّبح من قبيل الانتقادات الّتي
وجّهها أبو محمّد المقدسي لهذه الطّريقة في القتل.

في الحقيقة تمثّل طريقة القتل ذبحا رسالة مضمونة
الوصول بأنّ أيّ مُحارب أو مُتمرّد على الدّولة سيكون مصيره

[1] الإصدار المرئي للمكتب الإعلامي لولاية الفرات والذي عنونه "فسكفيكهم الله" في شهر جويلية 2016

النّحر بحدّ السّكّين. ربما ما يفوق آلام الذبح من الوريد إلى الوريد هو العذابات النّفسيّة للضّحيّة قبل الذبح عندما يشاهد السّكّين.

بتنا نعتقد كمجموعة من المهاجرين التوانسة أنّ كلّ المضايقات الأمنيّة الّتي عشناها في تونس لا تساوي شيئا أمام شراسة الجهاز الأمنيّ للدّولة الإسلاميّة ورعبه. صحيح أنّه ربّما تتمكّن منك الأجهزة الأمنيّة في تونس مثلا بالتّعذيب أو تضييقها قد لا يصل إلى مستوى تعذيب وعمليّات القتل الّتي ينفّذها الأمنيّون في الدّولة الإسلاميّة.

على الرّغم من كلّ هذا الرّعب، لم تَخلُ جلسات العمل من مجموعات المهاجرين بانتقادات خفيّة لما يجري في الدّولة وقتل مجانيّ للعشرات من المهاجرين الّذين تعرّفوا وانتقدوا آليات اشتغال الدّولة. كان الشّعار الّذي يُرفع أمام أيّ انتقاد هو "السّمع والطّاعة" الّذي هو جزء من قسم البيعة الّتي يؤدّيها المهاجرون في الأيّام الأولى لوصولهم إلى الشّام.

وسط أجواء الخوف الّتي سادت العديد من دوائر المهاجرين في الرّقّة، كانت الخشية تتّجه أساسا إلى ديوان الأمن العام وبعض الألويّة الّتي تعمل في الجهاز الأمنيّ كلواء الصّدّيق الّذي قاده محمّد العدناني.

كان هذا اللّواء يعمل في سرّيّة تامّة في كامل أنحاء سوريا وهو الّذي يشرف على الإصدارات الّتي يراد من خلالها إحداث الرّعب والصّدمة في نفوس أعداء الدّولة، من قبيل قتل الصّحفيين اليابانيّين ذبحا أو الإصدار المرئي الّذي عنوانه "شفاء الصّدور" والّذي صُوّر فيه قتل معاذ الكساسبة[1] حرقا.

في خصوص هذا الأخير، وعلى الرّغم من أنّ حرقه تمّ في الرّقّة فإنّنا علمنا بالخبر وشاهدنا شريط الحرق مثلنا مثل بقيّة المتابعين في كامل أنحاء العالم.

أخبرني أحد الأمراء أنّ الكساسبة أُحرق في نفس المنطقة الّتي قصفها قبل أن يقبض عليه بأيّام قصف الكساسبة مصنعا للنّحيف والنّفجيرات بمنطقة الجسر القديم بالرّقّة وأدّى قصفه إلى مقتل حوالي أربعين من مقاتلي التّصليع الحربيّ في الدّولة.

علمنا فيما بعد أنّ مكان عمليّة الحرق هو نفس المكان الّذي قصفه الكساسبة بعد أن أغلق بالكامل من قبل الجهاز الأمنيّ للدّولة قبل التّصوير. أُحرق الكساسبة وواصلت الدّولة عبر وسطاء التّفاوض في شأنه مع السّلطات الأردنيّة من أجل إطلاق ساجدة الرّيشاوي[2].

انضافت إلى محنة المراقبة الأمنيّة والخوف الّذي ينشره ملثّمو الجهاز الأمنيّ في الرّقّة والّذين يُحجّر على غيرهم من المقاتلين ارتداؤه في المدينة، محنة ثانية بالنّسبة إليّ.

كنت مغرما بأكل الهاريبو[3]. أفتني منه كلّما كنت في الرّقّة كمّيات كبيرة. وبسبب نوعيّة سيّئة منه أصابتني آلام حادّة معدّتي نقلت على إثرها إلى مشفى الرّقّة.

---

[1] بثّ الإصدار الّذي "شفاء الصّدور" من إنتاج مؤسّسة الفرقان بتاريخ 3 فيفري 2015 وتم تصوير حرق معاذ الكساسبة الّذي وقع القبض عليه بعد إسقاط طائرته في سماء الرّقّة يوم 24 ديسمبر 2014

[2] ساجدة الرّيشاوي امرأة عراقيّة حاولت تفجير نفسها بحزام ناسف لم ينفجر في أحد فنادق العاصمة الأردنيّة عمّان يوم 9 نوفمبر 2005. حكم عليها بالإعدام ووقع تنفيذ الحكم يوم 3 فيفري 2015 بعد يومين من حرق الكساسبة

[3] الهاريبو HARIBO شركة مختصّة في صناعة الحلويات تأسّست سنة 1920 بتونس وتشتهر في الكثير من بلدان العالم

لم أتمكّن من رؤية الطّبيب إلا صبيحة اليوم الثّ
بالنّظر إلى قلّة الأطبّاء في المشفى بعد عدّة كشوفات أجر
الطبيب بإصابتي بمرض البوصفير.
كانت تلك محنة أخرى لي في الرقّة.

عشرون جلدة !

رمضان 2015

أوصى لي الطّبيب بمجموعة من الأدوية. عُدت إلى المنزل الّذي أسكنه بدوّار الصّوامع بالرقّة. كُنت وقتها قد انتقلت بشكل مؤقّت إلى بيت أبي الشّهيد بعد مقتله وانتقال زوجته للسكن عند شقيقتها في ريف الرقّة.

عُدت إلى البيت بآلام حادّة متواصلة وارتفاع في درجة الحرارة. مرّة أُخرى أشعر بالوحدة والغربة الّتي لا توازيها غربة وأنا في قلب الدّولة. في محنة المرض وجدت نفسي وحيدا.

الآن هنا، مع شدّة الألم تشعرُ أنّك بحاجة إلى حنان أمّ مثلما كانتْ تفعل معك ذات شتاء عندما يهاجمك المرض.

أنا اللّيلة وحيد مع قسوة الأوجاع الّتي تمزق أحشائي. لم أنم من شدّة الآلام. لن يعادل اهتمام أحد أصحابي بمرضي اهتمام أمّي القديم بي. تواصلت الامي أيّاما عدّة. أصبحت ليالي لا تطاق مع المرض. انقطعت شهيّتي عن الأكل. هجرني النّوم. أخبرت أحد أصحابي أنّي لا أستطيع المواصلة على هذا الحال. واساني وقال لي إنّي سأشفى

طبعا كان العدناني يعني المناطق التي حررتها المعارضة السورية من النظام.

في باحة المسجد وبعد التوصيات التي تتعلق بمسلسل معاملة العوام وطريقة معاملة المقاتلين من قبيل "لا تُجهز على جريحهم. ومن سلّم لنا سلاحه فله ما لنا ومن دخل بيته فهو آمن. ومن دخل المسجد فهو لي. كانت هناك جمل تقرع أذني أكثر من غيرها من قبيل "إن هذه الغزوة ستكون غزوة الثأر".

كان ما يعنيه العسكري من مسألة الثأر هو بحسب تعبيره الثأر: "للأخوات من المهاجرات اللاتي أُغتصبن حينما نشب الصراع بين جهة النصرة آنذاك والدولة في مناطق ريف حلب الشمالي"[1].

من جهتي وطوال أيام انتظار الغزوة لم أتوقف في الضيعة التي أقمنا فيها عن التصريح والتلميح للجنود الذين معي بآرائي حول الجدل الدائر في الدولة ومسألة التكفير وقضية العذر بالجهل.

كنتُ على يقين أنّ مثل هذا الكلام كان يصل إلى الشرعي أبي مروان المصري الذي يشرف على كتيبتنا.

شرعنا في الركوب في سيارات رباعية الدفع من أجل الاقتحام ليأتينا أمر بالتوقف فورا وتأجيل الغزوة تذكّرت ما وقع لنا في مدينة حديثة حينما جاء أمر من القيادة العسكرية بالانسحاب الفوري من مدينة هيت والتوجه مباشرة إلى الشام.

[1] بدأ الصراع بين الدولة والنصرة بحرب بيانات منذ أفريل 2013 لينتهي في أواخر هذا العام بمواجهات مسلحة

أثناء معركة السيطرة على إدلب إلى أجل غير مسمى.

أثار هذا التأجيل احتجاج العديد من المقاتلين الراغبين في الغزو بحسب البعض وتململ ولكن كانت الكلمة السحرية "السمع والطاعة" للأمراء بمثابة الكابح لأيّ انحراف في الاحتجاجات. كان تأجيل الغزوة بردا وسلاما على نفسي! بعد يومين من التأجيل جاء أمر عاجل بإرسال كلّ أفراد كتيبة سيف الدولة بعتادها وعتادها إلى مطار كويرس في ريف حلب الشمالي.

جاءتنا الأخبار أنّ النظام السوري يسعى لفكّ الحصار على المطار العسكري الذي تحاصره الدولة وقتها من كلّ جانب.

جدير بالقول إنه ومنذ غزوة تدمر وحصار تلّ أبيض تغيّرت في شخصي أشياء عدّة من بينها أنني أصبحت أكثر قدرة على نقاش الإجراءات العسكرية المتّبعة من قبل العسكريين وهو ما سأتي على ذكره لاحقا.

أخذونا إلى محيط مطار كويرس. قادونا بالشاحنات إلى منطقة ريفية لا حياة فيها. سبقنا فوج من المقاتلين زجّوا بهم مباشرة في قلب المعركة.

عند وصولنا، تمركزنا ليلا في المناطق التي من المفترض أن تكون معابر قوّات النظام للمطار.

أشار لنا أمير السرية بإبهامه في اتّجاه معيّن وقال هناك قوّات النظام. طبعا كان الظلام يسود البراري بشكل انعدمت فيه الرؤية تماما.

شعرتُ بالضيق وبدأت بالاحتجاج وسط السرية حول أسلوب الاقتحام. كيف لنا أن نقتحم دون أن ندري طبيعة جغرافية المعركة ولم نقم بعمليات الرصد اللازمة.

كان احتجاجي نابعا من عدم رغبتي في خوض المعركة من جهة ومن جهة أخرى للشهيات التي ترافق مشاركتي فيها. اقتصر أمير الشرّة بجواب باهت وغير مقنع على تساؤلاتي وهو أنّه سيكون برفقتنا دليل من أهل المنطقة سيقودنا في الطّريق!

كانت الأراضي المحيطة بالمطار مكشوفة دون موانع تذكر في أنحائها بعض السّواقي. بدأنا عمليّة التّسلّل في إحدى المناطق الّتي من المفترض أن تنتشر فيها عناصر النّظام لكنّها كثيرا منهم وبدا لنا أنّنا أصبحنا في مواجهتهم

على بعد حوالي مائة متر تقريبا من قوّات النّظام فوجئنا بكثافة ناريّة في اتّجاهنا حوّلت المرتع الّذي نتواجد فيه بين الأعشاب إلى جحيم ناري.

كان الطّلق من كلّ مكان وبكثافة لا قبل لي بها انبطحت كما تمدّد البقيّة على الأعشاب. كانت الأرض فلاحيّة حولنا وكان عزائي الوحيد هو دفن رأسي في الأرض المحروثة.

كانت النّهاية. بدا لي للحظات أنّ كوبرس هي آخر المعارك الّتي أخوضها في حياتي. لمن يعرف ربح الرّصاص. فقد كنت أشعر به يلفحني من كلّ الجهات. طبعا فحيحه كان واضحا. خبّأت رأسي في التّراب لمدّة لا يعلمها إلاّ الله. كنّا جميعا منبطحين على الأرض الفلاحيّة والرّصاص يلعلع فوق رؤوسنا. كان الاعتقاد السّائد بيننا أنّنا وقعنا في كمين مُحكم وأنّ جنود النّظام السّوري رصدونا منذ بداية تسلّلنا ولكنّهم آثروا أن يتركونا حتّى نقع في مرمى نيرانهم.

كان المشهد يماثل الألعاب النّاريّة الّتي كنّا نشاهدها في صغرنا. كان جحيما من الرّصاص. كان ضوء الخطّاط

البعث من الرّصاص واضحا في كلّ مكان. لا شكّ أنّها النّهاية ولكن هذه النّهاية ستأتي وأنا على ضلال أقاتل مع جهة في عقيدتها ربما كان شعوري هذه المرّة مخالفا لما تعوّدت به في تدمر أو في حصار تلّ أبيض.

مرّ الجنود في اتّجاهنا لمدّة حوالي ربع ساعة دون أن يتوقّف الرّصاص لحظة. كان الأمر بالنّسبة إليّ بمثابة سنوات طويلة ربّما ما مثّل حبل النّجاة لنا هو وجود بعض القصب على بضعة أمتار أمامنا. من المرجّح أنّ القصب القصير كان كافيا ليحجب الرّؤية إلى حدّ ما عن أجسادنا الممدّدة على الأرض الفلاحيّة.

كان إلى جانبي مقاتلان تمكّنا من الزّحف في اتّجاه القصب أمامهما لمزيد الحماية. بالنّسبة إليّ كان الأمر أكثر عسرا. لم أستطع التّقدّم زحفا إلى الأمام.

توقّف صوت الرّصاص للحظات. كان خلفي ساقية صغيرة عندما قمت سريعا للالتجاء إليها تهاطل عليّ الرّصاص من كلّ جهة. من الواضح أنّهم راصدون لنا بالمناظير اللّيلية. انبطحت في السّاقية. تكرّر إطلاق الرّصاص غزيرا. كنت لا أملك إلاّ الدّعاء والتّضرّع.

ربّما من حسن حظّنا أنّهم كانوا يهابوننا وإلاّ لاقتحموا علينا المكان. لو كنّا مكانهم لحسمنا بالاقتحام وهو الفرق بيننا وبينهم في ساحات القتال!

تمكّنا بعد مغالبة وصبر طويل من القيام من أماكننا والابتعاد سريعا عن مكان الرّمي. طبعا تواصل إطلاق الرّصاص ولكن بوتيرة أقلّ. انسحبنا متّخذين حقول القصب المنتشر على جانبي الطّريق بمثابة سواتر. وصلنا

إلى خطوط الرّباط. عُدنا إلى نقاط انطلاقنا. عدنا إلى
الأمير العسكريّ من أجل الاحتجاج على الكمين الذي وقعنا
فيه. كان الأمير العسكريّ غائبا. كان رئيس أركان الجيش
واضحا وتقليديّا: لا يجب مناقشة الأوامر من قيادة تعرف
كالعادة ردّدوا على آذاننا العبارة الشّعرية: إنّه "السّمع
والطّاعة" الّتي بايعنا من أجلها الدّولة.
كرّر علينا الأمير العسكريّ في اللّيلة الثّانية لوجودنا
بضرورة الاقتحام من أجل كسر الخطوط المتقدّمة للعدو.
شعرتُ مرّة أخرى بالمرارة والمصير المجهول الّذي ينتظرنا.
من الواضح أنّي أسير نحو الانتحار. لم نكن نملك من الحرية
إلاّ تلبية الأوامر بحجّة السّمع والطّاعة.
كاللّيلة السّابقة لم تكن هناك لا خطّة ولا رصد ولا
شيء من هذا القبيل. قيل لنا اقطعوا الوادي سنجدون
أنفسكم أمام "جنود النّصيريّة" في إشارة إلى جنود النّظام
السّوري. هذه المرة قيل لنا أيضا "أنّ هناك سلاحا ثقيلا
سيغطّي اقتحامكم وأنّ معكم دبّابة دفعة (مفخّخة)".
بدأنا التّسلّل داخل الوادي حتى وصلنا إلى الجسر.
بالتّوازي كانت الدّبّابة تعبر من فوقنا. لم تمض سوى
لحظات حتّى سمعنا انفجارا رهيبا من جراء تفجير الدّبّابة
بواسطة صاروخ كونكورس مضادّ للدّبّابات. صمّتْ آذاننا
نتيجة قوّة انفجار الدّبّابة المفخّخة. لبضع دقائق لم نعد
نسمع شيئا من حولنا. كنّا بين طرفي كمّاشة بين الأسلحة
الثّقيلة والرّصاص الّذي يستهدفنا. طلق ناريّ يأتينا من كلّ
الجهات. كان المشهد بالنّسبة إليّ بمثابة أهوال يوم القيامة.
استعملت بين الجانبين كلّ أنواع الأسلحة تقريبا. كان طلق

النّار الّذي يستهدفنا قادما من مطار كويرس ومن القوّات
الثّورية الّتي تريد فتح طريق إليه.
مرّة أخرى، في أحد أطراف الوادي، تبادرت إلى ذهني هزيمة
كويانغ وخسارة حوالي أربعة آلاف مقاتل، وسقوط بيجي
والمحرقة الّتي خسرت فيها الدّولة المئات من مقاتليها. تذكّرت
كركوك وتلّ أبيض وكلّ المناطق الأخرى الّتي خسرتها الدّولة
والّتي جعلت من جنودها فيها حطب معاركها.
بقيت مُمدّدا في عتمة الوادي ومن حولي ضوء
الرّصاص والقنابل. لم نستطع التّقدّم في اتّجاه العدوّ.
تواصل إطلاق النّار على مواقعنا بينما بدأت القنابل
الضّوئية تنير أماكننا وتحدّدها في الوادي. بدأ الطّيران
يقصف وتزايد إطلاق الرّصاص من كلّ جانب وسط برد
ريف حلب البارد الّذي تحوّل إلى جهنّم.
المهمّ وصلنا إلى قرار جماعي بالانسحاب. عدنا إلى نقطة
الرّباط الّتي انطلقنا منها. عند وصولنا لم نعثر على أيّ أثر
لها. لقد تحوّلت إلى أثر بعد عين نتيجة قصف الطّيران.
إجتمعنا بالأمير العسكريّ. لم نتردّد في الاحتجاج على ما
وصفناه بإلقائنا في "التّهلكة".
بعد محاولتين إقتحاميّتين من أجل وقف تقدّم قوّات
النّظام السّوريّ في اتّجاه مطار كويرس جاءنا أمر في اللّيلة
الثّالثة من أجل تغيير الوجهة هذه المرّة واقتحام مدينة السّفيرة
الّتي تمثّل نقطة إسناد للقوّات السّورية المتقدّمة لمطار كويرس.
أشاروا إلينا من بعيد إلى اتّجاه المدينة وقالوا لنا "توكّلوا
على الله"! بمجرّد تقدّمنا بدأت الرّماية في اتّجاهنا. جاءنا أمر
بالتّقدّم في أرض مكشوفة. لم يتوقف إطلاق النّار في اتّجاهنا.

للمرة الثالثة نصطدم بيقظة كبيرة من جنود الـ
السّوريّ. أضطررنا للمرة الثالثة للانسحاب وعدنا إلى نقطة
بعد اقتحاماتنا الثلاثة الفاشلة والتي أدت إلى
الانسحاب سقط العديد منّا بين قتيل وجريح
بمجرّد أن علم الأمير العسكريّ للمنطقة بانسحابنا أ
أمير سرتنا بإعادتنا مرة أخرى إلى أرض المعركة من جديد
كان النّظام العسكري الجاري به العمل في الكتائب
أن يخضع كلّ أمراء السّرايا إلى أوامر الأمير العسكري
للمنطقة الّتي يجري فيها القتال.
جاءنا أمر بالعودة إلى أرض المعركة من جديد.
هذه المرّة رفضت العودة إلى أرض المعركة رفضت العودة
إلى الموت في أرض مكشوفة. أخبرت الأمير بأنّي مصاب في ساقي
بسبب سقوطي في أحد المنحدرات ولم يعد بإمكاني الجري أ
البرولة.
أعيدت كامل الكتيبة إلى أرض المعركة لكسر هجوم
القوّات السّورية المتقدّمة ولكنّها فشلت في وقف إصرار
السّوريين على الوصول إلى المطار.
بقوّة ناريّة كثيفة وبمساندة عناصر من قوّات النّخبة في
حزب الله اللّبناني، تمكّن الجيش السّوري أخيرا من فك
حصار دام عامين على مطار كويرس العسكريّ من قبل تنظيم
الدّولة.

التّولّي من الزّحف

عُدت إلى الرقّة من جديد وخضعت إلى الرّاحة. بعد
هزيمة مطار كويرس عاقبت الدّولة أمراء الكتائب الّذين
خسروا المعركة عن طريق نقلهم إلى مهامّ أخرى ووقع
تعيين الشّرعيّ أبي مروان المصريّ كأمير عام لكتيبة سيف
الدّولة.
بعد حوالي أسبوع من معركة مطار كويرس ذهبت إلى
مقرّ الكتيبة لأخذ كفالتي الشّهرية والّتي تساوي خمسين
دولار، غير أنّ الإداريّ رفض إعطائي إيّاها مطالبا بعودتي
إلى القتال. فهمت فيما بعد أنّ تصرّف الإداريّ كان تطبيقا
لأوامر أبي مروان المصريّ.
حاولت إقناع الإداريّ بحجّتي وبكوني مصابا وبأنّ
الطّبيب أوصى لي براحة. واصل رفضه قبل خروجي من
مقرّ الكتيبة أوصيته بإعلام أبي مروان المصريّ بأنّي لن
أعود إلى الكتيبة مجدّدا ولن أحتاج إلى هذه الكفالة.

عدت إلى مقرّ الكتيبة بعد أيام مطالبا بنقلي إلى أي
آخر في كتيبة أو إدارة في أيّ مدينة أخرى رفض الإدار
مطلبي مرّة أخرى.

بقيت أياما على هذه الحال إلى أن وصلني استدعاء
الشرطة العسكريّة والّتي تهتمّ بأمور المقاتلين التابعين
للدّولة. أخبروني بأنّ عندي دعوى قضائيّة تهمة "التخلّي
من الزّحف" أي الفرار من المعركة.

في اليوم التّالي اتّجهت إلى مقرّ الشّرطة العسكريّة حيث
تُليت عليّ تهم أخرى مسجّلة ضدّي من قبل "أنظار
الإصابة وتغيّبي المستمرّ عن مقرّ الكتيبة".

كانت كلّ التّهم مختومة بالختم الأزرق وموقعة من
قبل أبي مروان المصري. كما اتّهمني هذا الأخير بأنّي لا أرغب
في القتال "لأسباب يجهلها"!.

قمت بالدّفاع عن نفسي مشيرا إلى أنّي كنت من بين
الاقتحاميّين الّذين سيطروا على تدمر كما كنتُ من المشاركين في
حصار تلّ أبيض هذا فضلا عن مشاركتي في العديد من الرّباطات
بما يعنيه كلّ ذلك من أنّ سجلّي العسكريّ لم يكن سيّئا!

وأخبرت مسؤول الشّرطة العسكريّة أنّ مسألة مرضي
وخاصّة بالبوصفير فهي معلومة للقاضي والدّاني وتشهد بها
سجلاّت مشفى الرقّة.

المهمّ انتهى بي الأمر إلى المثول أمام قاضي الجيش
الجزراوي الّذي كان ومن حسن حظّي له حساب قديم مع
أبي مروان المصري!

كان قاضي الجيش الّذي وقفت أمامه كذلك زوج ابنة
"تلّ المجاهدين" الّتي استقبلتني في بيتها يوم وصلت إلى
إسطنبول!

كرّر لي القاضي قائمة التّهم والّتي كذّبتها جملة
وتفصيلا مستدلاً بشهادات طبّيّة تثبت إصابتي فعلا بمرض
البوصفير وهو المرض الّذي أقعدني لمدّة طويلة.

طلبت من القاضي أن يعطيني معركة واحدة شارك
فيها أبو مروان المصري، صاحب الدّعوى ضدّي، وكان مع
المقاتلين في الميدان! اكتفى القاضي الجزراوي بالنّظر إليّ
بابتسامة عريضة!

قبل خروجي من المحكمة الشّرعيّة التّابعة لجيش
الخلافة تقدّمت بطلب للقاضي من أجل نقلي من كتيبتي
إلى أيّ كتيبة أو إدارة أخرى.

بعد بضعة أيّام استُجيبَ لطلبي وتمّ نقلي إلى إدارة
المعسكرات اختصاص تفخيخ في مدينة منبج!

عندما وصلني قرار النّقلة، كان قرار الهروب من الدّولة
الإسلاميّة جاهزا في ذهني. بدأت أيّامها البحث عن طريق
للخروج.

ما شجّعني على مسألة الهروب أنّ القرار كان جماعيّا
من قبل العديد من أصحابي.

انتقلت للسّكن في منبج تحت غطاء النّقلة إلى إدارة
المعسكرات. كانت خطّة الهروب جاهزة، باعتبار أنّ منبج
من أكثر المناطق قربا من مناطق سيطرة المعارضة في
الرّيف الشّمالي هذا فضلا عن قربها من الحدود التّركيّة.

لم تنقطع علاقتي بالرقة. بقيت طوال
أتردّد من حين الى آخر على شارع تل
وجامع الفردوس أو جامع التوانسة كما كان يُطلق
في منبج، أقمت في منزل أحد الأصدقاء. كنت
الأمر يتعلّق ببضعة أسابيع بعدما أُطرد
والدّولة إلى غير رجعة.
كانت منبج بالنّسبة إليّ، نهاية مرحلة من
نهاية مرحلة "الدّولة الإسلاميّة". لا أملك أيّ
سأفعله غدا.
تسارعت وتيرة ترتيب إجراءات هروبي من
اعتقال بعض الشّباب الرّافضين لمقولة العنف
شباب آخرون لأسباب أخرى عندما اكتشفوا
ضحيّة وهم حلم إسمه "دولة إسلاميّة".
تحت جنح الظّلام تواصلت اعتقالات الأهالي
يشكّ في نيّته الهروب أو الخروج على الدّولة
صباحا لنكتشف أحيانا، أنّ هذا المهاجر أو ذاك
القبض عليه لأسباب مجهولة.
في عزلة تامّة عن العالم الخارجيّ وفي الظّلام الدّامس
يبقى موقوفو الدّولة الإسلاميّة على هذه الحال إلى غاية
التّخلّص منهم بعد أخذ نصيبهم من التّنكيل والتّعذيب
كان كلّ من دخلوا سجون الدّولة من التّوانسة يقولون لنا
نتمنّى أن نسجن في تونس لمدّة خمس سنوات ولا يوما
واحدا في سجون الدّولة.

قبل السّيطرة عليها من قبل قوّات سوريا الدّيمقراطيّة
كانت حفرة "الهوتة" العميقة في ريف الرقّة، أحد الأماكن
التي تُلقى فيها الدّولة قتلاها.
في فترة لاحقة كان مطار كشيش هو المكان الأنسب
الّذي تدفن فيه جثث من تصفيهم دولة البغدادي بالغلاة
والخارجين عنها.
حذّدت يوم الخروج. نسّقت مع المهرّب. كان ذلك في
أواخر شهر جانفي من سنة 2016.
كان الطّقس ممطرا وباردا حينما غادرتُ منبج في
الطّريق إلى قرية تلّ بطّال حيث من المفترض أن ألتقي
بالمهرّب. كنتُ أتذكّر يومياتي في الدّولة.
نعم، كنتُ في الرقّة. نعم كنتُ شاهدا على دماء الرّعب
الغامقة واختنقتُ برائحة البارود ومشيتُ على بقايا
الأشلاء الآدميّة وصمّتْ أذنيّ المفخّخات. هذا قانون
الحروب الّتي جئتُ للمشاركة فيها. إذا لم تَقتل تُقتل.
الأفضل لي أن أنسى كلّ هذا الآن. ولكن هل يمكنني
بعد اليوم أن أنسى أنّني كنتُ في الرقّة؟!.

طفولة دورتموند

1990 - 1995

إسمي: محمّد الفاهم، ولدت صبيحة 23 أفريل 1990 بـ مدينة دورتموند في شمال ألمانيا في عائلة تونسيّة مهاجرة متكوّنة من أبي وأمّي وشقيقتيّ.

كنت أصغر إخوتي. كنت آخر العنقود. بخلاف أبي الّذي كان يعيش ككلّ الآباء المهاجرين مع قليل من التّحرّر كانت أمّي شديدة الحرص على التّقاليد التّونسيّة.

كان ميلادكَ أشهرا قليلة بعد سقوط جدار برلين. كان الحدث إيذانا بعالم جديد. زمن التّحرّر والانفتاح والسّقوط النّهائيّ للمنظومة السّوفياتيّة المغلقة. في العالم العربيّ كان التّيّار عكسيّا. كان ميلادك فاتحة لبدايات فورة حركات الإسلام السياسيّ. في أشهرك الأولى صعد نجم الجبهة الإسلاميّة للإنقاذ في الجزائر الّتي ملأت الدّنيا وشغلت النّاس. أعقبتها عشريّة الدّم وظهور الجماعات الإسلاميّة المسلّحة في الجزائر ومصر.

فجأة وفي منتصف الطّريق خرج كلب من إحدى الممرّات
وفرق بيني وبين والدي. خفت من الكلب وصرخت ثم ركضت
ابتعدت عن والديّ. كنت أراهم من بعيد بعد هروبي من الكلب
وسط جزع أمّي وجدت طريقا أمامي بشقّه ترامواي قادم من
بعيد. واصلت الهروب هذه المرّة من الكلب ومن الترامواي إلى
الضّفة المقابلة للمحطّة.

فرق الكلب والتّرامواي للحظات بيني وبين والدتي كأنّ
هذه اللّحظات بمثابة سنوات بالنّسبة إليّ. لم أعد أشاهدهما
واختفيت عن أنظارهما. حدّثتني بعدها أمّي أنّها لم تشعر إلا
حياتها بخطر يتهدّدني كما شعرت ذلك اليوم.

حينما كنت في الرقّة بعدها بسنوات كثيرا ما تذكرت
هذه الحادثة. هل كان هذا الكلب الّذي فصلني عن أمّي هو
ذات كلب الدوّلة؟ نعم الدّولة عبارة عن كلب ضالّ يفصل
الأبناء عن الآباء. ولكن أيّ دولة نقصد؟! أدولة الاستقلال
أم الدّولة الإسلاميّة؟

في ذهنك كلتاهما فشلتا في بناء جيل سويّ. شاركت
دولة الاستقلال والدّولة الإسلاميّة في تشريد عائلات وثكل
أمّهات. في الأولى مشروع تحديث هجين خلق كيانات بشرية
مشوّهة وفي الثّانية حلم ماضوي جاء من الكتب الصّفراء
الّتي مازالت تدرّس في مدارس دولة الاستقلال! إنّها الهزيمة.

المهمّ التقيت بوالديّ بعد مرور القطار سريعا واختفاء
الكلب. لا أدري ما الّذي جعل هذه الحادثة تعلق في ذاكرتي
ربّما كشفت لي يومها مدى حبّ أمّي لي ومدى حبّي لها. بخلاف
علاقة الحبّ الكبيرة وتعلّقي الشّديد بأمّي كانت علاقتي بأبي

عاديّة. هو الأب وأنا الابن. نتعايش في كنف الحبّ والاحترام
المتبادل لا أكثر ولا أقلّ.

كان عمري تقريبا أربع سنوات عندما بدأ المرض يفتك
بجسد أبي. واكبت سنواته الأولى مع المرض وأنا في دورتموند.
بسبب المرض الّذي ألمّ به مُنح أبي التّقاعد المبكّر. كان
هذا الأمر وعدم ارتباطه المهنيّ في ألمانيا فرصة لوالديّ من
أجل الرّجوع أكثر إلى تونس. أصبحت عودتنا أكثر تواترا من
ذي قبل. نعود تقريبا كلّ ستّة أشهر إلى مدينتنا نابل.

كان قرار العودة بشكل مستمرّ في البداية ثمّ فيما بعد
قرار العودة النّهائية من ألمانيا إلى تونس. قرار أمّي. ترك أبي
لأمّي حرّية الاختيار وسلّمها زمام تربيتنا. كان كلّ هذا بدافع
حبّه الشّديد لها. كان يحبّها حبّا كبيرا.

لم يكن قرار رجوعنا من ألمانيا لأسباب ماديّة فقد كنّا
نعيش جيّدا بفضل جراية التّقاعد المبكّر الّتي يتمتّع بها
أبي. كان القرار أساسا، مبنيّا على خوف أمّي علينا من
مصير أبناء المهاجرين الّذين تخلّوا عن كلّ تقاليدهم
واندمجوا بشكل كبير في المجتمع الألمانيّ.

كانت أمي متمسّكة بعاداتنا التّونسية والعربيّة وتعتقد
أنّ اختلاطنا بالشّباب الألماني في كبرنا سوف يجرّنا حتما إلى
فساد الأخلاق وضياع الدّين.

بعد سنوات من عودتي وبعد تجربتي التّونسية بين
الإيقاف والسّجن والهجرة الّتي تلتها إلى الدّولة الإسلاميّة
فيما بعد قالت لي أمّي حرفيّا: لو كنت أدري أنّك ستصبح
هكذا لتركتك في ألمانيا! غربة ألمانيا والاندماج فيها أرحم
ألف مرّة من غربة الدّولة الإسلاميّة وكابوسها.

مدينة نابل. كانت هذه المرحلة هي الفترة التي انقطعت فيها
عن زيارة ألمانيا. عادت شقيقتاي مثلي بشكل نهائي من
المهجر. استقرّت كلّ العائلة في تونس.
رغم ذكائي وقدرتي على التلقي والفهم، فإنّ أمورا
جعلني كارها منذ سنواتي الأولى للمدرسة. ربّما كان ذلك
بسبب طبيعتي الّتي تأبى الانضباط والركون في مكان واحد.
كنتُ أزدري الذّهاب إلى المدرسة لغير مبال كبير
بالدّروس الّتي تعطى لنا. لم يكن لي الإقبال الّذي أراه عند
الأطفال يومها على حصص الدّروس بخلاف مادّة واحدة
كنت شغوفا بها وهي مادّة الرياضيات.
في كامل مسيرتي الابتدائيّة والإعداديّة في المدرسة ومن
بعدها المعهد كان لي نبوغ خاصّ في كلّ ما يتعلّق
بالرّياضيات والحساب.
ربّما كان نفوري من المدرسة بسبب ذكرياتي في السّنة
الثّانية ابتدائيّا حينما درست عند "مدام جليلة" وهي
مُدرّسة شديدة الكره لي لأسباب أجهلها إلى اليوم. كانت
هذه المُدرّسة تضربني باستمرار وتأمرني بالبقاء في آخر
مقعد في القسم وتعاملني معاملة سيّئة لا تليق بطفل
صغير في سنّي.
تراجعت نتائجي الدّراسية بشكل ملفت للنّظر في السّنة
الثّانية ابتدائيّا ولم أتدارك أمري إلاّ في السّنة الثالثة. ولكن
تأثير المعاملة السّيئة الّتي تلقّيتها في السّنة الثّانية تواصل
في بقيّة سنواتي الدّراسيّة ممّا جعلني أنفر من الدّراسة
بشكل عامّ.

ما كان يميّز شخصيّتي في تلك السّنوات، وهو الأمر الّذي
يواصل معي في مراهقتي، أنّي كنت طفلا مشاكسا ونشطا
بشكل لافت للنّظر. كنت كثيرا ما أعتدي بالضّرب على
أندادي وأقاربي من البنات والبنين. كانت طبيعتي المشاكسة
سببا في انتصار أمّي دائما لخصومي بشكل دائم. كان
سندي الوحيد في مشاكساتي الدّائمة هو جدّتي. كنت كثيرا
ما ألجأ إليها وكانت كثيرا ما تُناصرني!.
تصرّف أمّي الّتي أحبّها بشكل جنونيّ دفعني في الكثير
من الأحيان إلى كتمان ما يمكن أن يقع لي إذا ما كنت أنا
الضّحيّة في مشاكسة معيّنة.
كنت من نوعيّة الأطفال الّذين يثأرون لأنفسهم ولا
ينتظرون مساعدة أحد. كبرت مع حبّ لا حدود له لأمّي
بالشّكل الّذي إذا ما سافرت فيه إلى ألمانيا تجدني لا
أتوقّف عن البكاء. أبقى ساعات في مدخل بيتنا في انتظار
يوم وصولها المنتظر.
رغم رعاية شقيقتي الكبرى فإنّ لا شيء بالنّسبة إليّ
كان يضاهي حضور أمّي في المنزل. لم يكن حبّي وتعلّقي بأمّي
بشكل جنونيّ قابلا للتّفسير. صحيح كانت تدلّلني ولكنّها لم
تكن تميّزني على شقيقتيّ مثلا. كانت أمّي حازمة معي في
أمور معيّنة لا تبدو ذات أهمّية كبرى بالنّسبة إلى عائلات
أخرى.
ككلّ طفل في مثل عمري، كنت دائم السّؤال لأمّي حول
وجود الله وأين هو؟ ومن أين نحن قادمون؟ وإلى أين نحن
سائرون؟ كنت أسألها عن محمّد وعن الإسلام والقرآن.

كانت أسئلة عادية بالنسبة لطفل بدأ يكتشف الوجود المادي حوله.

كانت أمي تحاول إجابتي عن أسئلتي بالقدر الذي وبحكم أسئلتي الكثيرة كانت ترد علي أحيانا بشيء من الضيق بأني لم أكبر سوف أعرف الكثير من الأشياء التي أجهلها اليوم.

ثم كبرت. وظننت أني عثرت على إجابات لأسئلتي فقطعت آلاف الكيلومترات حافيا عابرا الصحراء الليبية وأدمت كفي الأسلاك الشائكة على حدود تل أبيض. هاجرت إلى الشام من أجل البحث عن معاني الإسلام والقرآن. ظننت أني وصلت وجدتني في نهاية الرحلة أمام سراب دابق.

المهم وفي خصوص أمي وعندما أقوم بشيء يضايقها أو عندما أشاكس أحدا من أبناء الجيران أو أضربه كانت تنهرني وتتوعدني بأن الله سيقوم بإدخالي إلى النار وانه سيحرقني بها وأن الناس بعد الموت سيدخلون الجنة أو النار بحسب أفعالهم وطاعتهم لله.

كانت هذه من أكثر الأشياء التي تخيفني وتدخل في نفسي الرهبة. منذ سنواتي المبكرة في صغري كان الخوف الشديد من النار ومن عقاب الله يتبعني ويتملكني. تطور هذا الأمر فيما بعد إلى تفكير دائم في العذاب والعقاب الأخروي.

لا شيء عندي يضاهي عقاب الله وغضبه لهذا المنبب فإن الأمر المطلوب مني هو رضاؤه الدائم. ربما بسبب هذا الشعور الدائم بمراقبة الله لي وبعذابه الأخروي لم أتجرأ

على فترة شبابي ومراهقتي على ارتكاب ما يعتبر في الدين من المحرمات.

كانت أمي حريصة على صلاتي منذ صغري. لم أنقطع عنها باستثناء فترة قصيرة في السنة الرابعة ابتدائيا، في سن الخامسة تقريبا. كانت الصلاة بالنسبة إلي بمثابة الأمر الذي لا نقاش فيه ولا جدال.

في سنوات مراهقتي كنت وكبقية الأولاد مغرما بالبنات والخروج معهن ولكن هذا لم يمنعني من المحافظة على صلاتي. كنت أعيش بين عالمين.

من بين الحوادث التي بقيت عالقة في ذهني في الفترة التي انقطعت فيها عن صلاتي في السنة الرابعة ابتدائيا هو ملاحظة أمي ذلك. حينها قالت لي جملة بقيت عالقة في ذهني بقية حياتي: "ظننت أن ابني أصبح رجلا!".

كانت هذه الجملة فيما بعد أو هكذا أعتقد، سببا في تمسكي بالصلاة في كل حلي وترحالي ودافعا مهما لي في بقية حياتي. كانت جملة أمي محفزة ومؤلمة لي في الآن ذاته.

في كل ما يتعلق بالعبادات، كانت أمي تأخذني معها مثلا في صلاة التراويح في شهر رمضان وتتركني كعادة كل الأمهات مع الأطفال خلف المصلين. كنت أنتظر هذا الشهر من أجل مصاحبة أمي إلى المسجد. في شهر رمضان كان التونسيون يبدون أكثر إسلاما!.

في هذا الباب بالذات تعتبر عائلتنا عائلة تقليدية محافظة دينيا لا أكثر ولا أقل. عائلة تشبه غالبية عائلات التونسيين في نظرتها إلى الدين والتدين. والحقيقة أنه وبالنظر إلى الفترة الطويلة التي قضاها والداي في المانيا،

كان ترك المجال لحريّة التّصرّف في نطاق الاحترام والتّقاليد هو سمة تعاملنا العائليّ في البيت.

طبعا كان لا يفوتني أن أصلّي الجمعة أحيانا في مسجد الكرمة كبقية الأطفال الّذين هم في سنّي كانوا يتردّدون على المسجد لفترة معيّنة وينقطعون لفترات أخرى.

كان إمام مسجدنا شيخ يلقّب ببوصاع كان مسجد الكرمة هو جامع عائلتنا الموسّعة. كان الإمام بوصاع كبقيّة أئمّة المساجد في زمن بن علي يخطبون في مواضيع تتحدّث عن عيد الشّجرة والاحتفال بالهوم الوطنيّ للبيئة وغيرها من الخطب الّتي يراد منها الابتعاد عن المواضيع السّياسيّة

ولكن رغم خطبه الّتي لا حياة فيها أيّام الجمعة، فقد كان بوصاع يجذبني بخطبه وقصصه الّتي تحكي عن الجهاد. طبعا الجهاد الّذي يتحدّث عنه بوصاع لا يقصد به جهاد الحكّام والطّواغيت ولكنّه جهاد الرّسول وغزواته زمن بعثته. كان الأهمّ بالنّسبة إليّ هو الإستماع إلى قصص الجهاد.

كان بوصاع يعتقد أنّ الجهاد الوحيد الجائز هو الّذي قام به أجدادنا ضدّ المستعمر الفرنسيّ. ويستغلّ الإمام الأعياد الوطنيّة ليتحدّث عن الجهاد الأكبر والّذي مهمّته بناء الوطن. بالنّسبة إليّ كان ما يهمّني هو موضوع الجهاد والموت في الجهاد في سبيل الله كما كنت مغرما بغزوات الرّسول وبطولات الصّحابة الّتي كنت أسمع عنها في شهر رمضان. كانت هذه القصص مصدر إلهام لي وظلّت كذلك وإن تغيّرت دلالتها والمقصود منها فيما بعد.

يهيم الإمام بوصاع للجهاد، كنت أتمنّى أن تسود الفوضى وياتي المستعمر الفرنسيّ من جديد إلى بلادنا وياتي أقيم فيه الجهاد وأحاربه في سبيل الله. كنت أغبط الّذين ولدوا زمن الاحتلال الفرنسيّ فحاربوه وسالت دمائهم في سبيل الله.

ومع اندلاع الانتفاضة الفلسطينيّة الثّانية أو ما عرف بالانتفاضة الأقصى في بدايات سنوات الألفين وكان عمري وقتها عشر سنوات تابعت الظّلم المسلّط على الفلسطينيّين من قبل الاحتلال الإسرائيليّ وتساءلت: "لماذا لا يتدخّل العرب لنصرة الفلسطينيّين؟! ولماذا لا يعلن الجهاد في فلسطين؟!" كنت كلّما شاهدت التّلفاز والمواجهات الّتي يخوضها الفلسطينيّون مع الاحتلال الإسرائيلي على قناة الجزيرة وغيرها من القنوات إلاّ وبصيبني حزن شديد.

كنت من جيل المراهقين الّذين تابعوا الانتفاضة الثّانية وقد أصبحت ذات شعارات إسلاميّة. كان شعار الله أكبر أبرز شعاراتها. كانت الجرائد مثل التّلفزات تضع ضمن أولوياتها المظالم الّتي يتعرّض لها الفلسطينيّون وكنت من بين الّذين وضعوا فلسطين في قلب اهتماماتهم. أصبحت لي رغبة كبيرة للهجرة إلى فلسطين وجهاد اليهود. كنت أمقتهم.

"اليهود" هو المصطلح الأكثر إثارة للإشمئزاز بالنّسبة لجيلي. كنت أعتقد، ويشاركني في هذا الاعتقاد، شباب الحيّ الّذي أسكنه وأصحابي في المدرسة، أنّ اليهود يتحكّمون في هذا العالم وأنّهم لا يريدون خيرا للإسلام والمسلمين ومن واجبنا إبادتهم لآخر فرد فيهم.

كان ما يثير تساؤلاتي هو السّلبيّة الّتي يتعامل به النّظام التّونسي مع ما يجري في فلسطين لم يكن لكني لا عائلتي أيّ اهتمام بالمسائل السّياسيّة لم يكن لها أي موقف مع النّظام أو ضدّه ولم تكن لها أيّ رؤية سياسية كانت آخر سنوات طفولتي وبدايات فترة مراهقتي مشبعة بالحبّ لفلسطين وبقصص جهاد الرّسول وصحابته طبعت ذاكرتي مراهقتي بحبّ الجهاد في فلسطين شُحنت بما فيه الكفاية بوجوب إزالة الظّلم المسلّط على هذه الأمّة. كيف أصبح هذا الجهاد في مكان آخر غير فلسطين فيما بعد؟! تلك قصّة أخرى.

عندما كنتَ في الرقّة قابلتَ مئات الشّباب الّذين كانت لهم نفس هموم مراهقتك. عاشوا مثلك أحزان الفلسطينيّين وكانت لهم الانتفاضات في الأراضي الفلسطينيّة مصدر إلهام وحماسة للقتال والجهاد. كنتم تتحدّثون عن احتلال العراق من قبل الأمريكان وعن إغلاق الحدود دونكم وفلسطين وعن منعكم من الجهاد فيها من وكلاء الصّهيونيّة. كنتم جبل الشّعور بالظّلم والمظلوميّة بلا منازع.

في ظلال القرآن

في فترة مراهقتي وإلى جانب الهمّ الّذي أحمله لفلسطين ولحبّي في الجهاد تولّد عندي همّ آخر. جاء عرضا. وهو رغبتي الشّديدة في حفظ القرآن.

في أحد أيّام شهر رمضان عادت أمّي إلى المنزل مبدية إعجابها الشّديد بتلاوة إمام التّراويح في مسجد الكرمة الّذي تتردّد عليه. كان إمام صلاة التّراويح وقتها شخصا حسن القراءة يُلقّب بالنّوبي. كانت للنّوبي تلاوة جيّدة بنفس طويل لا انقطاع فيه. إلى اليوم، مازالت تلاوة النّوبي تتردّد في أذنيّ. كثيرا ما قلّدت تلاوته حبّا في أمّي.

كان إعجاب أمّي بتلاوة النّوبي يثير الغيرة في نفسي. لا أريد أحدا أن ينال إعجاب أمّي سواي. يجب أن أكون الشّخص الوحيد في هذا العالم الّذي تفضّله أمّي!

عاهدت نفسي وقتها أن أبدأ في حفظ القرآن حتّى أكون الأقرب لأمّي. سأصلّي التّراويح بالنّاس بدل النّوبي يوما ما. هذا ما اعتقدته وقتها فعلا.

المقبوض عليهم. فهمت فيما بعد ومن خلال تعامل رجال
الأمن معهم أنّ لغالبيّة المجموعة سوابق في الإطلاق
لشكوك حول انتماءاتهم الدّينية.
أصابتني رهبة وخوف. أحسست ببرد شديد بسبب
ارتدائي للتبّان الرّياضي القصير ونحن في عزّ الشتاء.
تواصل الصّياح القادم من الغرف الجانبيّة وتواصل معه
الضّرب وسبّ الجلالة والشّتم بينما كان رجال الأمن من
حين إلى آخر يعبرون الرّواق حاملين العصيّ والعتاد
البلاستيكيّة الّتي يستعملونها في الضّرب.
أبقيت جالسا على كنبة في الرّواق الطّويل ومنع رجال
الأمن عليّ إجراء أيّة مكالمة هاتفية من أجل إخبار عائلتي
بما يحصل لي. كنت متأكّدا أنّ أمّي قد أصيبت بالعزع
جرّاء غيابي وعدم الرّدّ على هاتفي. رجوتهم كثيرا مهاتفتها
لطمأنتها دون جدوى.
بدأ التّحقيق معي بأسئلة من قبيل متى بدأت الصّلاة؟
ومن تسمع من الشّيوخ؟ وما هي المساجد الّتي تتردّد عليها؟
كانت أسئلة غريبة بالنّسبة إليّ. فما هو المغزى من بناء
المساجد إذا لم تجعل للصّلاة أجبت أحدهم لينهال علي
شتما.

مرّة أخرى بتّ أعتقد أنّ هناك خللا ما في ما نعيشه
تذكّرت عمليّات الإيقاف والضّرب الّتي تتمّ لأولاد حيّنا
والقبض عليهم من أجل جلساتهم الخمريّة وتذكّرت المقولة
الّتي يرددّها أحدهم: "في هذه البلاد تسكر (تشرب الخمر)
تدخل الحبس (السّجن) وتصلّي تدخل الحبس". بقيت
حائرا حول مكامن الخلل في حياتنا وطريقة عيشنا!

كان الأمر في نظري، مثيرا للاستغراب حتّى لا أقول
مضحكا وأنا أعيش سنوات مراهقتي الأولى. فهمت أنّه من
مصلحتي أن لا أخبرهم بقصّة حفظي للقرآن ولا الجوائز
الّتي تحصّلت عليها ولا المساجد الّتي أتردّد عليها. كما فهمت
أنّ الحديث عن حبّي للجهاد ومشاهدتي لقناة الجزيرة ولما
يجري في فلسطين سوف لن يجلب لي إلاّ مزيدا من
الشّبهات والمشاكل.
على السّاعة العاشرة ليلا تقريبا، انتهى التّحقيق معي.
طلبوا منّي مهاتفة أبي من أجل إعادتي إلى بيتنا وهو نفس
الإجراء الّذي قاموا به مع القاصر الآخر الّذي كان معي.
أخبرتهم بأنّ والدي مريض ولا يقوى على الحركة
فرافقوني إلى غاية باب منزلنا. سلّموني وسط جزع أمّي إلى
العائلة وطلبوا من أبي إحضاري في اليوم التّالي إلى منطقة
الشّرطة.
ليلتها لم تفهم أمّي ما وقع لي وطلبت منّي مكاشفتها بما
قمت به تحديدا. أخبرتها أنّي أنا نفسي لم أفهم سبب
إيقافي. أضفت لها أنّه وقع القبض عليّ لمشاركتي في مباراة
كرة قدم مع ملتحين. صمتت أمّي. لم تستطع لومي وفي
ذات الوقت لم تلم أحدا.
إصطحبني والدي في اليوم التّالي إلى منطقة الشّرطة.
كان لوالدي نفور قديم من الشّرطة والأجهزة الأمنيّة
بشكل عامّ بالنّظر إلى التّضييقات الّتي كان يتعرّض لها
كلّما عاد إلى تونس من ألمانيا في المطار أو في ميناء حلق
الوادي وطلب رجال الدّيوانة والأمن عموما المتكرّد
للرّشاوي.

حرقه أمام آلات التصوير بعجزه وصولهم الى الباب
بالنسبة لهم انتفت الوطنيات هنا.
المهم في الأشهر اللاحقة التي تلت حادثة لملعب نفسيتي كثيرا. شعرت بالضياع. لم أتوان عن العثور للتسهر مع الأصدقاء وتغيير مظهري وهندامي من أجل إيصال رسالة مضمونة الوصول إليهم بأني لست كما يتخيّلون.

كانت أمّي تعي أنّ تغيير بعض عاداتي الغذائية و الشارع كان لرغبة منّي في الحصول على جواز سفري بالتوازي لم أنقطع عن مراجعتي وحفظي للقرآن طوال عالمي السّريّ، عالم لا أظهره إلا لخاصّة الخاصّة واصلت الاستماع إلى الشّيخ خالد الرّاشد ولكنّي كنت أستمع أيضا إلى الرّاب وأغانيه المتمرّدة. كنت أستمع إلى مغنّي الرّاب الجزائري "لطفي دوبل كانون". كان هذا الأخير من بين مغنّين آخرين أغرمت بهم. كنت من المعجبين بهذه الكلمات الاحتجاجيّة الثّوريّة في أغاني الرّاب على الحكّام

كنت منجذبا لروح التّديّن والمعايير الأخلاقيّة والنّبيلة الّتي تسود أغاني بعض مغنّي الرّاب.

كانت أغاني الرّاب في مجملها تعبّر عن تبرّم ونقمة من الوضع السّياسيّ أكثر من كونها تعبّر عن ثورة على القيم الّتي طبعت مجتمعاتنا لقرون. كان "الرّاب" في مجمله تكريسا للقيم الأخلاقيّة السّائدة بعبارات نابية وبعمق جدّ محافظ.

كنت أستمع أيضا إلى مروان الدّويري الّذي يلقب بأمينو الّذي التقيته بعد سنوات في قاعة ألعاب في مدينة

الرّفاة احدوثه يومها وقد أصبحنا صديقين بالّي كنتُ مثله من مشاق الرّاب وكنت أحفظ عن ظهر قلب بعض أغانيه!
كانت السّنوات الّتي تلت حادثة الملعب سنوات ضياع بوصلة بالنّسبة إليّ. فيها واصلت حفظ القرآن وحاولت الحصول على جواز سفري دون جدوى.
كانت رغبتي الوحيدة في تلك الفترة هي الخروج من تونس والرّجوع إلى ألمانيا.
كانت رغبة شبه مستحيلة في تلك الفترة.

عند حلاّق الحيّ!

خريف 2010

كان عزائي الوحيد في هذا الضّيق الشّديد الّذي كنتُ فيه نتيجة منعي من السّفر، هو خروجي متجوّلا على الدّراجات النّارية مع أبناء الحيّ. مَثّل ركوب الدّرّاجات إحدى هواياتي المفضّلة مع صديقي أسامة الّذي كان السّبب في حادثة الملعب الّتي ذكرتها آنفا.

كنتُ أُلقّب في الحيّ الّذي أسكنه بـ"الشّيخ" وهو لقب أطلقوه لي على حداثة سنّي بسبب حفظي للقرآن وامتناعي عن المحرّمات.

كان من بين أبناء حيّي المقرّبين، حلاّق الحيّ وهو نفسه أبو الشّهيد أو رفيق الغول الّذي التقيته في الرقّة فيما بعد، والّذي قُتل في قرية البل في ريف حلب الشّماليّ.

كان رفيق حلاّقا ماهرا يشهد له الجميع ببراعته في مهنته وقدرته على الحلاقة متّبعا آخر صيحات تصفيف الشّعر بين الشّباب. كان يكبرني ببضع سنوات، ابن عائلة محافظة ملتزمة لاقت الكثير من التّتبّعات والمراقبة من الأمن السّياسيّ. كان يروي لي التّضييقات الّتي شملت عائلته والمداهمات الّتي يقومون بها فجرا لمنزلهم.

عمّق لي رفيق فكرة ظلم "الحاكم" وهي العبارة التي تُطلق على رجال الشّرطة عندنا. رسخت في ذهني فكرة أن تكون مُتديّنا هي أن تكون مطاردا في تونس. كان رفيق بسبب عائلته ممنوعا من جواز سفره مثل حالي في ما يخصّ الجانب التّعبّدي عندما أسأله: "لماذا لا تقيم صلاتك والحال أنّك من عائلة مهضومة متديّنة؟"، كان يجيبني كالكثير من الشّباب التّونسي: "ربي يهديني".

أصبح رفيق في تلك الفترة أقرب الأصحاب إلى قلبي عندما عرفته كان غير ملتزم يعيش حياته كغالبيّة الشّباب كان مُحبّا لفلسطين وللشّهادة في سبيلها، لا يتعوّل صعن جهاز تلفزيونه اللاّقط عن قناة الجزيرة وأخبارها، "القناة الوحيدة الّتي بثّت خطابات الشّيخ أسامة بن لادن" يقول رفيق.

كان حلاّق الحيّ يصف بن لادن بـ"الرّجل" أمام حكّام العرب الّذين "باعوا" القضيّة في نظره.

من جهتي لم يكن لي وقتها موقف محدّد من الرّئيس السّعودي الّذي كان رمزا للقاعدة كنت أتبنّى الكثير من آراء النّاس حوله في كونه "صنيعة مخابراتيّة"، و حينا آخر أعتبره "بطلا قوميّا" كما يراه البعض.

كان رفيق لا يتوانى عن سبّ كلّ من ينتقد الفلسطينيّين عامّة وحركة حماس خاصّة. كان يصبّ جام غضبه على اليهود وأعوانهم مقابل حماسه المبالغ فيه لكلّ ما يعتبره قضيّة فلسطينيّة وجهادا وبن لادن.

كان حلاّق الحيّ يُدخّن "الرّطلة" أحيانا في دكّانه ولا يتوانى عن شرب الخمر عندما تسنح الفرصة.

كان دكّان رفيق، أيضا مكانا مناسبا لكلّ شباب الحيّ من أجل انتقاد ممارسات رجال الأمن والتّحسيس بالمظلمة الّتي يعيشها العرب والمسلمون.

كانت كراهيّة رجال الشّرطة في تلك الفترة عُملة رائجة بين شباب حيّنا كما هو الحال في العديد من الأحياء الأخرى. فكلّما مرّت سيارة شرطة أو توقّفت من أجل مضايقة الشّباب وجلساتهم الخمريّة إلاّ ولقيت سخريّة وتهكّما وسبّا بمجرّد مغادرتها للمكان.

نتيجة ملازمتي لرفيق ، تخلّى عن "الرّطلة" والخمر وبدأ في تأدية فرائضه الدّينية. كثر نتيجة ذلك حديثه عن مرتبة الشّهيد وفضائل الشّهادة. تعلّق رفيق بالشّهادة والشّهداء دفعه لأن يختار كنية أبي الشّهيد بمجرّد وصوله إلى الشّام فيما بعد.

كان التّغيير في شخصيّة رفيق غريبا بالنّسبة إلى أولاد الحيّ وهو الّذي كان يسبقهم إلى المُوبقات.

أضحى حلاّق الحيّ بعد التزامه الدّيني صاحبي المفضّل وأصبحت شديد التّعلّق به.

لم نكن ننتمي إلى أيّ تيّار ديني، كان ما يجمعنا هو الصّلاة وحبّ الله وحبّ الجهاد وفلسطين وهي الصّفات الّتي يمكن أن تعثر عليها عند غالبيّة الشّباب التّونسيّين.

كيف تطوّر كلّ هذا إلى رغبة في الهجرة إلى الدّولة الإسلاميّة بعد سنوات من جلساتنا البريئة وقتها؟ سؤال يحتاج إلى الكثير من الكلام ولكن من الأكيد أن تلك الصّفات كانت لنا منطلقات وثوابت في شخصيّتنا حقّا مقتله هو في ريف حلب وهروبي أنا من "الدّولة" فيما بعد.

بحكم التزامه الدّيني تعرّف رفيق لي [illegible] مجموعة من المتديّنين. حدّثني عنهم وعن رغبة أحدهم في الذّهاب وقتها للجهاد في العراق. حدّثني رفيق أيضا عن مضمون مناقشات أصدقائه في المقاهي. كانوا يتحدّثون وقتها عن التّوحيد وشروطه و"الأصول الثّلاثة"[1]. كانت كلّ تلك المصطلحات بالنّسبة لي في ذلك الوقت، مصطلحات غريبة نسبيًا. كنت وقتها لا أعرف لا أصولا ثلاثة ولا أربعة ولا شيء من هذا القبيل.

بتردّده على أصدقائه الجدد تغيّرت الكثير من عبارات رفيق وأصبح أكثر إصرارا على الذّهاب و"الجهاد في سبيل الله" على حدّ تعبيره.

عندما نتحدّث عن المكان الّذي سنختاره للجهاد كانت إجابة رفيق بيّنة. كان يقول لي "نذهب إلى أيّ مكان يوجد فيه مجاهدون".

كنّا نتناقش أحيانا في حكم تارك الصّلاة. وكان رفيق يقول لي دون أن أعيره الكثير من الاهتمام "إنّ تارك الصّلاة كافر". وكنت أردّ عليه بأنّ الشّيخ محمد حسّان يقول "إنّه ليس بكافر". كنّا لا نستقرّ على حال في كلّ ما يتعلّق بالآراء العقائديّة.

مضت يوميّاتي في تلك الفترة بين التّردّد على دكّان أبي الشّهيد لمتابعة آخر الأخبار في فلسطين والمجاهدين، وبين الذّهاب لملاقاة أسامة ورفاقه الّذين أطلق سراحهم بعد أسبوع من الاعتقال لخلوّ ملفّاتهم من أيّة قرينة تثبت تورّطهم في قضايا الإرهاب.

[1] الأصول الثلاثة كتاب لمحمد ابن عبد الوهاب وفيه يفسّر معنى الألوهيّة ومعنى الرّسول ومعاني الدّين

أطلق سراحهم طبعا، بعد أن أخذوا حصّتهم من التّعذيب والتّعنيف.

كنّا نخرج بالدّرّاجات النّاريّة وكنّا نُباهي بها. ما يعكّر صفوها، هو بطبيعة الحال، إيقافنا من الحاكم (الشّرطة). لا تكتفي الشّرطة بإيقافنا والتّنبّت في هوياتنا ولكنّها تعمدُ في أحيان كثيرة إلى حجز الدّرّاجات النّارية مع ما يستتبعه ذلك من إجراءات إداريّة ودفع لمعاليم ضريبة قرارات الحجز.

كانت رؤية رجل أمن بالنّسبة إليّ بمثابة "رؤية شيطان" يمشي على قدميه. تراكم كرهي لهم منذ حادثة الملعب. أصبحت لا أطيقهم.

في الأثناء لم أتوقّف عن مطالبتي بجواز سفري. معلنا في كلّ مرّة لرجال الأمن في المركز أنّي قد انقطعت عن أداء الصّلاة دون جدوى.

كنت أشعر أنّي مواطن بلا حقوق رغم حداثة سنّي. كلّما اختليت إلى نفسي كان يستبدّ بي شعور بكوني في سجن كبير.

يزداد ضيقي وإحساسي بالضّيم، كلّما عُدْتُ من مركز الشّرطة خائبا دون جواز سفري. ضاقت بي البلاد.

لم ينقشع هذا الضّيق والقلق والإحساس بالضّيم إلاّ عندما جاءت الثّورة. وجاء معها فاصل من الحرّيّة الّتي لم أتذوّق طعمها من قبل.

شاركتُ في الثّورة

جانفي 2011

وصلت الثّورة إلى مدينة نابل وخرج الشّباب إلى ما يعرف "بساحة البرتقالات". كنت من بين الشّباب الّذين خرجوا مع كلّ أبناء الحيّ ليصبّوا جام غضبهم على رجال الأمن. أطلق رفيق على ما يجري من ثورة بكونه "جهادا ضدّ الظّلم". لم أعر للتّسمية أهمّيّة وانخرطتُ بكلّ جهدي في كلّ المواجهات الّتي وقعت في المدينة. كانت فرصة للثّأر لنفسي ولردّ الإعتبار لما لحقني من إهانات طوال السّنوات الماضية.

انطلقت الثّورة من مدينة القصرين يوم 17 ديسمبر 2010 لتشمل بعدها بقية المدن التّونسيّة. قدّمت ولاية نابل سبعة شهداء من جملة 219 شهيدا سقطوا أيّام الثّورة من ضمنهم 78 سقطوا في الاضطرابات الّتي عمّت السّجون

في الأيّام الأولى للثّورة التقيت لأوّل مرّة بمحمّد الزّين (أبو دجانة) في جامع الأنصار بدار شعبان الفهري. يومها جلب انتباهي بشجاعته وتحدّيه للسّلطات عندما دعا الشّباب إلى رفض غلق المسجد بين أوقات الصّلاة. تحوّل لقائي العابر به

إلى صداقة متينة قبل أن نهاجر بعد الثورة بعام واحد إلى الشام أين قتل من قبل أمنيّي الدّولة الإسلاميّة بتهمة الغلو.

كنت من بين المشاركين مع أبناء الحيّ في الصّفوف الأولى في الثّورة ضدّ نظام بن علي. كانت الحجارة والتكبير وقذف رجال الأمن بأبشع النّعوت طريقتي في التّعبير عن غضبي الّذي كثيرا ما كتمته.

هاقد جاء موعد الحساب. لم يمنعني لا صوت الرّصاص ولا القنابل المسيلة للدموع. لم أتراجع. هذه فرصتي حتى أولد من جديد. كان الأمر كذلك ولو إلى حين.

حمل أبو دجانة أحد الجرحى وكان رفيق الغول يعترضنا ويصف من يسقطون قتلى بالشّهداء. "علمنا في ساحة البرتقالات بأنّ من يموت اليوم فهو شهيد".

شارك في هذه الثّورة متساكنو الأحياء الفقيرة في نابل وانتهبت العديد من المحلاّت التّجارية الكبرى. كان شباب حيّنا في الصّفوف الأولى. اختلطت التّكبيرات مع العبارات النّابية من أفواه بعض الشّباب وهم يرمون الحجارة على رجال الأمن.

هرب بن علي عشيّة 14 جانفي 2011. شعرت أنّي تحرّرت نهائيّا. تملّكتني سعادة لا توصف. خرجنا بعدها في لجان حماية الأحياء الّتي كوّنت في أكثر من مدينة لحراسة المساكن والمؤسّسات ومطاردة بقايا عصابات النّظام السّابق الّتي أرادت تعميم الفوضى في البلاد.

كنت أقوم بجولة بين المجموعات في محيط شوارعنا. لم يكن احتساء البعض من أبناء الحيّ في تلك الأيّام للخمر في جلسات الحراسة يقلقني أو يثير حفيظتي. كنت شديد

القرب منهم وكانوا يكنّون لي كلّ الحبّ والاحترام. كانت ليالي

حماسة.

في الأشهر الأولى للثّورة، أتذكّر أنّي انخرطت في مجهود الإغاثة لمنكوبي الجهاديّ بالخيام الخيريّة الّتي انتصبت في بنغردان من أجل مساعدة اللاّجئين القادمين من ليبيا.

في تلك الأيّام أثيرت ما سمّي آنذاك "بإمارة بن قردان السّلفيّة" من قبل بعض الفنّانين الّذين زاروا المخيّم[1] ووقع منعهم من القيام بأيّ نشاط من عناصرنا المتواجدة بمخيّم. بعدها بأيّام وتحديدا يوم 7 أفريل 2011 أصدرت الإدارة الأهليّة لحماية الثّورة ببنقردان والّتي تتكوّن من فعاليّات إسلاميّة وقوميّة ويساريّة بيانا تكذّب فيه الفنّانين الّذين قالوا إنّهم تعرّضوا إلى مضايقات!.

كانت الخيام الّتي أقمناها والنّشاط الدّعوي الّذي قمنا به في تلك الفترة مثيرا للانتباه. كان ذلك بمثابة أوّل استعراض قوّة حقيقيّ لنا. تواجد في هذا المخيّم العشرات من الجهاديّين من مختلف الأجيال: مقاتلون قدامى في أفغانستان والعراق وأجيال أخرى تبنّت "المنهج" ما بعد الثّورة.

منذ الأيّام الأولى للثّورة اتّجهت إلى منطقة الأمن. دخلت مسلّسا وطلبت جواز سفري. انتظرته حوالي ثلاث سنوات دون جدوى. هذه المرّة سلّموا لي وثيقة الخضراء في مدّة زمنيّة لم تتجاوز الرّبع ساعة مع حسن الضّيافة وكرم الاستقبال!

أخيرا حصلت على جواز سفري غير أنّ هناك أمرا قد تغيّر. لقد انتشت فكرة الهجرة إلى ألمانيا تقريبا عن ذهني، على الأقلّ إلى حين.

[1] مقال بعنوان "سلفيّون يحمون الفنّانين" جريدة الشّروق 27 مارس 2011

صحيح أني في تلك الفترة كنت أفكر في المستقبل
حياتي المادية المريحة في نابل والعزلة التي أصبحت أعيشها
مع الإخوة جعلتني أرى أن مكاني الطبيعي هو هناك
كنت في تلك الفترة كثير التنقل بين المدن والقرى
والدتي عن رحلاتي المكوكية. كنت أقنعها بأني داهمت
القوافل الخيرية من أجل اللاجئين والفقراء والمساكين
كان شعور جديد يمكنني شعور بالعزة منذ الأيام الأولى
التي تلت نجاح الثورة أطلقت لحيتي وأطلت شعري الذي
كان مصدر فخر لي. اليوم أصبحت حرا أفعل ما أشاء
أعشق الشعر الطويل. تواصل معي هذا العوام في أيام
الرقة في الشام حيث صبغت شعري وأطلقته مثل كل
المقاتلين. كان الشعر الطويل إحدى سمات مقاتلي النخبة
فضلا عن كونه من سنة الرسول.

بدأ الأشخاص الذين تعرف عليهم رفيق الحول في
الظهور. فكان أن تعرفت على أبي ذر وهو أيمن مشماش
ويعرف أيضا بـ "أيمن بوشطيبة" وتوطدت علاقتي به
تأثرت كثيرا بأيمن. كان هادئا ومثقفا. طالبا جامعيا في
المدرسة التحضيرية في أحد الاختصاصات العلمية. أعجبت
به وأصبح مثالا يحتذى به بالنسبة إلي. ربما تجاوز إعجابي
به كل الذين عرفتهم قبله.

في تلك الفترة، كنا نعيش على وقع كتابة مشاريع
المستقبل القادمين من الجزيرة العربية الذين جاؤوا
بالعشرات من أجل إلقاء محاضرات ودروس في المساجد
التي أصبحت مفتوحة على الدوام.

كان أول درس حضرته في تلك الأيام للشيخ البشير بن
محمد حمد المحاضرة وفيها جمهور غفير في الجامع الكبير
بنابل شهر رمضان المبارك. لم أكن أعرف الشخص وقتها وعلمت
فيما بعد أنه من شيوخ "المداخلة" وهو المصطلح الذي
يطلق على "المتلفعة العلمية" والتي كانت لي مع أتباعها
صولات وجولات في نابل.

لم أرتد بعدها في تحريض أبناء حيي على المداخلة. لم
يفهم الكثير منهم معنى المداخلة ولكنهم فهموا أنهم لا يلتزمون
حذفة بالشريعة. لم يكن الأمر يتعلق بالنسبة لأبناء حيي
بمجرد كره للمداخلة. فقد كان الأمر حبا وتقديرا لي!

بدأت أتابع الدروس في كل المساجد تقريبا. تعرفت في
تلك الفترة على الشيخ الخطيب الإدريسي. أصبح شيخي بلا
منازع أتابعه في كل تنقلاته وكل دروسه التي يلقيها. كان أول
درس حضرته للإدريسي بالجامع الكبير في مدينة سوسة ثم
حضرت له درسا آخر بجامع سيدي عاشور بمدينة نابل.

منذ ذلك الحين، أصبحت متابعا وفيا لدروس
الإدريسي. كما قمت بزيارته عديد المرات في بيته في سيدي
علي بنعون بولاية سيدي بوزيد وسط البلاد.

قطعت آلاف الكيلومترات من أجل دروس الإدريسي
توطدت علاقتي به أكثر وأصبحت علاقة شخصية بفضل
أيمن مشماش الذي كان من المترددين عليه باستمرار.

كان أبو ذر سببا في أن نكون من المقربين من الشيخ
سيدي علي بنعون وفيها كنا نستفيد في كل كبيرة وصغيرة
كان الشيخ الضرير وفيها مرجعا لي ومثلي الأعلى.

الجهاديّون يحبّون أيضا!

أخفى هذا الأمر عن أمّه الّتي كان يُخبرها بكلّ شيء تقريبا. مضت السّنون دون أن يبوح لها بسرّه. اقتنع في تلك الأيّام بأنّه آن الأوان ليخبرها بمن يحبّ. منذ الأشهر الأولى للثّورة اقتنع أنّ ما كان ينقصه هو أن يتزوّج.

الزّوجة جاهزة وتنتظر. فتاة عرفها منذ حداثة سنّه. إنّها زوجته الّتي سترافقه في محنته طوال السّنوات اللاّحقة.

حبيبته الّتي أصبحت فيما بعد زوجته هي المرأة الّتي أحبّ والّتي يُحبّ والّتي ستبقى أغلى النّاس عنده بعد أمّه.

هي الطّفلة الصّغيرة الّتي كبر معها وكبرت معه. طوال ربع قرن من حياته بقيت وحدها قرّة قلبه ومحبوبته على الدّوام. ربّما إذا قرأت هذه الكلمات يوما، هي وحدها ستعلم صدق هذه الكلمات .

أحبّها قبل التزامه وقبل هجرته وبعد هجرته للدّولة وسيبقى يُحبّها ما بقي في قلبه عرق ينبض أو هكذا كان يردّد دائما.

تعرّف عليها ذات يوم من أيّام طفولته. كان يكبرها بخمس سنوات. هي من أقارب عائلته الكبيرة. عندما بدأ يعي الحياة من حوله كان ينظر إليها ويردّد في سريرته ما

أجمل هذه الفتاة كان متيقنا أنها ستكون زوجته المقبلة
كان المقربون منه فقط من أصدقائه يعلمون عن من
أسكن قلبه. كانت هي تبادله نفس المشاعر ولم تخف ذلك
يتذكر أنه كان في مقتبل طفولته يركب دراجة هوائية
كانت تأتي حيها إلى دار جدّتها القريبة من منزله. تنظر إليه
ببراءة و يبادلها نفس النّظرة كانت تخاف عليه السّقوط
من الدّراجة الهوائيّة و يطمئنها بأنّه لن يسقط
لم يسقط من الدّراجة الهوائيّة. سقط في هواها إلى
الأبد.

كان ينتظر قدومها إلى دار جدّتها في ذلك الوقت
ليجالسها ويلعب معها.
ذات صيف، على شاطئ مدينة نابل صارحها بحبّه لم
تتردّد في البوح له بأنّها تحبّه أيضا. يومها ذهبا إلى الشّاطئ
رفقة عائلته وأفراد من عائلتها جاؤوا لزيارة جدّتها. كانت
الرّحلات الجماعيّة بين العائلات إلى الشّاطئ عادة متّبعة
بين الجيران عندما ترتفع درجات الحرارة. المهمّ بقي هذا
اليوم عالقا في ذاكرتهما. على شاطئ بحر نابل كاشفها بحبّه
لها وكاشفته بحبّها له.

من يوم مصارحة الشّاطئ، أصبحت رفيقته في كلّ
مجالسه والمقاهي المختلطة الّتي يتردّد عليها.
لا يمرّ يوم دون أن يلتقيها أو دون أن يهاتفها ليقول لها
كلاما جميلا ككلّ الكلام الّذي يقوله حبيب لحبيبته. كانا
يقضيان كلّ ساعات راحته وساعات راحتها الدّراسيّة
سويّا. كانا ثنائيّا لا يفترق.

ما فرق وفتيا بينهما في تلك الفترة هي مرحلة التّحوّل
الّتي عاشتها في مراهقته. تلتها فيما بعد حادثة الملعب وما
بعدها من رغبته الجامحة في الخروج من تونس.
ثمّ جاءت الثّورة. اندمج هو في النّشاط مع السّلفيّين
وبيوتاتهم وفواتيهم الخيريّة ودروسهم في المساجد. أدّت به
مشاغله وحادثة لا يتذكّر تفاصيلها لأن يفترقا لعدّة أشهر.
كانت عزيزة النّفس مثله. قال لها بعد عودة الوصال
بينهما: أن نعم يريد زوجته المستقبليّة أن تكون عزيزة
النّفس ولكن ليس معه! عادت علاقتهما بعدها أقوى ممّا
كانت عليه من قبل.

في فترة جفائهما الأخير، كان يمرّ من حين إلى آخر أمام
المعهد الّذي كانت تدرس فيه. كان يتعمّد المرور من ذلك
الطّريق رغم أنّه ليس طريقه المعتاد ليطمئنّ أنّها بخير.
كان يُمرّ كثيرا لرؤيتها من بعيد وهي عائدة إلى منزلها
دون أن تلاحظ اقتفاءه أثرها.

في الأشهر الأولى للثّورة، بعث لها برسالة دعابة من
هاتفه بعد جفاء طويل. ادّعت في البداية أنّها لم تعرف
المرسل. ثمّ ردّت برسالة تقول فيها إنّها لا ترغب في الحديث
معه. أجابها بأنّها ستكون الخاسرة! فردّت مداعبة بأن
بتوقّف عن استفزازها. فهم أنّها كانت تنتظر رسالته. هاتفها
وتواعدا. ركب سيّارته وذهب للقائها. توجّها إلى شاطئ نابل
أين باح لها بحبّه لها أوّل مرّة.
بعد هذا اللّقاء قاما بجرد لحسابهما القديم وطويا فترة
جفائهما وجعلا من فترة القطيعة نسيا منسيا. بدأ يخطّطان
لحياتهما المستقبليّة وما سيفعلانه. تتهيا في ذات الوقت إلى

أنّ المرحلة القادمة قد تكون الأصعب في علاقتهما طلب منها
أن تكون مستعدّة لأيّ محنة جديدة
بعد هذا اللّقاء بأيّام ارتدت هي الحجاب رغم معارضة
عائلتها. كانت مستعدّة لأن تُعادي العالم كلّه من أجله لهذا
السّبب ليّنت رغبته في أن ترتدي الحجاب في مرحلة أولى
قبل أن ترتدي النّقاب في وقت لاحق.
بعد أن اتّفقا حول تفاصيل زواجهما المرتقب، أخبرته
بالأمر ورغبته في الزّواج بها. صُدمت والدته. كيف له أن
يخفي عنها هذه العلاقة مع فتاة كلّ هذه السّنوات؟
في البداية رفضت أمّه أن تخطبها له لأنّها تعتقد أنّ
عائلتها لا تلائمهم. ولكن بعد إلحاحه لم تجد من بدّ إلاّ
القبول. أقنعها بأنّه تربّى مع هذه الفتاة وكبرت معه وأحبّها
وتحبّه ولن يقبل أن يتزوّج سواها ولا أن تتزوّج هي غيره.
بعد قبول أمّه بمبدأ خطبته للفتاة، أرسل أخته
للحديث مع والدتها. رفضت أمّها الأمر بدعوى أنّ ابنتها
مازالت تدرس ولا تريد الزّواج. طبعا كلام أمّ الفتاة كان
مجرّد رفض من جانب العائلة دون البنت.
أرسل أخته مرّة ثانية إلى أهل الفتاة ولكنّ الأمّ تمسّكت
بقرار الرّفض لأنّ الفتاة مازالت تدرس. طلب من حبيبته أن
تغادر مقاعد الدّراسة من أجل قطع كلّ اعتراض من جانب
والدتها.
رغم انقطاعها عن الدّراسة فإنّ عائلتها واصلت رفضها
تزويجه ابنتهم ومضت الأمّ إلى ترويج العديد من الأقاويل
حول مستقبله المهنيّ وكونه عاطلا عن العمل ولا يستطيع

إعالة عائلة هذا فضلا عن مشاكله مع الأمن بوصفه
ناشطا في التيار اليساري.
كان عمره آنذاك في حدود الإثنين وعشرين عاما وكانت
حبيبته المالكة معتبرة بالنّظر إلى مستوى عائلته الاجتماعيّ
تملك هذا فضلا عن كونه كان الابن الوحيد في العائلة.
تملك سيّارة ومنزلا.
قام بمحاولات أخرى مع أشقّاء الفتاة من أجل إقناعهم
بأنّهم كانوا عاجزين عن فعل أيّ شيء أمام سلطة الأمّ
الرّافضة لتزويج ابنتها.
بعد أن استنفد كلّ الوسائل، وفي خطوة ليّ ذراع مع
عائلتها، اتّفق مع حبيبته على عقد قرانه معها بطريقة
قانونيّة وبحضور شاهدين.
وضع كلّ عائلتها أمام الأمر المقضيّ. أصيبوا بالصّدمة
ولكن انتهى بهم الأمر في النّهاية إلى الخضوع لقرارهما.
مراعاة للمسائل الاجتماعية وبشكل وقتيّ قرّر إعادة
زوجته إلى دار أهلها حتّى توفّر الظّروف النّفسيّة لهم من
أجل القبول بعيشهما تحت سقف واحد. أبقى على صيغة
العقد القانونيّ بينهما وأعاد زوجته إلى بيت أهلها.
تسارعت الأحداث فيما بعد، تمكّن هو من الهروب
بالبلاد والالتحاق بالشّام. لم ينتظر كثيرا. رتّب لها موعد
خروجها من البلاد بطريقة سرّيّة إلاّ أنّ الأمن تمكّن من
القبض عليها وأودعها السّجن. كان يتابع أخبارها من الرّقة.
علم فيما بعد أنّها أودعت سجن النّساء بمنّوبة
بالعاصمة تونس. أجبرتها الضّغوطات الّتي ثورست عليها
من قبل عائلتها على تطليقه.

علم أيضا أنّ عائلتها قطعت جميع سبل تواصلها مع
عالمها الخارجيّ حتّى لا تصله عنها أيّة معلومة
كانت معركته مع عائلة زوجته تتمّ بالتّوازي مع معركته
الّتي كان يخوضها في البلاد كعنصر في التّيار السّلفي
الجهاديّ.
في تلك الفترة كان شاهدا تقريبا مع شباب التّيار على
كلّ المواجهات الّتي عاشتها البلاد.

شوكة النّكاية

سبتمبر 2012- أوت 2014

كنّا شاركنا تقريبا في كلّ التّظاهرات الّتي ينظّمها التّيار الجهاديّ في تونس. صحيح أنّ المجموعة الّتي ألزمها لم تكن تتحرّك تحت عنوان أنصار الشّريعة، كنّا محسوبين على الشّيخ الخطيب الإدريسي ولكنّنا شاركنا في كلّ التّظاهرات الّتي كان ينظّمها الجهاديّون.

شاركنا كمجموعة تابعة للخطيب في مظاهرات الفيلم المسيء للذّات الإلهيّة والّذي بثّته قناة نسمة[1] كما شاركنا في العديد من الأحداث الأخرى.

وقع إيقافي العديد من المرّات من قبل عناصر الأمن طيلة هاته الفترة وأصبحت من العناصر الأكثر نشاطا بالنّسبة للأجهزة الأمنيّة في جهتي. تنالت عمليّات إيقافي ولكنّها إيقافات لا تدوم في أغلبها غير ساعات.

جاءت أحداث السّفارة الأمريكيّة[1] وسافرت رفقة أصحابي من نابل إلى تونس العاصمة للمشاركة في هذه التّظاهرات.

[1] فيلم "برسيبوليس" على قناة نسمة الخاصة في أكتوبر 2011

عندما وصلنا إلى العاصمة كانت الجموع قد وصلت إلى
السفارة الأمريكية. كانت أرتال المعركة التي يقودها أنصار
الشّار متشابهة تقريبا أحذية رياضية وقمصان سوداء ومن
عسكرتة. كنتُ من ضمن هذه الجموع بكي العسكرة
ممشوط الشّعر مكتملا عيني
عندما وصلت إلى السّفارة كانت الأحداث قد بدأت بعد
واختلط رشق الحجارة بصوت الرّصاص علمتُ فيما بعد
وبعد تجربتي المسلّحة في الشام أنّ الأمر كان يتعلّق
برصاص فارغ.
سقط ثلاثة قتلى وجرح حوالي الثلاثين في هذه
الأحداث. وقعت عمليّات كرّ وفرّ مع رجال الأمن. طبعا لم
يشارك في هذه الأحداث التيار السّلفي فقط ولكن كان
هناك خليط من شباب الإخوان مع شباب الأحياء الشعبية
الّذين ليست لهم أيّ علاقة بالدّين.
في أحداث السّفارة التقيت بمحمد البحثي. كنت
حسبما أتذكّر تلك هي المرّة الأخيرة التي التقي به.
سمعت في خضمّ المواجهات في تلك الفترة، أنّ أمرا من
أبي عياض التّونسي جاء ليُعلن الانسحاب من المواجهات.
طبعا لم تكُن في دوائر أبي عياض التّونسي، ولا تأتمرُ بأوامره
ولكن بحكم أنّ شباب أنصار الشّريعة كانوا الغالبيّة في
المواجهات فقد انسحبنا من جملة الشّباب الّذين انسحبوا.
مشاركتنا إلى جانب شباب أنصار الشّريعة في المواجهات
وقتها لم تكن تعني موافقة أبي عياض ولا قيادته للتّيار.

متظاهرون إسلاميون يهاجمون السّفارة الأمريكية في مدينة المنيحة بالعاصمة تونس يوم 14 سبتمبر 2012
بعد إذاعة فيلم مسيء "براءة المسلمين" أعقبه بعض المتظاهرين سببا للرّسول.

لم تكن علاقاتنا جيدة كمجموعة مع جماعة أنصار
الشّريعة وقتها تشكّك وقلّتنا لأبي عياض بحكم قربنا من
التّيار الإسلامي هنا فضلا عن تبرّئه لأشباب مصلحيّة
من أحداث الجامع الكبير بتابل عندما قمنا بإنزال الإمام
الذي أحدث انباهنا وسط أعمال عنف شهدها الجامع.
كانت حادثة السّفارة الأمريكيّة وكما هو معروف بحرق
علم الولايات المتّحدة واقتحام السّفارة وحرق العديد من
سياراتها وبعض مكاتبها الجانبيّة.
كان في قلبي وقتها بعض من الرّيبة من هذه الأحداث.
كنت أطرح السّؤال وأنا منهمك في رمي الحجارة: هل أموت
شهيدا إذا متّ في مثل هذه الأحداث؟! لم يكن لي يقين
حول ما يجري كان في قلبي شبهة.
بعد أحداث السّفارة الأمريكيّة جاءت عمليّة مقتل
شكري بلعيد صبيحة 6 فيفري 2013. كنت وقتها طريح
الفراش بسبب عمليّة جراحيّة على اللّوزتين نزل خبر مقتل
شكري بلعيد كالمفاجأة بالنّسبة إلى العديد من أنصار التّيار
العباديّ الّذين لم يكن لهم أيّ علم بما وقع تحديدا.
جاءنا وقتها أمر بالنّزول إلى الشّوارع وحماية المؤسّسات
الحكوميّة من أيّة عمليّات تقع ضدّها من قبل أنصار
اليسار التّونسيّ. كان تنظيم أنصار الشّريعة طبعا هو الّذي
جيّش مناصريه وبالتّالي إنخرطنا نحن كسلفيّين في
منطقتنا في هذه العمليّة.
خرجنا في منطقتنا برتل كامل رافعون رايات العُقاب
ومسلّحين بالهراوات والأسلحة البيضاء والشّوم. قمنا
بدوريّات جابت مختلف المناطق الحسّاسة من المدينة من

ورجاءات من المهاجرين الحاضرين معي بتبليغ رسائل لأصدقائهم المقيمين في الرقّة بأنّهم موجودين في المضافة ويودّون التّواصل معهم.

كان دخولي المضافة ليلا وكان خروجي منها نهارا. عانقت أصحابي واحدا واحدا. كانوا فرحين بوصولي مكبّرين ومحمدلين بنجاحي في الوصول إلى أراضي الدّولة. خاطبني مالك الختم الأزرق، بشيء من الفرح الممزوج بالفذلكة بلهجة تونسيّة ساخرة قائلا "هيّا الحمد لله على سلامتك".

كان أمرا عجيبا ومبهرا بالنّسبة لي وأنا أتجوّل خارج المضافة حيث ينتشر مقاتلو الدّولة في شوارع تلّ أبيض بأزيائهم السّوداء في الغالب وأسلحتهم الرّشّاشة.

غادرنا منطقة المضافة وركبنا سيّارة رباعيّة الدّفع في اتّجاه الرقّة. أمطرني أصحابي بالأسئلة حول تونس والأيّام الأخيرة فيها. كانوا مسرورين بحضوري وكنت أجيب ببهجة وفرح كبير بوجودي بينهم. ناولوني ساندويتش. لم أتناوله. لم تكن لي شهيّة للأكل. كانت شهيّتي في شيء آخر تماما: حمل السّلاح. ناولوني قارورة "بيبسي كولا" كثيرا ما قاطعتها ككلّ المشروبات الغازيّة الأمريكيّة الصّنع مثل الكوكا كولا وغيرها قبل وصولي إلى الدّولة.

شربت البيبسي كولا على نخب وصولي إلى الدّولة الإسلاميّة فيما كانت السّيارة رباعيّة الدّفع تلتهم الطّريق التهاما مغادرة تلّ أبيض في اتّجاه ما يعدّه العالم عاصمة دولة الخلافة الإسلاميّة: الرقّة.

أيّام الرّقّة

جانفي 2015

قبل وصولنا إلى الرقّة ببضعة كيلومترات، ومن شدّة دهشتي لرؤية السّلاح الّذي يحمله أصحابي في السّيارة، لم يتردّد أحدهم في أن يقترح عليّ القيام بحصّة رمي رصاص قبل الدّخول إلى المدينة. رحّبت بالفكرة.

توقّفت بنا السّيارة في مدخل الرّقّة حيث انتصبت أطلال سجن المدينة الشّهير. دخلنا باحته وأمدّني أحدهم بكلاشنكوف. كان شعورا لا يُضاهى وأنا أقوم بعمليّات الرّمي. سبق لي قبل وصولي إلى الدّولة أن أمسكت بالسّلاح ولكن هذه هي المرّة الأولى الّتي أرمي فيها رصاصا من كلاشنكوف. كان في الأمر متعة خاصّة وإحساس بالقوّة والفخر.

قبل خروجنا التقط لي أحد أصحابي صورة نزّلتها سريعا على صفحتي على الفايسبوك. كان صدى الصّورة الّتي نزلت كبيرا في تونس من قبل أصحابي لحقتها ردود فعل عنيفة من رجال الأمن تجاه عائلتي.

تابعنا طريقنا إلى الرقّة. بوصولنا تملكني فرح مهيب لقد وصلت إلى عاصمة الخلافة الإسلاميّة. مرّت بذهني كلّ تردّدات إسم الرّقّة في وسائل الإعلام العالميّة. كيف أصبحت هذه المدينة الرّيفيّة السّوريّة المجهولة الّتي تربض على ضفّة نهر الفرات حديث العالم. كان إسم الرقّة يثير ذُعر كلّ الحكومات الأوروبيّة. ها إنّي اليوم في الرقّة لم أصدّق نفسي. ظننتني في حلم لم أستفق منه إلاّ على صوت أصحابي بجانبي في السّيارة. تابعت رؤية المشاهد من شبّاك السّيارة. كانت النّساء بالنّقاب في كلّ مكان فيما انتشر جنود الدّولة في مفترق الطّرق. تعرفهم من خلال أسلحتهم الّتي يحملونها على أكتافهم فيما يتدلّى عادة شعر رؤوسهم على الكتفين مطلقين لحيّهم ومرتدين الأزياء العسكريّة ذات الطّابع الأفغاني الشّهير.

كانت رايات العُقاب السّوداء ترفرف في كلّ ركن وفي كلّ مفترق طريق. الرّايات وما أدراك ما الرّايات الّتي ينشرح صدري لرؤيتها. أتذكّر أنّي زيّنت جدران غرفتي كلّها في تونس بالرّايات. كانت مملكتي الخاصّة ومعزلي عن العالم من حولي.

نزلت قرب دُوار السّاعة في الرقّة. كان هناك راية كبيرة جدّا تعلو المكان يمكن مشاهدتها على بعد كيلومترات من المدينة. راية دُوّار السّاعة مشهورة جدًّا في إصدارات الدّولة.

لم تخلُ بعض الأماكن في شوارع الرقّة من بعض البنايات الّتي قُصفت من قبل الطّيران. رغم بعض الدّمار

المنتشر في المدينة فإنّ ذلك لم ينقص من نظرتي الاحتفاليّة بوجودي أو هكذا خيّل إليّ.

قبل العودة إلى منزل أحد أصحابي قمنا بجولة بدُوّار النّعيم حيث خرجت أولى الصّور للاحتفال بتأسيس الدّولة وصور أخرى فيما بعد مرقّعة لتعليق رؤوس جنود الفرقة 17 من الجيش السّوري بعد سيطرة الدّولة على مقرّاتهم في شهر جويلية من سنة 2014. تحوّل هذا الدُّوّار فيما بعد ميدانا لتطبيق الحدود كلّ يوم جمعة.

قمنا كذلك بجولة في شارع تلّ أبيض، الشّارع الرّئيسيّ في الرقّة. يمتدّ هذا الشّارع من دُوّار الدلة إلى دُوّار السّاعة وتتوزّع على جانبيه المحلاّت التّجاريّة والمطاعم المعروفة في المدينة.

رافقت صاحبي إلى منزله في شارع التّكنة حيث أمدّني بقميص أفغاني عسكريّ وكلاش وقال لي هذه لك حتّى تُرتّب وضعك الجديد.

خرجنا قبل المغرب إلى شوارع الرقّة وقمت بجولة بين منازل عدد من أصحابي الّذين يعرفونني أو الّذين سمعوا بي قبل وصولي. كان السّلاح الفرديّ ميزة لمقاتلي الدّولة في المدن الّتي يسيطرون عليها. كان لكلّ مقاتل سلاحه الفرديّ يُسَلَّمُ إليه من مخازن التّسليح، في العادة يكون كلاش وقد يكون سلاحا آخر متطوّرا بحسب قدرته على الشّراء من دكاكين السّلاح إذا ما تيسّر له ذلك.

من بين الأصدقاء الّذين أعرفهم، كانت مكانة صاحبي رفيق الغول والمكنى "أبو الشّهيد" لا تضاهى. لهذا السّبب حرصت على زيارته منذ اليوم الأوّل لوصولي. مَنَعَتْ رفيق

إصابته بأحدى قدميه في معركة كوباني[1] الّتي أسمتها الدّولة بعين الإسلام، من القدوم إليّ لاستقبالي.

لم أتابع جولتي كاملة بين مقاهي الرقّة الّتي يتردّد عليها عدد كبير من التّونسة. بين التّونسة والمقاهي علاقة عشق تاريخيّة لم تنقطع بوصولهم إلى تنظيم الدّولة! اتّجهت رفقة أحد الأصحاب لزيارة رفيق في بيته فكان اللّقاء خاصّا وحميميّا كما توقّعت. كان أبو الشّهيد أكبر منّي سنّا وكان يعتبرني بمثابة شقيقه الأصغر.

أتذكّر أنّي كنت مع أبي الشّهيد ومع محمّد الزّين الّذي يُلقّب بأبي دجانة ثلاثيّا لا يفترق في مدينة نابل حيث التقينا. لم أتردّد في السّؤال عن أحوال أبي دجانة فردّ الإخوة أنّه في سجن الدّولة!

لم أفهم معنى أن يكون أبو دجانة وقتها في سجن الدّولة الإسلاميّة. هل فرّ من تونس لتضمّه سجون دولة الخلافة؟ كان الأمر بالنّسبة إليّ لغزا محيّرا ولم أجد له أيّة إجابة شافية من أيّ من التّونسيّين الّذين التقيتهم في الرقّة. كان ردّ الإخوة على تساؤلاتي أنّ قليلا من الصّبر سيُمكّنك من التّكشّف على أشياء ربّما نحن أنفسنا نجهلها!

بقي مصير أبي دجانة وقتها مجهولا بالنّسبة إليّ إلى غاية الأيّام الأخيرة لمغادرتي أراضي الدّولة.

إضافة إلى لغز مصير محمّد الزّين، لم يعكّر فرحتي في الأيّام الأولى لوصولي إلى الرقّة إلاّ تغيّر طباع بعض

[1] كوباني تسمى أيضا عين العرب : تمكّنت قوّات حماية الشّعب الكرديّة في نهاية جانفي من سنة 2015 من تحريرها من تنظيم الدّولة بعد قتال دام حوالي 112 يوما.

الأشخاص الّذين عرفتهم في تونس من قبل. قليلون هم الأشخاص الّذين بقوا على طبائعهم وأخلاقهم الّتي عرفتهم بها ساد الكبر والجشع العديد ممّن عرفتهم من قبل. ربّما غرّتهم قوّتهم وأسلحتهم وبعض الأموال الّتي اكتسبوها.

في الرقّة التقيت بالتّونسي أبي بكر الحكيم[1]، الّذي يعدّ أحد القيادات الأمنيّة المعتبرة في الدّولة. واشتهر أبو بكر الحكيم بالإصدار الّذي ظهر فيه والّذي أعلن فيه تبنّيه لعمليّة قتل اليساريّ التّونسيّ شكري بلعيد قبل خروجه من تونس.

اعتلى أبوبكر الحكيم العديد من المراتب في تنظيم الدّولة ووصل إلى نيابة أبي محمّد العداناني في كتيبة لواء الصّديق والّتي تعتبر أحد أبرز الكتائب في الأراضي الّتي تسيطر عليها الدّولة. كما اشتغل الحكيم لفترة معيّنة كمشرف على التّدريب في هذا اللّواء.

كان لقائي بأبي بكر الحكيم في مناسبتين تقريبا وكان الغرض منهما إمكانيّة تدخّل الحكيم في نقل أحد أصحابي التّونسيّين إلى ليبيا وتحديدا إلى مدينة سرت الّتي تسيطر عليها الدّولة الإسلاميّة آنذاك[2]. وَعد الحكيم ببذل مجهود في هذا الشّأن بعد التّأكّد من خبرة المهاجر القتاليّة على حدّ قوله قبل إرساله. ما بقي في ذاكرتي من شخصيّة الحكيم هو شدّة اعتداده بنفسه وغروره الملحوظ بما جعله محلّ انتقاد التّونسيين في الرقّة.

[1] أبوبكر الحكيم يعمل العلنيّة المزدوجة التونسيّة الفرنسيّة. أعلن مقتله يوم 26 نوفمبر 2016 في الرقّة بواسطة طائرة أمريكيّة دون طيار.

[2] سرت تسيطر عليها تنظيم الدّولة منذ فيفري 2015 ضمن ما تسميه بولاية طرابلس. تمكّنت قوّات البنيان المرصوص التي تتبع المجلس الرئاسي لطرابلس من تحرير المدينة في ديسمبر 2016.

المدينة علمنا فيما بعد أنّها غارات على مقرّ الفرقة 17 التي
سيطرت عليها الدّولة في شهر رمضان من العام الذي سبق
وصولي إلى الشّام.

على صوت أزيز الطّائرات الّتي تطير بشكل منخفض
جدّا كان بالإمكان سماع أصوات القنابل المتهاطلة على
نقاط معيّنة في المدينة. تأقلم سكّان الرقّة كما المقاتلون مع
قصف الطّيران بحيث عوّضوا شبابيك بيوتهم ومحلاتهم في
الغالب بقطع البلاستيك بدل البلّور الذي يمكن أن يتحوّل
إلى شظايا قاتلة بفعل اختراق الطّيران لحاجز الصّوت.

كانت ليلة وصولي إلى الرقّة ليلة قصف متواصل سخر
أحد أصدقائي ضاحكا: "أعتقد أنّهم جاؤوا لاستقبالك".

رغم القصف المتواصل نمت جيّدا في ليلتي الأولى بالرقّة
فحيّيتُ بعضا من ليلتي بين المواقع الاجتماعيّة. نشرت
صوري منذ دخولي إلى أراضي الدّولة. كانت منشوراتي تلقى
رواجا كبيرا بين أصحابي الّذين مازالوا في تونس. كان شعورا
بالنّصر والفخر يتملّكني.

مضت الأيّام الأولى سريعة في الرقّة. كنت أقضي معظم
وقتي بين أصدقائي الّذين بعمل جلّهم إداريّين بين
الدّواوين.

كان السّؤال الملحّ الّذي انتابه طوال أيّامي الأولى هو
ضرورة الالتحاق بالدّورتين الشّرعيّة والعسكريّة المفروضتين
على كلّ مهاجر أو مقاتل جديد يلتحق بالدّولة كنت أعتقد
أنّي لست في حاجة لهما.

انتهى ضغط أصحابي بقبولي الدّخول للدّورتين. لم يكن
هناك مفرّ من هذا الأمر.

ما لفت انتباهي طوال الأيّام الأولى في الرقّة أنّ الدّولة
لم تكن حريصة على ضمّ أيّ من شباب الرقّة إليها بشكل
قسريّ. كان جنودها يتكوّنون بشكل شبه كامل من
المهاجرين والأنصار الّذين يحملون فكر الدّولة. أثار هذا
الأمر حفيظتي. كيف لآلاف المهاجرين القادمين من الأصقاع
الأربعة من أرض الله الواسعة أن يحرسوا مدينة ويؤمّنوها
في لامبالاة من أهلها وسكّانها وكأنّ الأمر لا يعنيهم؟!

كانت الدّولة تكتفي بالتّحريض في المساجد أو في
النّقاط الإعلاميّة أو عبر إصداراتها دون أن تلزم أحدا من
سكّان الرقّة أوغيرها من المدن الّتي تسيطر عليها على
الانضمام إلى صفوفها. كانت تطرحني إلى كلّ هؤلاء حيثما أتيتُ
أمام عوامّ المسلمين ويجب أن أراف بهم.

من المهمّ القول إنّه لم تكن لي علاقات بأيّ من سكّان
أهل الرقّة. كان محيطي يتوقّف على بعض الأصحاب
التّونسة فحسب، وحتّى من بين التّونسة الّذين أختلط
بهم اقتصرت صداقاتي في المطلق الأعمّ على أصحابي
القدامى الّذين عرفتهم في تونس قبل وصولنا إلى الدّولة.

ما يميّز التّونسة في الدّولة أنّهم الأقلّ انضباطا
لقوانينها وإكراهاتها. كانوا دولة داخل الدّولة. مثّل آثار هذا
حفيظة العديد من قياداتها السّورية والعراقيّة المفارقة
أنّهم كانوا الأكثر إقبالا على المعارك وفي الصّفوف الأولى
حينما يعلن النّفير ويُجيّشُ للغزوات.

هذه الطّبيعة الجانحة للتّونسة دفعت الدّولة إلى اتّباع
سياسة تفريقهم كلّما كان الأمر متيسّرا حتّى لا يظلّوا
مجتمعين في مراكز إداريّة أو سكنيّة أو تعبّديّة من قبيل

مسجد الفردوس الّذي حاصره الأمنيّون ذات مرّة لاعتقال كلّ المهاجرين الّذين لا يملكون وثائق الهويّة الّتي اعتمدتها الدّولة.

انتهى بي الأمر بالقبول بالدّخول إلى الدّورة الشّرعيّة أو"المعسكر الشّرعيّ" في أحد منازل الرقّة بقيادة أحد القوانسة وبحضور عدد كبير من الأعاجم من جميع أنحاء أسيا الوسطى يرافقهم مترجم.

في هذه الدّورة لقّنونا دروسا في التّوحيد وشروطه ومسائل أخرى في الإيمان والتّكفير وقتال المرتدّين والطّائفة الممتنعة. طوال الدّورة الشّرعيّة الّتي دامت أسبوعين لم أكن منتبها. كنت شاردا. كنت لا أرى فائدة من هذه الدّورة لأنّي عالم بشروط التّوحيد ولا حاجة لي ببقيّة التّفاصيل كُنّا نُمنع من الخروج من مقرّ الدّورة. ولكنّ أصحابي كانوا يأتون لإخراجي بتعلّات شتّى. كانوا حريصين على رفع الضّيق عنّي. كانوا يعلمون أنّي لا أتحمّل الحصار في مكان واحد لمدّة طويلة.

في نهاية الدّورة الشّرعيّة أمتُحِنّا في المسائل العقائديّة كشروط التّوحيد والفقهيّة من قبيل كيفيّة الوضوء في حالة الإصابة في الحرب وغيرها.

لم تكن المسائل الفقهيّة ولا العقائديّة ذات أهمّيّة بالغة بالنّسبة إليّ طوال الدّورة الشّرعيّة. ما كان يشغل بالي هو موعد انتهاء الدّورة والعودة إلى أصدقائي في الرقّة.

لم تخلُ جلسات الدّورة الشّرعيّة من نقاشات فقهيّة كثيرة بين الشّباب الحاضرين وخاصّة في مسألة تكفير بعض علماء السّلفيّة من قبيل ابن باز والعثيمين... أتذكّر

جدال أحد التّونسيّين الحاضرين مع أوزبكي من الّذين تمدرسوا في العربيّة السّعوديّة حول مسألة تكفير علماء السّلفيّة. كان النّقاش حادّا بينهما. ولكن لم تكن مثل هذه النّقاشات لتلهث انتباهي وقتها. كان همّي هو مغادرة الدّورة الشّرعيّة في أقرب وقت.

انتهت الدّولة الشّرعيّة بأدائنا لقسم البيعة بصفة جماعيّة. دخلنا بعدها مباشرة في الدّورة العسكريّة الّتي وقع تنظيمها في معمل الغاز في الرقّة.

كان معمل الغاز المهجور من الأماكن المستهدفة باستمرار من قبل الطّيران. لذلك فإنّ التّدريب كان يتمّ في أحد قاعاته الكبرى تدرّبنا في هذه القاعة على استعمال الأسلحة وتفكيكها بمختلف أنواعها من الكلاشات والمسدّسات والبيكا والبيكيمي والأربيجي.. كنت أكثر إقبالا على الدّورة العسكريّة من نظيرتها الشّرعيّة الّتي كانت ثقيلة على نفسي. ما زاد من إقبالي هو خبرتي الّتي اكتسبتها قبل دخولي إلى الدّورة بالتّدرّب على التّفكيك والتّركيب على كلاشات أصحابي في منازلهم.

كان أمير المعسكر يختار الوقت الملائم للخروج والتّدرّب على الرّمي في ساحة المعمل عندما يتأكّد من غياب الطّائرات دون طيّار (الدرون) الّتي لا تغادر في العادة سماء الرقّة.

من حسن حظّنا أنّنا لم نتعرّض لأيّ قصف طوال أيّام الدّورة العسكريّة. كنّا وقتها في آخر معركة كوباني، حينما كان بعض القادة الأمنيّين يتردّدون على المعسكر ويطرحون علينا إمكانيّة "التّنفيذ" وهو المصطلح الّذي نُعبّر به عن القيام بالعمليّات الانتحاريّة.

بطبيعة الحال لم أكن معنيًا بحكاية التّنفيذ لربما الّتي ذكرتها سالفا تجاه العمليّات الانتحاريّة. ولكن بالمقابل لم أمانع في الذّهاب إلى كوباني كمقاتل. تمّ الأمر على هذا النّحو ونقلوا من كان يرغب منّا في القتال إلى مضافة في الرقّة في انتظار نقلنا إلى أرض المعركة.

بمجرّد أن علم أحد الأمراء التّونسيّين من أصحاب بخبر استعدادي للذّهاب إلى كوباني قدم على وجه السّرعة إلى المضافة وأمرني بصرامة بالعودة إلى المعسكر لأسباب أجهلها.

يومها خاطبني على انفراد في المضافة قائلا لي بلهجة تونسيّة: "تي شْبِيكْ مادِذْ وجْهِكْ لِلرّيحْ وِينْ مَاشِي باخي؟! امّا تْمَاشْ كوباني!". وهي الجمل الّتي لم أفهم مغزاها إلاّ في وقت لاحق.

كانت كوباني أيّامها عبارة عن محرقة جماعيّة للمهاجرين حيث خسرت الدّولة فيها حوالي أربعة آلاف عنصر من خيرة جنودها بحسب إحصائيّات غير معلنة داخل الدّولة.

عدتُ إلى الدّورة العسكريّة الّتي لم تخلُ أيّامها من حوادث من قبيل الحادثة الّتي أصيب فيها مدرّبنا السّوريّ على وجه الخطأ من قبل مهاجر جزائريّ. يومها أصاب المهاجر الجزائريّ المدرّب برصاصة مسدّس حُمل على إثرها هذا الأخير إلى مشفى الرقّة حيث تمّ علاجه.

مرّتْ أيّام المعسكر جميلة في مجملها تعرّفت خلالها على مهاجرين جدد غير أنّها كانت أيضا مكانا أشعرني لأسباب أجهلها بالوحدة والغربة. ربّما كنت يومها محتاجا إلى سند معنويّ لم أجده مضى على وصولي إلى الرقّة

حوالي شهرين حينما عادت بي الذّاكرة إلى هناك، إلى نابل، إلى أمّي. كان شوق الفراق وحزن كبير يعتريني كلّما خلوت إلى نفسي.

بعد نهاية كلّ حصّة تدريبيّة تقريبا، كنتُ أجلس وحدي في ركن قصيّ بين الأشجار الّتي تقع في طرف معمل الغاز. كنتُ أبكي وحدي بحرقة كما لم أبْكِ من قبل!

لماذا أنا هنا؟! ومن أبعدني ولماذا أُبعدت عن أمّي؟! كانت أوقات عصيبة بالنّسبة إليّ.

نعم وصلتُ إلى الرقّة، وصلتُ إلى ما كنت أتمنّى فعلا وهو الوصول إلى الدّولة غير أنّ هناك شيئا أكبر افتقدته: أمّي الّتي لن يملأ مكانتها بعد الله سبحانه أحد. كانت خواطري ترحل إلى أمّي. شعرت وقتها أنّي لن أراها مرّة أخرى وهي أغلى الكائنات إلى نفسي! شعرت وقتها أنّي خسرت أمّي. شعرت أنّي ضائع دونها.

هكذا كانت فرحة وصولي إلى الرقّة تنقلب إلى حزن في اللّحظات الّتي أتذكّر فيها أمّي. مع أمّي تتحوّل الرقّة إلى شيء آخر تماما، تتحوّل إلى مدينة خاوية على عروشها. تتحوّل إلى غربة لا تساويها غربة. غربة في الدّولة الإسلاميّة الّتي كثيرا ما حلمت بالوصول إليها.

بعد حوالي شهر ونصف من انطلاقتها، انهت الدّورة العسكريّة بمنح كلّ واحد منّا مائتيْ دولار. هذا فضلا عن الخمسين دولارا الدّائمة الّتي تمثّل المرتّب الشّهري وهذا طبعا إضافة إلى كفالة الملبس والمأكل والّتي يساوي مبلغها قيمة الرّاتب تقريبا.

أدّى تهاوني في بعض فترات الدّورة الشّرعيّة وغيرا
من المعسكر أحيانا رفقة أصحابي إلى جلب انتباه بعض
الإداريّين الرّافضين لمسألة الخروج من المعسكر. كان
نتائج كلّ ذلك أن وقع إلحاقي بغير إرادتي كمقاتل في كتي
سيف الدّولة".

وتعدّ كتيبة سيف الدّولة واحدة من عدّة كتائب جي
الخلافة من قبيل الكتيبة الخضراء وكتيبة اليرموك وكتي
القادسيّة... وهي كتائب مقاتلة تتكوّن في غالبيّتها من المهاجري
بخلاف جيوش الولايات كالرقّة وحلب والموصل والّتي تتشكّ
في الغالب من سكّان هذه الولايات.

وتضمّ كتيبة سيف الدّولة الّتي قادها لفترات معيّنة أ
يحي العراقي ثمّ أبو عمر الشّامي فيما بعد، حوالي مائتي
عنصر مقاتل من أفضل كتائب الدّولة الإسلاميّة وكانت
مهابة من قبل كلّ القوّات المعادية وكانت محلّ اهتما
شديد من مجلس شورى الدّولة الّذي يوفّر لها كلّ ما
تطلبه من عتاد وتسليح وإمكانيّات.

ولمن يعرف الكتائب فإنّها تُقسّم أثناء القتال إلى سرايا
تتكوّن عادة من إثني عشر شخصا ينقسمون بين اقتحاميّين
مشاة وجنود مسؤولين عن الثّقيل وسرايا إسناد. ويمكن
للمقاتل في كتيبة سيف الدّولة أن ينتقل بين جميع السّرايا
بشكل سلس.

لم أكن ضدّ الالتحاق بكتيبة سيف الدّولة الّتي تعدّ
من قوات النّخبة في جيش الخلافة، أي القوّة العسكريّة في
الدّولة. ولكن رغبتي كانت في البقاء مع أصحابي في الرقّة أو

الاستقرار في الرقّة والانطلاق منها للقتال. التحاقي بكتيبة
سيف الدّولة كان يعني بالضّرورة مفارقتي لأصحابي.

تهاونت في البداية في الالتحاق بكتيبة سيف الدّولة.
لازمت مرافقة أصحابي وكانت فرصة لي لزيارة العديد من
المدن الأخرى الّتي تسيطر عليها الدّولة بفضل أعمالهم في
الإدارات والدّواوين. في إحدى رحلاتهم العديدة رافقتهم إلى
مدينة الموصل العراقية.

كانت لي رغبة كبيرة في زيارة الموصل والّتي تُعدّ من
أهمّ المدن الّتي تسيطر عليها الدّولة في العراق والّتي ألقى
فيها البغدادي خطبته الوحيدة في الجامع الكبير.

غادرنا الرقّة بعد صلاة الفجر على شاحنة احتوت على
واجهة حاويتها صورة إشهارية لأحد أنواع الحلويّات.

ضمّت الشّاحنة بين مقاعدها نخبة مدرّبي الدّولة من
العسكريّين.

كانت رحلة رائقة وكان الغرض منها بالنّسبة لأصحابي
هو تركيز المعسكرات وإقامة دورات التّدريب هناك.

وصلنا الموصل من طريق سنجار. في مدخل الموصل
استقبلتنا لافتة كبيرة: مرحبا بكم في الدّولة الإسلاميّة:
ولاية نينوى.

عاشِقُ السَبِيّة

في الموصل عشت مع أصحابي أجمل أوقاتي حيث أقمت في نزل نينوى الّذي أطلقتْ عليه الدّولة تسمية نزل الوارثين. دخلت بيوتا لا يُوحي مظهرها الخارجيّ بأيّ ثراء فيما تتفاجأ عندما تخطو خطواتك داخلها بحجم رغد العيش الّذي كان يتمتّع به ساكنوها القدامى.

كانت هذه المنازل التي أُلحقت بعقارات الدّولة الإسلاميّة والّتي سُلّمت للمهاجرين والمقاتلين أو تلك الّتي ألحقت بإدارة المضافات، مَمْلوكة لضبّاط ومحامين وأثرياء الموصل ممّن كانت لهم علاقة بالحكومة العراقيّة قبل سقوطها بيد الدّولة.

ونشطت إدارة عقّارات الدّولة مباشرة بعد سقوط الموصل بيد تنظيم الدّولة يوم 10 جوان 2014، حيث استحوذت على مساكن الشّيعة كما استولت على بيوت المسيحيّين وكتبت حرف النّون الشّهير على جدرانها وهو الإجراء الّذي مَهّد فيما بعد إلى تهجيرهم من المدينة.

كانت زيارة الموصل بمثابة فترة نقاهة بالنّسبة إليّ بعد تجربة الدّورتين الشّرعيّة والعسكريّة. لفت انتباهي كثرة الإعلانات الدّعوية داخل المدينة. إعلانات دعويّة لإقامة

الصّلاة وأخرى موجّهة للنّساء تطالبهنّ بالخضو
النّقاب وثالثة تنفّر من التّدخين وتعدّه من المحرّ
انتشرت في العديد من مفترقات الطّرق النّقاط
الإعلاميّة والّتي كانت تبثّ إصدارات الدّولة وخطاباتها
على خلاف الرّقّة وبقيّة المدن السّوريّة الّتي
عليها الدّولة، كان نوع من التّساهل يسود ارتداء النّ
الموصل وكانت عيون الفتيات والنّساء في أحوال
واضحة للعيان.

في علاقة بالنّساء بالذّات، ومن الطّرائف الّتي
في رحلتي إلى الموصل، هو قيام أحد أصحابي من الجز
القادم معي من الرّقّة على شراء هدايا إلى سيّدة
يمتلكها. لم يخجل الجزراوي بالقول لنا إنّه يهدي
سبيّته" الإيزيديّة[1] الّتي تعود أصولها إلى بلدة زمار في منط
سنجار.

تتداول الكثير من حكايات السّبايا وشاربهم قصص
سوء معاملة وقصص أخرى غريبة من قبيل السّبيّة الّتي
عشقت من اشتراها ورجّته بالله أن لا يعاود بيعها إلى أحد
كان تنظيم الدّولة قبل عام من وصولي وبعد احتلا
لمنطقة سنجار قد قام بسبي المئات من نساء المدينة من
الإيزيديّات وتوزيعهنّ على مقاتليه ممّن شاركوا في غزوة
سنجار تحت عنوان الغنائم. وقام ديوان الغنائم والفيء
من جانبه ببيع خُمُس السّبايا اللاّتي كنّ من نصيب الدّولة
إلى بقيّة المقاتلين. بلغ ثمن السّبيّة من صغار السّن إلى

[1] الايزيديون أقلية دينية تسكن شمال العراق. يبلغ تعداد الايزيديين حوالي نصف مليون شخص يتمركزون أساسا في منطقة سنجار وشيخان شمال الموصل وتعرضت الأقلية الايزيدية إلى 73 مذبحة إبادة في تاريخها كانت آخرها المذبحة التي قام بها تنظيم الدّولة

حوالي اثنى عشر ألف دولار. ارتفعت أسعار السّبايا إلى
اثمان خياليّة في الرّقّة والموصل.

تمكّنت العديد من الإيزيديّات ممّن وقع سبيهنّ من
الفرار واخرجن للعالم أولى قصص السّبي وسوء المعاملة
والاغتصابات الّتي تعرّضن لها.

واعترف تنظيم الدّولة بسبيه الإيزيديّات في العدد الرّابع من
مجلّة دابق الّذي صدر في شهر أكتوبر من سنة 2014 في مقال
بعنوان "إعادة إحياء العبوديّة قبل قيام السّاعة"[1].

وفي الحقيقة ورغم بعض الإقبال على السّبايا
الإيزيديّات وخاصّة من قبل الجزراويّة المعروفين بثرائهم،
فإنّ قضيّة النّساء والزّواج لم تكن تمثّل مشكلة لجنود
الدّولة ومهاجريها.

ففي كلّ مدينة تسيطر عليها الدّولة، كان هناك مضافة
تسمّى بـ"مضافة المهاجرات" وهي نوع من المضافات
المخصّصة للفتيات العازبات اللاّتي يصلن إلى الدّولة. في
هذه المضافة تُمنع المهاجرة من الخروج بشكل كلّي تقريبا
إلى غاية التّمكّن من العثور لها عن زوج.

طبعا ينظّم لقاء بين الزّوجين المفترضين وإذا قبلت
المهاجرة بالزّواج فإنّها تتمكّن من الخروج نهائيّا.

كان الزّواج هو الأفق الوحيد للخروج من المضافة
بالنّسبة للمهاجرات الجديدات العازبات. حكايات كثيرة
تروي حول هُروب بعضهنّ من هذه المضافات الّتي هي
عبارة عن سجون ناعمة.

[1] مقال مجلة دابق العدد الرابع (القومة ... 2014) THE REVIVAL OF SLAVERY BEFORE THE HOUR

أصبحتُ أتردّدُ على مقرّات الكتيبة في الرقّة
إحساس الغربة لم يفارقني. كان من الصعب الا
مجموعات المهاجرين المشكّلة للكتيبة.

تسعى الدّولة لإدماج المهاجرين من كافة
مع بعضهم البعض ويميلون هم إلى التكتّل
انتماءاتهم الجغرافيّة واللّغويّة كالأعاجم الذين
كتيبة اليرموك. كنت أتحيّن الفرص للخروج والعود
حلقات أصحابي في منازلهم.

جاء أوّل أمر لنا بالتحرك. أخبرونا أنّنا سنتّجه إلى العراق
في نقل المقاتلين على دفعات في اتّجاه شرق الرقّة أخبرونا أ
سنخوض غزوة كبرى في العراق دون أن يوضّحوا لنا لا لكن
الزّمان الرّحلة إلى العراق مكّنني من الاختلاط بالمقاتلين كلّ
طباع وعادات مختلفة.

خرجنا من الرقّة مُتّجهين نحو مدينة القائم عبر مدينة
دير الزّور والبوكمال. وقع تفريقنا على العديد من المضافات
نزلت بمضافة كان فيها العديد من أمراء السّرايا وبعض
القيادات. كان التكبّر والتّجهّم سمتهم جميعا تقريبا. في إحدى
الجلسات داخل المضافة سألت أحدهم بكلّ عفوية عن
عمره وخاصّة أنّه يبدو كبيرا في السّنّ. ردّ بصلف: "يقول ابن
القيّم إنّه من خوارم المروءة أن تسأل شخصا عن عمره"!
كان الأمر بمثابة الإهانة لي. صمتّ، تنحيّت جانبا. كان هذا
السّلوك الفظّ سمة بارزة في العديد من أمراء الدّولة.

خرجت من هذه المضافة والتجأت إلى مضافة أخرى
غالبيّتها شباب. كانت الأجواء أفضل في المضافة الثّانية.
بقيت بضعة أيّام فيها قبل أن يأتي أمر بنقلنا إلى مدينة
هيت استعدادا للاتّجاه فيما بعد إلى مدينة حديثة من
أجل اقتحامها.

كان الطّريق بين مدينتي القائم وهيت طويلا وصحراويّا
ومُطلّا بالنّظر إلى كثافة الطّيران في هذه المنطقة والتي تعدّ
معسكرنا منطقة مكشوفة.

كان التّنقّل بين القائم وهيت يتمّ بسيّارات كبيرة
الحجم تخرج من المدينة في أوقات متباعدة مخافة قصف
الطّيران وتضمّ كلّ واحدة منها حوالي إثني عشر مقاتلا. كما
كان الطّريق مؤمّنا بالانتشار العديد من التّجّار ورعاة الغنم
الذين ينتشرون على قارعة الطّريق. كانوا في الحقيقة
عناصر أمنيّة تابعة للدّولة مهمّتهم الأساسيّة الإبلاغ وتأمين
الطّريق.

عند وصولنا إلى هيت، وقع تفريقنا على العديد من
المضافات. كانت مشاعر متناقضة بين الخوف والرّجاء
تعتريني. كنت أريد القتال غير أنّ هناك شيئا في نفسي
يمنعني. كان عزائي أن أسأل الشّباب الذين سبقوني في
خوض المعارك، عن معنى أن تكون في المعركة وأن يروُوا لي
بعض تفاصيلها. كانت أيّ معلومة عن المعارك وكيفيّة
خوضها مهمّة لي لأنّي سأخوض أوّل معركة لي في الدّولة.

كانت معركة مدينة حديثة المعركة الأهمّ في تلك الفترة
بالنّسبة إلى الدّولة. فقد فشلت كلّ محاولات اقتحام
المدينة من قبل جيش الخلافة بكتائبه المختلفة.

مثّلت مدينة حديثة وقتها عقدة الدّولة مقا دفع بأبي
محمّد العدناني النّاطق الرّسمي باسم تنظيم الدّولة إلى
إنزال إصدار صوتيّ ذكر فيه حديثة بالاسم وتوعّد قبيلة

الجغابة التي تعتبر القبيلة الأهمّ التي دافعت عن حدود المدينة بيد الدّولة.

قال العدناني وقتها مقولته الشّهيرة متوعّدا هذه القبيلة "ستسقط "حديثة" لا محالة وحينها سيندمون حين سيكون انتقاما حتّى إذا مرّت النّاس بديارهم سيقولون كان هنا جغابة!"[1]

قُبيل اتّجاهنا إلى "حديثة" بساعات جاء أمر من أمير كتيبة سيف الدّولة بإلغاء الغزوة والعودة فورا إلى الشّام لأمر أهمّ!

أخبرونا أنّ هناك غزوة كبرى ستقع في الشّام ويجب على كلّ أفراد الكتيبة العودة من حيث أتوا.

غمرني ارتياح كامل. أخيرا سأعود إلى الشّام وسأعود لأصحابي في الرقّة.

في ظرف يومين، وعلى دفعات وقع إعادتنا على وجه السّرعة إلى الشّام عبر بوّابة القائم ومنها إلى البوكمال ودير الزّور.

[1] كلمة مسوّلة من إنتاج مؤسسة الفرقان لأبي محمد العدناني بتاريخ 23 جوان 2015 مسوّلها "يا قومنا أجيبوا داعي الله"

الزّانية الهاربة

عدت إلى الرقّة التقيت بأصحابي
تجمعنا لقاءات جميلة لا تتناوى فيها
الأصابع بشكل متواتر. فقد كان صيـ
من العوام، وكان لا يتردّد في جلب ال
المنتشرين في ريف الرقّة، كلّما فكّ
أيدينا على هذه الوتيرة. نفترق
وشوارع الرقّة ونلتقي فيها ليلا.

نخوض أثناء سمرنا في موا
تتعجّب حكايات القتل والتّنكـ
كفّارا كان التّقدير غير المُعلن
مقاتل تقاس بما شهده من
يديه من دماء!

تعت غطاء تجنّب الرّ
والتّنكيل تمرّ ضمن المسكـ
مقدّمة المعارك كما كانو
التي تُنفّذ

الزّانية الهاربة

مارس 2015

عُدت إلى الرقّة. التقيت بأصحابي مرّة أخرى. كانت نجمعنا لقاءات جميلة لا نتناوى فيها عن الاحتفال بذبح الأضاحي بشكل متواتر. فقد كان صديقي أبو شهيد قريبا من العوامّ، وكان لا يتردّد في جلب الأضاحي لنا من العوامّ المنتشرين في ريف الرقّة. كُلّما فكّرنا في السّمر. مضت أيّامنا على هذه الوتيرة. نفترق فيها نهارا بين الدّواوين وشوارع الرقّة ونلتقي فيها ليلا.

نخوض أثناء سمرنا في مواضيع عدّة. كنّا عادة ما نتجنّب حكايات القتل والتّنكيل بمن نعتبرهم مرتدّين كفّارا. كان التّقدير غير المُعلن بين المقاتلين أنّ قيمة أيّ مقاتل تقاس بما شهده من معارك وغزوات وما تمرّغت به يديه من دماء!

تحت غطاء تَجنّب الرّياء كانت حكايات الحروب والدّمّ والتّنكيل تَمرُّ ضمن المسكوت عنه بيننا. كان التّونسيّون في

كانت القاعدة تقول إنّ من يمسك أسيرا قلّ الفصائل الإجهاز عليه. كثيرة هي المعارك الّتي شهدوها. ربّما كانت معركة السّيطرة على مطار الطبقة العسكري في أوت 2014 أبرزها. مجزرة الطبقة وما أدراك ما مجزرة الطبقة. بوم قُتل أزيد من مائتين من جنود النّظام السّوريّ بدم بارد وتحت التّهليلات والتّكبيرات! كان التّونسيّون الأكثر عددا بين القتلة في هذه الواقعة.

حدثت هذه المجزرة قبل هجرتي إلى الرقّة بعام واحد. يومها أقتيد العشرات من جنود النّظام السّوريّ في طابور عراة حفاة ليلقوا حتفهم بعد أن صُفّفُوا رفودا وأُطلق الرّصاص على رؤوسهم من خلف! لم نكُن نتحدّث في كلّ هذا. كان هذا قانون الحرب الّتي جئنا بالآلاف للمشاركة فيها. إذا لم تَقْتُلْ تُقْتَلْ.

اللّيلة تُسامر من انغمسَ في دماء الرّعب الغامقة واختنقَ برائحة البارود ومشى على بقايا الأشلاء الآدمية المتناثرة. سيكون لك غدا موعد مع ماكينة الدّمّ هذا الأفضل لك أن تسامر وتستذكر براءة طفولتك ومشاكسات مراهقتك.

المهمّ كانت أحاديث أخرى غير قتلى المعارك تستهويني. وعلى الرّغم من هذه الأجواء الهادئة الّتي كنت أعيشها وقتها، فقد بقيت ذكرى محمّد الزّين أو أبي دجانة التّونسيّ تؤرّقني. وقتها كان محمّد الزّين معتقلا في أحد سجون الدّولة في الرقّة لأسباب مجهولة. كان أبو دجانة من الجيل الأوّل الّذي ساهم في تأسيس النّواة الأولى للتّنظيم في الشّام قبل إعلان الخلافة رسميّا في رمضان من سنة 2014. كان غموض غريب يلفّ مصيره. كلّما سألت عن لغز اختفائه جُوبهت بالصّمت. الأغرب هو التّعتيم الّذي تمارسه بعض القيادات التّونسيّة. ظلّ سبب اعتقال محمّد الزّين بالنّسبة إليّ مثيرا للرّيبة وباعثا لعدّة أسئلة وشُبهات.

وفي الحقيقة فإنّ اعتقال أبي دجانة التّونسي لم يكن الأوّل من نوعه من بين الاعتقالات الّتي وقعت في الدّولة. زاد من أسئلتي وريبتي الصّمت المطبق الّذي يُراد له أن يسود حول أيّة حالة اختفاء أو اعتقال لعناصر الدّولة. كان الأمر يتوازى مع رفض مطلق لأيّ انتقاد تصل في أحيان كثيرة إلى صبغة تعظيميّة كالّتي يتعامل بها أمراء الدّولة ومقاتلها مع الخليفة أبي بكر البغدادي. صحيح أنّي أقدّر البغدادي وأعتبره قائدي ولكنّي لا أذهب في تعظيمه حدّ التّقديس كما يفعل العديد في الدّولة وهو الأمر الّذي لاحظته عيانا في العديد من حواراتي. كان هذا الأمر حاجزا لأيّ انتقاد لبعض الأخطاء الّتي ترتكبها الدّولة.

كان الأمر بمثابة اكتشاف كنت أخشاه وكان عزائي هو التّهوين من الأمر على اعتباره تصرّفات ورؤى فرديّة لا يتحمّل وزرها البغدادي رأسا. كنت أقول إنّ ما يجري لا يصل إلى الشّيخ!

كانت الأسئلة تتواتر في ذهني حول ما أشاهده وما أسمعه من ظلم وجور أدّى ببعض الأمراء إلى سجون الدّولة وبعضهم إلى التّصفية الجسديّة. كنت أعاين تململ البعض وحتّهم للإمارة وحَنْكهم للمؤامرات من أجل غايات شخصيّة وصوليّة. يا إلهي، هل يمكن أن تكون هذه دولة الإسلام فعلا؟!.

كان مجرّد طرح الأسئلة آنذاك باعثا لقلقي لا
فعلا طرح هذا السّؤال وأنا الّذي تركت أعزّ ما
بلدي وجئت مهاجرا قاطعا الآلاف من الكيلومترات
أجل الدّولة الّتي أحلم بها. كنت في حالة إنكار
حولي. لا أريد أن أتصوّر أنّي أعيش مُجرّد وهم صنع
المهم عملتُ على تناسي هذه الهواجس الّتي
جهتها من وسوسات الشّيطان. حاولت أن أعيش
كأيّ مهاجر في الرّقة، عاصمة دولة الخلافة.

عبر الأنترنت كنت أتابع حديث نشرات الأخبار بكل
اللّغات عنّا وعن الرّقة. كُنّا محور اهتمام العالم كلّ
بهابوننا. في أحيان كثيرة كنت ألاحظ هذه الفجوة بين
الكلام الّذي يقال عنّا وذلك الّذي نعيشه يوميّا بين الهالة
الإعلاميّة المشوبة بالاعتزاز والفخر من جانبنا وبعض
مظاهر المعاناة اليوميّة. كنت شاهدا على معاناة عائلة أهل
الرّقة في الطّابور الطّويل أمام ما تسمّيه الدّولة بـ"المطبخ
الإغاثي" بحيّ النّكنة.

كان الطّابور الأسود من نساء العوام، اللاّتي أُجبرن
على ارتداء النّقاب، يقفن في صفّ طويل حاملات أطباق
الأطعمة الفارغة في انتظار نصيبهنّ من لمجة أرزّ أو برغل.
طابور أسود يمتدّ على طول الشّارع لا يثير سكونه إلاّ
صياح الأطفال الجياع المرافقين للأمّهات ومشاكساتهم.
كنتُ وقتها أتحاشى رؤية هذا الطّابور عند مروري من هذا
المكان. كُنت أعيش أفراح الرّقة وأتراحها. أتعايش مع
القصف اليوميّ وكلّ مُستجدّ فيها.

حدث في أحد أيّام الجمعة عند مغادرتي لجامع
الفردوس أو جامع التوانسة كما يسمّونه، أن فوجئت
بجمع كبير من المصلّين خارجه مُطوّقين من كلّ جانب من
قبل جنود الشّرطة الإسلاميّة الملثّمين. كانت الشّرطة تجبر
المصلّين ومن بينهم المهاجرين على المرور أمام حاجز في
وسط الطّوق الملثّمين في الهويّات الّتي اعتمدتها الدّولة.

وتحتوي بطاقة الهويّة المعتمدة على الكنية واسم
المقاتل والدّيوان الّذي ينتمي إليه والعمل الّذي يقوم به
فضلا على فصيلة دمه.

كان الأمر مرهبا مفاجئا بالنّسبة لي ولبعض الحاضرين.
كنت طبعا من مجموع المعتقلين من المهاجرين الّذين تمّ
إيقافهم قادونا إلى سجن الملعب في الرّقة، وهو في الأصل
ملعب كرة القدم حوّلته الدّولة إلى سجن كبير.

أطلق سراحي بعد ساعات قليلة بعد أن تدخّل أحد
أصحابي من الأمراء. علمت فيما بعد أنّ الأمر تعلّق بمجرّد
إجراء روتينيّ تقوم به الدّولة ضدّ جنودها من المتغيّبين
عن كتائبهم.

تشكّل الحواجز والتّفتيشات جزءا من المشهد اليوميّ
للرّقة. كان التّعليل بالنّسبة إلينا أنّ هذه دولة مستهدفة
من قبل العالم بأكمله فمن الطّبيعي أن تتّخذ كلّ
الإجراءات الأمنيّة من أجل أمنها. قد تصل بعض الخلافات
عند بعض الحواجز إلى مشادّات كلاميّة وخاصّة مع
المهاجرين. بالمقابل كان المهاجرون يتضايقون من أيّ تشدّد
تجاههم. كانوا يعتبرون أنفسهم خاصّة الخاصّة وهم الّذين

هجروا بلدانهم واعتقدوا أنّهم هربوا من جور الحكم إلى دولة إسلاميّة حيث لا جور ولا ظلم أو هكذا كان يُخيّل لهم.

أتذكّر أنّه وقع إيقافي يوما أمام حاجز للشرطة العسكريّة في ذوّار النّعيم في الرقّة عندما كنتُ في طريقي إلى صلاة العشاء. خاطبت يومها عنصر الحاجز قائلا بتشنّج إنّ هذا الأمر لا يمكن أن يقع لي في تونس حيث كنت أعيش.

صحيح أنّه وقع إيقافي مرّات عدّة في تونس لأسباب مختلفة ولكنّي لم أعطّل عن الذّهاب إلى المسجد للصّلاة يوما واحدا. طلب منّي عنصر الشّرطة العسكريّة بطاقة هويّتي فأخبرته أنّي في عجلة وأخشى أن أضيع صلاة العشاء. رفض عذري وطلب منّي النّزول من السّيّارة رفضت.

أجبرني على النّزول من السّيّارة. كان ذا لهجة شاوية[1] من بدو مدينة الرقّة. جرت بيننا مشادّة كلاميّة لم تنته إلاّ بقدوم أحد الأمراء السّوريين ممّن أعرفهم ليشهر في وجه عنصر الحاجز الختم الأزرق وليعلمه بكوني جنديّا في كتيبته. مرّة أخرى لختم الأمراء الأزرق نفوذ لا يُضاهى في الدّولة.

أيّامي في الرقّة مضت رتيبة. فصف يوميّ وتطبيق حدود أيّام الجمعة وسهر ليليّ مع أصحابي.

في مسألة تطبيق الحدود بالذّات وهي المسألة الّتي طبعت صورة الدّولة في وسائل الإعلام والمواقع

[1] الشّواية إحدى العشائر الّتي تحالفت مع داعش لمحاصرة الرقّة كانوا إذا حطّوا في الرقّة يُعلن تنظيم الدّولة حيث على الفايو على موسى الشّواخ أبو لقمان كما قال على الرقّة

الاجتماعيّة، رشّح الكثير من الجدل بيننا حول سوء تنفيذها أحيانا أو طريقة تسويقها إعلاميّا. بقيت صورة "المرأة الهاربة" أحد الأمثلة الّتي كنت شاهدا عليها.

في أحد أيّام الجُمعة، وهو اليوم الّذي تُطبّق فيه الحدود عادة في الدّولة، ذهبت كعادتي إلى جامع الفردوس. فوجئت في السّاحة المواجهة للجامع بسيّارة إسعاف ومسعفين بكامل عدّتهم وعتادهم جاهزين لأمر ما.

كان بجانب سيّارة الإسعاف عناصر أخرى بأزياء الإداريّين علمت فيما بعد أنّهم شرعيُّو المحكمة الإسلاميّة وجنود أخرون مدجّجون بالسّلاح.

دلفت إلى الجامع. بعد أداء صلاة الجمعة أعلن الإمام أنّه بتيسير من الرّحمان سينفذ اليوم حدّ من حدود الله في دولة الإسلام وهو تطبيق حدّ الزّنا على امرأة رجما حتّى الموت. غلبني فضولي لأكون حاضرا على تطبيق حدّ من حدود الله الّتي قطعت آلاف الكيلومترات نصرة لها. بمجرّد خروجي من الجامع انضممت إلى الجموع الغفيرة من عامّة سكّان الرقّة ممّن حضروا للمشاهدة والمشاركة في تنفيذ الحدّ. تجمّع العوام مُحيطين بالجنود والشّرعيّين والهيئة الطّبيّة وسط حديقة قريبة من الجامع.

تسلّلتُ من وراء الصّفوف لأجدني مباشرة بالقرب من امرأة منتقبة. كان عُمرها في حوالي الخمسين سنة. كانت بدينة جدّا وذات فوضى جسديّة بادية للعيان. كان بقربها ركام من الحجارة متوسّطة الحجم.

تلا الشّرعيّ ذو اللّهجة الجزراويّة (الجزيرة العربيّة) بيان إدانة المحكمة الإسلاميّة على الجموع وختمه بقراره

تطبيق حدّ الزّنا عليها رجما حتّى الموت. كان بيان المحكو
الإسلاميّة قصيرا لاعتبارين. الأوّل شرعيّ. وهي الزو
بالمحكوم عليهم بتقصير وقت انتظار إقامة الحدّ. وا
السّبب الثّاني فهو مُحدث. وهو الخشية من الطّيران الس
تعود قصف أيّ تجمّع بشريّ في الرقّة في ذلك الوقت.

وقفت بالقرب من المرأة. غلبتني مشاعر متنافرة. فرح
لأنّي سأكون من بين من سيرجمون وبالتّالي المساهمة في
تطبيق حدّ من حدود الله عز وجل. والثّاني وهو قليل من
الشّفقة عليها لأسباب أجهلها. مباشرة بعد تلاوته البيان
طلب الشّرعيّ منّا الاستعانة بالله والبدء بعمليّات الرّجم.

كانت المرأة واقفة وسط الحلقة عندما طلب منها
الشّرعيّ التّفوّه بما يمكن أن تُوصي به قبل تطبيق الحدّ
صَمَتَتْ ولم تَردّ واكتفت بطلب شربة ماء. كان جسدها
يرتعش بشكل تكشفه تموّجات نقابها الأسود. رفعت بُرقع
وجهها قليلا من جهة ذقنها وأدخلت فمّ الإبريق. شربت
بشراهة ظاهرة قبل أن تُسلّم الإبريق لأحد الجنود
المسلّحين القريبين من الشّرعيّ. بعد أن انتهت من الشّرب
بدأت تصيح بلكنة رقّاوية "والله مظلومة والله مظلومة" غير
أنّ كلامها لم يَعد له أيّة فائدة في هذه اللّحظات.

بدأ رجم المرأة بعنف كبير وتكبيرات تُطلقها العامّة من
مختلف الجهات. جثت المرأة في أوّل الأمر على ركبتها
وبدأت في صياح هستيريّ فيما تهاطلت عليها الحجارة من
كلّ صوب. كُنتُ تسمع طقطقة الحجارة أحيانا على الأجزاء
الصّلبة من جسدها فيما ترتدّ أخرى بفعل ارتطامها على
جنباتها المُتشحّمة رَميتُ كما رمى الجنود والعوامّ

للحظات وأنا أُمسك بالحجارة أصابتني بعض الرّهبة
والرّأفة وأشفقت عليها. ولكنّي واصلت الرّجم وحدّثتُ
نفسي بأنّ هذا حدّ من حدود الله وعلى المرأة نفسها أن
تفرح بتطبيقه عليها لأنّه سيطهّرها من ذنوبها كما يؤكّد
علماء الاسلام!

استذكرت تلك القصّة الّتي كثيرا ما قُرئت علينا من
أنّ أحد الصّحابة أتى إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم
وقال له "لقد زنيت يا رسول الله فأقم عليّ الحدّ!"
عندما ظنّ الجميع أنّ قُوى المرأة خارت وأنّها ماضية
إلى الموت لا محالة، فوجئ الجميع بقيامها من مكانها
مسرعة عابرة بقوّة صفوف العامّة الّذين أفسحوا لها
المجال راكضة بسرعة في اتّجاه أقرب عمارة سكنيّة قرب
السّاحة. دخلت باب العمارة وسط دهشة الشّرعيّ وجنود
الدّولة!

حاول بعض الحرس الحاضرين استعمال أسلحتهم
لإيقافها غير أنّ الشّرعيّ حذّرهم من إطلاق أيّ رصاصة.
ساد الهرج والمرج في السّاحة. طلب الشّرعيّ من كلّ العوامّ
مغادرة المكان واتّجه صحبة بعض الجنود إلى باب العمارة.
كان قرار الشّرعيّ واضحا للمشرفين على عمليّة الرّجم:
"خلاص يا إخوة يعتبر الحدّ قد أُقيم شرعا على هذه
المرأة!" استنادا إلى بعض أحاديث النّبي حسب رأيه.

نزل أحد متساكني العمارة فطلب منه الشّرعيّ بلطف
جلب المرأة لإرسالها إلى المشفى فقد يكون في جسدها
نزيف جرّاء الكمّ الهائل من الحجارة الّذي رُجمت به. غير

بأدعية وترتيلات خافتة جهّزت نفسي للشهادة أكثر من
السّترة على أمر مهمّ بالنّسبة لنا وهو أنّنا سنقتحم على
العدوّ ولا سبيل للرّجوع إلى الخلف. من الواضح أنّ كلّ
مبنيّ على معطى مهمّ وهو أنّنا سنقتحم دون وجود أيّ
سواتر ترابيّة ولا خنادق تحمينا. نحن مطالبون في هذه
العمليّة بالوصول إلى سواترهم أي أنّنا سنتسلّل إلى غاية
بضعة أمتار منهم وسيكون ساترهم هو ساترنا في ذات
الوقت. هي مخاطرة كبرى بجميع المقاييس. فشل عمليّة
التّسلّل لا قدّر الله يعني وقوع مجزرة حقيقيّة في صفوفنا.

نجاح العمليّة بالنّسبة إلى قادة السّرايا متوقّف على
الوصول إلى السّواتر وحينها من المفترض أن يعطي أبو يحيى
العراقيّ (قائد المعركة العامّ) أوامره ببدء عمليّة الاقتحام
على جميع المحاور.

خفّض أمراء السّرايا من صوت القابضات حتّى لا
تُصدر أصواتا. كان سُكون رهيب يسود المكان في برد ليليّ
من صيف تدمر السّاخن. لم أكن أشعر بهذا البرد. كانت
نبضات قلبي المتسارعة ترسل إلى بقيّة جسدي ما أحسبه
أنهارا من الدّماء تُشحنني بحرارة لا قبل لي بها.

بدأ التّسلّل من جميع المحاور. تقدّمنا ببطء وبسرّيّة تامّة
حتّى وصلنا بشكل متوازٍ تقريبا إلى نقاط أصبح فيها جنود
الجيش النّظامي السّوري في السّواتر الأوّليّة على مرأى بصرنا.
كانت المسافة الّتي تفصلنا عنهم حوالي ثلاثمائة متر تقريبا.
كانت الأضواء المنبعثة من سقف المستودعات المستهدفة من
قبلنا تُنيرُ ما مسافته حوالي خمسين مترا من السّواتر.

تقدّمنا أكثر. نجح التّسلّل. أصبحنا الآن على بضعة أمتار
قليلة حاولنا تجنّب الأضواء المنبعثة من سقف المستودعات.
شعرتُ أنّ الأمر أصبح جلالا. أزفت السّاعة. توقّفت حركاتنا.
سمعت قابضة أمير سريّتي تتساءل عن نقطة تمركز السّريّة
الموازية لنا والّتي أُطلق عليها نقطة الجوّيّة اصطلاحا بين
الأمراء.

تقدّمنا بضع خطوات لتواجهنا أسلاك شائكة تمكّنّا
من قطعها واقتربنا من السّاتر التّرابيّ إلى حدّ سماعنا
أصواتهم بشكل واضح. لم تمض إلاّ بعض لحظات حتّى
تبادرت إلينا أصوات إطلاق نار كثيفة قادمة من محور
مدينة تدمر. كان من الواضح أنّ التّسلّل قد فشل في ذلك
المحور وأنّ الإخوة اضطرّوا لبدء المواجهة من جانب واحد
وهي الّتي كانت من المفترض أن تبدأ في نفس الوقت على
جميع المحاور. سمعت أصواتا مختلفة لجميع أنواع
الأسلحة.

من جانب المستودعات حيث كنّا نتمركز أعطيت إشارة
الإنطلاق لبدء الاقتحام. لَعْلَعَ الرّصاص ودَوّت القنابل
وانطلقت حمم القذائف. كنت أرى الخَطّاط (ضوء الرّصاص
في الظّلام) منطلقا إلى أماكن تمركز العدوّ. أظلمت المنطقة
بأكملها بعد استهداف كلّ مصادر الأضواء المنتشرة أمام
السّواتر. لم أعد أرى شيئا. كنت أسمع فقط صوت الرّصاص
والانفجارات. تقدّمت إلى السّاتر أمامي. رميت على نوافذ
وأبواب المبنى الّذي واجهني. كنت أهرول وأرمي دون تردّد. في
ذات الوقت كنت أذكر الله كثيرا. وصلت إلى غاية المبنى.

كنت أستمع إلى أصوات الرّصاص فيما ضوء القمر يحدّد مصادر الطّلق كما كانت أصوات الانفجارات والتكبيرات ونداءات أخرى تملأ المكان.

وقفتُ أمام بوّابة المبنى. لمحتُ خيال شخص بالزي السّورية: "مِينْ أنت؟" ردّدت عليه بنفس اللّكنة "مين أنت؟" عقّب بلهجة غاضبة: "مِينْ أنْت يا ابن الشرموطة؟!" ردّدت عليه: "أنت ابن متعة وابن شرموطة!". بدأ يرمي في الجهة بطريقة اعتباطيّة. حدّدتُ مكانه عبر خطّاط وميض الرّصاص. أطلقت الرّصاص باسترسال إلى حيث أعتقد وجوده. اختفى داخل المبنى. نفذ خزّاني. حاولت تغيير مخزن الكلاش غير أنّ هذا الأخير خذلني وعلق في مؤخرة رايله بينما كان من المفترض أن يعلّق بجزئه الأماميّ أوّلا!

حادثة الكلاش المفاجئة أصابتني برهبة كبيرة وخوف ومشاعر متداخلة. ماذا لو حدّدوا مكاني، وأنا العاجز عن تركيب مخزن السّلاح؟!

تمكّنتُ أخيرا من تركيب خزّان الكلاش بشكل صحيح بعد عناء وتوتّر شديدين. ركّبته وعدت إلى الخلف حيث اكتشفت أنّي كُنت في مقدّمة الصّفوف دُون أصحابي.

أثناء عودتي إلى الخلف حيث الخنادق وقعت بينما انطلقت الرّصاصات من الكلاش بسبب ضغطي لا إراديا على الزّناد. انطلق الرّصاص حولي دون وجهة محدّدة. ومن ألطاف الله أنّي لم أصب.

تمالكت نفسي وعُدت إلى الخلف شاعرا بألم كبير في قدمي دون أن أعلم مصدره. تمدّدت قرب أحد المقاتلين

من أصحابي. أخبرته باحتمال إصابتي. بعد أن تفقّد أطرافي. أكّد لي. أنّ الأمر لا يعدُو أن يكون مجرّد إصابة نتيجة السّقوط.

بعد التّأكّد من عدم خطورة إصابتي عدت مرّة أخرى إلى المتاتر في الوقت الّذي تقدّم فيه أصحابي. تمكّنا من القضاء على كلّ الصّفّ الأوّل من جنود النّظام. انتشرت جثثهم في مدخل المستودعات.

مررتُ بالقرب من جثّة جنديّ ثقب الرّصاص كلّ الجزء السّفلي من جسده. كنتُ أشاهد ثغره الّذي يترف دما وأسمعُ شهيقه وهو يحاول استعادة روحه الهاربة من جسده. لم أبال بالأمر. نزعتُ من جيوبه مخازن الكلاشنكوف وتابعت طريقي.

كنتَ شاهدا اللّيلة على دماء الرّعب الغامقة واختنقتَ برائحة البارود ومشيتَ على بقايا الأشلاء الآدميّة وصَمَتَّ آذانك الانفجارات. هذا قانون الغزوة الّتي جئتَ للمشاركة فيها إذا لم تَقتل تُقتل. الأفضل لك أن تنظر إلى ما بعد جثّة الجنديّ المجهول الّتي تركتها خلفك! أتراه يحبُّ أمّهُ مثلك؟! الأكيد أنّها ستبكيه بحُرقة مثلما بكتك أمّك، ذات صيف، وأنت قابع وراء بلّور جناح الزّيارة في سجن المرناقيّة. رُبّما تكون القصّة كلّها بُكاء وعذابات أمّهات يبكين على أبنائهنّ ملائكة كانوا أو وحوشا!

بحلول الصّباح كنّا قد حاصرنا المستودعات بالكامل. بدأنا عمليّة التّمشيط للمباني.

خَفَتَ صوت طلق النّار من جانب جنود النّظام وتمكنا من القضاء على كلّ مصادر إطلاق الرّصاص.

بعد إتمام تمشيط المستودعات اتجهنا إلى مسافة قصيرة
المكلفة بالنقطة التي تعرف بالجوّية لدى أهراء الشرق
الطّريق إلى النّقطة الجديدة ركبت إحدى الشاحنات التي
غنمناها من المستودعات كان أمر سياقتها صعبا في الحقل
ولكني توصلت في نهاية الأمر إلى فكّ طلاسمها وانطلقت بـ
رفقة أحد الشيشانيين.

كنّا نتّجه نحو نقطة الجوّية حينما تعرّضنا إلى طو
ناريّ من مواقع العدوّ. حطّمت زخّات الرّصاص زجا
الشّاحنة الّتي كنّا نركبها. لا أدري ما الّذي أصابني تحديا
ولكني اكتشفت أنّ يدي مصابة! ألقيت بنفسي من
الشّاحنة لم تتأخّر الفرقة الطّبية في القدوم بتغطية من
إحدى الدّبّابات ونقلت بعيدا عن مجال إطلاق النّار.

لم تكن إصابتي خطيرة. كان مجرّد جرح في يدي اليسرى
وإصابة أخرى في ساقي بفعل الشّظايا. حُملتُ إلى المشفى
الميدانيّ القريب من منطقة المواجهات والمكوّن أساسا من
الخيام. كانوا يأتون بالجرحى والقتلى تباعا إلى المكان.

بسبب إصابتي وشدّة الإرهاق نمت كما لم أنم من قبل.
نقلت من الغد بعد الإسعافات الأوّليّة إلى الرقّة عندما
وصلت، كانت الأخبار قد سبقتني إلى المدينة بأنّ الدّولة
تمكّنت من السّيطرة على قرية السّخنة والّتي تعتبر بوابة
مدينة تدمر كما سيطرت على أجزاء من المدينة الأثريّة.

كان قرب حسم الدّولة معركة تدمر آنذاك بمثابة
الخبر الجيّد بالنّسبة لمقاتليها ومناصريها مقابل الأخبار
المتواترة القادمة إلينا من الشّمال والّتي تقول بسقوط

قرية العالية في ريف الرقّة الشّمالي بيد الأكراد ممثّلين في
قوّات سوريا الدّيمقراطيّة.

قضيت يومين في الرقّة لأعود بعدها من جديد إلى تدمر
بعد أن تعافيت نسبيّا من إصابتي. بوصولي إلى تدمر وجدت
أنّ العديد من جنود النّظام السّوريّ تحصّنوا في قلعة
تدمر الشّهيرة والبرج الجبالي بينما هرب البقيّة الباقية إلى
المدينة.

تواصلت المواجهات بيننا وبينهم لأيّام عديدة، كُلّ
منّا مترس في مكانه. رابطتُ من جهتي على القلعة لبعض ليالٍ
وتنقّلت بين العديد من محاور الرّباط فيما كان الطّيران
السّوري يقصف نقاطنا دون إحداث تغييرات حقيقيّة في
موازين القوى.

كانت كلّ المؤشّرات الميدانيّة تقول بأنّ تدمر ساقطة لا
محالة بين أيدي الدّولة. المسألة مسألة وقت فقط. ما رجّح
هذه الفرضيّة وقتها أنّ الدّولة قطعت كلّ طرق الإمداد عن
المدينة.

كانت صحراء تدمر شديدة القيظ نهارا، مؤذية البرد
ليلا.

تحمّلنا، نحن المرابطين في الجبل المواجه للقلعة ظروفا
مناخيّة صعبة مقارنة بجنود النّظام المرابطين في القلعة.
تمكّن جنود "النُّصيريّة" كما كنّا نسمّيهم، من قتل العديد
من الانغماسيّين الّذين حاولوا الوصول إلى القلعة.

ظلّ الوضع على حاله، حتّى حقّق مقاتلو محور المدينة
من جنود ولاية حماه تقدّما ملحوظا وتمكّنوا من السّيطرة
على نقاط إستراتيجيّة داخل تدمر. سقطت نقاط تمركز

النّظام في المدينة تباعا بفضل السّند الّذي قدمته لجيش ولاية حماه والّذين يعتبرون من أشرس مقاتلي الدّولة.

بعد عشرة أيّام من بدء عمليّة اقتحام تدمر وبداية المواجهات، بدأ الجيش السّوريّ في الانهيار وبدأت المعلومات تتسرّب إلينا عن تهريب النّظام للعديد من قادته إلى خارج المدينة كما تمّ نقل العديد من المساجين من سجن تدمر الشّهير.

كان قطع طريق تدمر حمص من قبلنا بمثابة الضّربة المعنويّة القاضية لبقايا الجنود السّوريين المتحصّنين في المدينة والقلعة. في عمليّة قطع هذه الطّريق، تمكّنا من أسر ثلاثة جنود فيما فرّ الرّابع. وقع إعدام الجنود السّوريّين على عين المكان وسط تكبيرات مقاتلي الدّولة فيما قام أحد جنود ولاية حماه بالتّنكيل بجثث القتلى بقطع آذانهم ووضعها في أفواههم!

احتدّ جدل بين المقاتلين السّوريين حول مسألة التّنكيل بالجثث. استشهد أحدهم بحديث نبويّ ينهى عن التّنكيل، فردّ عليه الآخر بآية قرآنية تقول "فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم"[1].

تابعت عمليّات التّنكيل بالجثث كما الجدل الّذي صاحبها بسلبيّة ولامبالاة. كانت هذه تجربة جديدة لي منذ أن وطأت قدماي أراضي الدّولة. كنت أشاهد مثل هذه الأفعال في الإصدارات.

اليوم أنا شاهد حيّ على مثل هذه الممارسات! سرعان ما هان الأمر في نفسي عندما أقنعها بأنّه دين الله! ألم

[1] سورة البقرة، الآية 194

يُحرق عليّ بعض الزّنادقة[1]. وحادثة العرنيين مشهورة في المصحّحين وهم القوم الّذين قطع الرّسول أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم[2]. كان هذا غيض من فيض دروس الشّرعيّين لنا قبل المعارك!

انتهت السّيطرة على تدمر بسقوط المدينة وأحيائها بالكامل في أيدي جنود الدّولة، كما سقط مطار المدينة العسكريّ، وتبع ذلك انهيار كامل وانسحاب للجنود المتواجدين في القلعة عندما وصلتهم أخبار سقوط المدينة.

بدأنا عمليّة تمشيط المدينة. خرج بعض سكّانها من ديارهم كُنت ترى في عيون البعض منهم نظرات الرّعب من أثر ما سمعوا حول جنود الدّولة الإسلاميّة. بينما كان البعض الآخر يبتسم ببرود. وللأمانة فإنّ جنود الدّولة لم يكونوا يقتحمون بيوت العوامّ إلاّ عندما يقع الشّكّ في اختفاء أحد الجنود السّوريين في أحد المساكن.

وسط المدينة خرج لي أحد المتساكنين وكان خلفه زوجته وبناته. قلت له: "هل هذه عائلتك؟" أجاب: "نعم". طالبته بأن يستر حرماته أي أن يُدخل زوجته وبناته إلى البيت. كان الرّجل مرعوبا لرؤيتنا وكنت أبتسم. شعرت بالعطش. شربت بشراهة حتّى ارتويت.

في اللّيالي الأولى للسّيطرة على مدينة تدمر، كنّا نقبض من حين لآخر على جنود هاربين بعد رصدهم بالمناظير

[1] صحيح البخاري (6524) عن عكرمة قال أتي علي بزنادقة فأحرقهم فبلغ ذلك ابن عباس فقال لو كنت أنا لم أحرقهم، لنهي رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تعذبوا بعذاب الله ولقتلتهم لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (من بدل دينه فاقتلوه)

[2] في حديث عن أنس رضي الله عنه في قصة العرنيين الذين قدموا المدينة فاجتووها فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتوا إبل الصدقة فيشربوا من ألبانها وأبوالها فأتوها فشربوا منها فصحوا فقتلوا راعي رسول الله صلى الله عليه وسلم واستاقوا الإبل بعد أن أعمين أعينهم. فأتوا بالعرنيين فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم وتركهم في الحرة حتى ماتوا. رواه البخاري ومسلم

اللّيليّة والحراريّة. كانت شوارع المدينة مليئة بجثث جنود النّظام السّوري سواء الّذين قتلوا أثناء المعارك أو الّذين وقع إعدامهم بعد أسرهم. بالتّزامن كان النّظام يعتمد سياسة الأرض المحروقة حيث كان يحرق ويدمّر المراكز والنّقاط الّتي انسحب منها بشكل آليّ.

بعد إتمام عمليّة تطهيرنا للمدينة، جاء الدّور على "ديوان الفيء والغنائم". فجمع عناصره المسلّحون كلّ الآليّات والأسلحة وما غلا ثمنه في مقرّات النّظام وأحصوها وأرسلوها على متن شاحنات إلى الرّقّة.

اختتمتْ مشاركتي في معركة تدمر بزيارة قصر الشّيخة موزة الواقع في ضواحي المدينة والمشرف على المنطقة الأثريّة والّتي دمّرت الدّولة أجزاء منها فيما بعد[1]. في ذات المدينة الأثريّة قامت الدّولة وفي مسرحها الرّوماني الشّهير تحديدا، بإصدار شريط القتل الجماعي لـ25 جنديّا من جنود النّظام من قبل مراهقين ممّا يسمى بـ "أشبال الخلافة"[2].

أقمنا في قصر الشّيخة موزة عدّة أيّام. كان قصرا مهيبا وشاسعا ويحتوي على معالم البهرج ومبنيّا بالرّخام والحجارة الثّمينة. قبل مغادرة كتيبتنا والكتائب الأخرى للمدينة، سلّمنا رسميّا تدمر، وكما يقتضي التّرتيب، إلى أمراء ولاية حمص الّتي تشرف إداريّا عليها.

كانت آخر ساعات كتيبتنا، كتيبة سيف الدّولة، في قصر الشّيخة موزة حيث وقع تجميعنا هناك ليقع نقلنا

[1] قبل تنظيم الدّولة معسكرَيْ "تل" و"تدمر" في مدينة تدمر الأثريّة في شهر أوت 2015

بعضنا على متن حافلات بشكل متواتر زمنيّا خشية قصف الطّيران.

وصلنا إلى معسكر الطّبقة الّذي انطلقنا منه في بداية العزوة كالعادة شعرت بالضّيق لبقائي بعيدا عن أصحابي. أصررت على العودة سريعا إلى الرّقّة. لم أجد مكانا لي على متن السّيارات العائدة إلى المدينة، فاضطررت إلى الرّكوب خلف سيّارة رباعيّة الدّفع تحمل رشّاشا عيار 23.

جلست على مقعد الرّشّاش الحديديّ غير المريح بالمرّة المنصب في خلفيّة السّيارة.

كان الهمّ بالنّسبة إليّ، هو العودة إلى الرّقّة!

مُفخَّخة بلا حور

جوان 2015

عُدت إلى الرقّة هذه المرّة سعيدا وبمعنويّات مرتفعة. كُنت أشعر بالفخر لكلّ ما قمت به في تدمر. ربّما ما زاد إحساسي بالفخر هو نظرات التّقدير والإعجاب الّتي كنت أراها في أعين المحيطين بي.

تناقل أصحابي مواقفي الشّجاعة في معركة تدمر. تندّروا كثيرا بحواري مع الجنديّ السّوريّ في مدخل مستودعات تدمر ووصفي له بابن "الشّرموطة" وأنا الّذي لم يعرف عنّي أيّ كلام بذيء من قبل. كان الأمر طريفا أن لا تشعر بقبح الكلام عندما يكون بلهجة أخرى لا تفهمها.

كُنت أردّد بفخر في سريرتي: "الآن أصبحت جنديّا حقيقيّا في الدّولة!"

لم تزدني تجربة معركة تدمر كِبرا بخلاف العديدين من الجنود الّذين خاضوا الحروب قبلي. زادتني التّجربة لينا. شعرتُ أنّي أصبحت قريبا من الموت. أصبحت أكثر تواضعا غير أنّ الأسئلة الّتي ظلّت تراودني كلّما مررت أمام عوامّ أهل الرقّة: لماذا لا يقاتل هؤلاء دفاعا عن الإسلام والدّين؟!

لماذا تتساهل الدّولة إزاء هذا الأمر؟! لماذا يقطع المهرّبون آلاف الكيلومترات من أجل أن يهدأ هؤلاء في سويسرا ونحن معرّضون في كلّ حين للموت؟!

بالنّسبة إليّ، كان هناك ما قبل تدمر وما بعد تدمر.

قبلها كان رحلة ومشقّة وحلما بالوصول إلى الدّولة، بعدها كان أمرا آخر تماما. أصبح العلم واقعا يوميا بكلّ تفاصيله. تقلّصت طُهرانيّة الإصدارات إلى مستوياتها الدّنيا. غُبار الانفجارات بلا أناشيد جهاديّة وخيلاء مقاتلين أخرين جلبتهم الدّعاية الإعلاميّة لا أكثر ولا أقلّ.

ما بعد معركة تدمر. أصبحتُ جزءا من حفلة الدّم العدميّة الّتي انتصبتْ. استنشقتُ رائحة البارود حتّى اختنقتُ. مشيتُ على بقايا الأشلاء الآدميّة كنتُ شاهدا على دماء الرّعب الغامقة الّتي خرجت من فم الجنديّ السّوريّ الّذي فتّشتْ جُيوبه باحثا عن مخازن سلاحه ربّما الأفضل لك أن تنسى كلّ هذا الآن.

المهمّ حاولتُ تجاوز همومي وأسئلتي واحتفلتُ بإنجازي الشّخصيّ في تدمر عبر استدعاء كلّ أصدقائي وذبح خروف. أكلنا وتسامرنا وضحكنا كثيرا يومها.

لم تدم فترة استراحتي كثيرا في الرّقة. بعد شهر تقريبا دُعيتْ كتيبتي إلى التّفير من أجل صدّ هجوم لقوّات سوريا الدّيمقراطيّة على مدينة تلّ أبيض.

بخلاف الرّحلات السّابقة إلى جبهات القتال، لم أطرح هذه المرّة على نفسي أسئلة تفاصيل الغزوات والاقتحامات. هذه المرّة أتّجه إلى تلّ أبيض محمّلا بخبرة قتاليّة وثقة في النّفس. كانت لي هذه المرّة قابليّة القتال.

أيضا في البداية في الزّيف الجنوبيّ لتلّ أبيض قبل أن يدخلها ثلاثة على أصوات قصف الطّائرات الّتي لم تعطِ تقدّم قوّات سوريا الدّيمقراطيّة من عدّة جهات إلى المدينة.

كان وسط تلّ أبيض شبه خالٍ من سكّانه بعد هروب العديد من العائلات مع بداية هجوم الأكراد على أرياف المدينة. انتشر جنود مدينة تلّ أبيض مع بعض سرايا كتيبة سيف الدّولة في شوارعها. كنتُ من بين المرابطين على تخوم المدينة لصدّ أيّ هجوم محتمل.

عادت بي ذاكرتي إلى الأيّام الأولى الّتي حللتُ فيها بالشّام. كانت هذه المدينة هي أولى المدن الّتي استقبلتني. ذكريات الجزراويّ الّذي التقيته في مدينة أورفا والّذي رافقني عبر الحدود إلى مضافة تلّ أبيض. أتراه ركب "الدّفعة" وقام بعمليّة كما كان يتمنّى؟! أم تراه فُجع من واقع الحال مثلي؟! تذكّرت أيّام المضافة وزيارة الأمنيّين. جالت بخاطري سكّرة الوصول. فرحتي الّتي تملّكتني يومها. تذكّرت يوم الخروج من المضافة رفقة الأصحاب والتّجوال في شوارع تلّ أبيض. حينها كانت المدينة عامرة بالعامّة وجنود الدّولة استبدّ بي أسى من إمكانيّة أن تسقط المدينة وتخرج الدّولة منها. هذه منطقة أخرى سوف تُحرم من تطبيق شرع الله. لو هكذا كنتُ أعتقد!

زاد في حزني أنّ عائلات الجنود أنفسهم وقع تهريبهم من المدينة منذ أيّام وكأنّ قيادات الدّولة كانت متيقّنة من سقوط المدينة لا محالة.

غلبتني الهواجس والأسئلة. إذا كانت الدّولة متيقّنة من سقوطها فما الغرض من إرسالنا إليها؟ ازدادت شكوكي

مع حلول اللّيل خرجنا في شبه زلّ إستارة ولاذ
دراجات نارية كنت على إحداها. عبرنا منطقة إطلاق نا
وسط نيران كثيرة لم نتوقف وواصلنا المسير بسر
جنونيّة. كانت الأراضي الفلاحيّة غير صالحة تماما لعجلا
الدّراجات النّارية.

تكاثف طلق النّار وكان طلق رصاص نوعية 223 يتفجر
قربي عند نهاية مداه. كان خطّاط الرّصاص يمرّ بجانبي
بعد بضعة كيلومترات وصلت إلى الطّريق المعبد ولكن من
فرط السّرعة وفي منعرج الطّريق انفلتت بي الدّراجة
النّارية وطرت في السّماء!

ارتطمت بقوّة على الأرض. أصبت في أنفي وجبيني
أحسستُ أنّ كتفي الأيسر لم يعد يستجيب لي مع ألم
كبير. كانت الدّماء تغطّي أجزاء من وجهي. وسط الغبار
بحثت عن كلاشي. كان ملقى إلى جانبي. أخذته قمت
متثاقلا من شدّة الآلام. أضعت حذائي الرّياضي. مشيت
حافيا. كان لا بدّ لي أن أواصل مسيري إلى الأمام. لا مجال
للتّراجع إلى الخلف. مشيت متثاقلا وأحيانا مترنحا. كان
الطّريق المعبّد أمامي واضحا. مشيت على طرفه. قطعت
مسافات رغم الإرهاق الكبير والآلام.

وجدتني في ضيعة خالية على ما أحسب. كان همّي أن لا
أضيّع طريق الرّقة الطّويل أمامي. مسكت بكلاشي وواصلت
المسير إلى آخر الضّيعة. وجدت منزلا. قرّرت أن أدخله عسى
أن أجد به حذاء. أردت كسر القفل بطلقات الرّصاص.
رميت ولكني لم أستطع التّركيز في فعل الباب جرّاء الإرهاق
والدّوار الّذي أصابني. أوقفت طلق الرّصاص خشية أن يكون

هناك أكراد في الأنحاء فيسترقون السّمع. قرّرت مواصلة
مجدّدي حافيا. اتّجهت حافة الطّريق المتّجه إلى الرّقة الّذي
أعرفه جيّدا.

كنت أمشي حينما لمحت سيّارة "فان" van قادمة.
اختفيت منحنيا وراء الأعشاب الملاصقة للطّريق. جهّزت
نفسي لإطلاق النّار. تأكّدت باقتراب السّيارة أنّهم دولة.
بالتّأكيد أوقفوا السّيارة. كانوا أربعة مقاتلين. صعدت. تمدّدت
في المقاعد الخلفيّة. كنت أنزف من جبهتي ومن أنفي. لم
يبسوا مني بأيّة كلمة وانطلقوا بسرعة جنونيّة في اتّجاه
الرّقة. وصلنا إلى مشفى. جاء طاقم طبّي ونقلوني سريعا إلى
غرفة العمليّات. قاموا بتطبير جراحي. أوقفوا نزيفي وخاطوا
جزءا من أنفي تحت المخدّر.

جاء أصحابي لزيارتي. لقيت اهتماما من جانبهم ومن
جانب الإطار الطّبّي. غادرت المشفى آخر اليوم.

دَولة الملثّمين

يومين بعد عودتي من تلّ أبيض، أخبرني أحد أصحابي بكثير من التّردّد، أنّ أعزّ الأصدقاء عندي منذ أن كنت في تونس، رفيق الغول والملقّب بأبي شهيد، قُتل في قرية البل في ريف حلب الشّمالي!

كان الخبر صاعقا بالنّسبة لي. جمّدت الدّماء في عروقي. يا الله أصابني حزن كبير. ازددتُ تشاؤما من مصيري ووجودي في الدّولة الإسلاميّة. تذكّرت كلمات رفيق في آخر لقاء جمعنا. قال لي حينها بشيء من الغضب "هذه ليست خلافة على منهاج النّبوّة"!

بقيت كلماته عالقة في ذهني. تذكّرتُ كيف تركنا للموت في تلّ أبيض. سمعتُ بعدها العديد من القصص حول الشّباب الّذين ضاق بهم الحصار في المدينة بعد أن منعهم أمنيّو الدّولة من الخروج.

تذكّرتُ محرقة كوباني. تذكّرت قصص الشّباب في مصفاة بيجي في العراق في إحدى المعارك الأكثر ماساويّة الّتي خاضها المهاجرون في العراق.

خاضت الدّولة حرب استنزاف في مصفاة بيجي منذ ديسمبر 2014 إلى غاية شهر أكتوبر 2015 حينما أعلن الحشد

عاجلا او آجلا. مع شبه انهياري العصبي كنت أشعر بإحباط نفسيّ كبير. أنا الّذي كنت لا يقلقني حالات أسجن بيتي.

التجأت إلى طبيب أعشاب تونسيّ عاش سابقا في أفغانستان أوصى لي بمجموعة أعشاب مرة كالعلقم تمالكت نفسي وشربت منها ولكنّي تخلّيت عنها منذ المرة الأولى.

بعد أيام عدّة من الألم تحسّنت حالتي نسبيّا طبّ الإرهاق يلازمني ولكن الام معدتي خفّت نسبيّا بدأت الخروج من المنزل من حين إلى آخر.

كانت إصابتي بالبوصفير في شهر رمضان وهو أوّل شهر رمضان أقضيه في ظلّ الدّولة. كثيرا ما ردّدت في تونس قبل عام من هجرتي. أنّي في رمضان القادم سأكون في الدّولة ها قد حلّ هذا الشهر وأنا على أسوأ حال.

تحاول الدّولة الاحتفال كما يجب بشهر رمضان بصلاة التّراويح والدّروس الدّينية وتتشدّد في مراقبة وعقاب المفطرين أذكر أنّه من جملة العقوبات الّتي تعتمدها الدّولة إذا ما اكتشفت مفطرا هو أن تضعه في قفص وتطوف به شوارع الرقّة.

بدأت أواخر رمضان، بعد تحسّن حالتي الصّحيّة قليلا، التّردّد على جامع الشّهداء بشارع القطار حيث كنت من حين إلى آخر أؤمّ المصلّين كان المصلّون يستحسنون ترتيلي الجميل كما كانوا يقولون. كنت أحاول تقليد المقرئ الجزراوي سعود الشّريم في تلاوتي. كنت معجبا به منذ أن كنت في تونس.

طبعا لا يعود مدينة الرقّة حفظة القرآن من المهاجرين الّذين جاؤوا من أصقاع الدّنيا الأربعة ولكن عادة من يقوم بالنّاس هو من يتوسّمون حسن تلاوته وحلاوة صوته.

بعد صلاة التّراويح أعود الى منزل أحد الأصحاب من الجالية حيث أجلس للمسامرة كُنّا نتجاذب أطراف الحديث حول ذكريات تونس وأخبار غزوات الدّولة ومغامرات كلّ واحد فيها بمرّ الوقت سريعا إلى غاية صلاة الصّبح.

في دوّار الصّوامع حيث أسكن، ورثتُ عن أبي شهيد حمّاما كثيرا كان برتبه فوق سطح البيت. يعتبر حمام أبي شهيد من أعلى حمام الرقّة بالنّظر إلى كونه من فئة أصيلة إذ قد يصل سعر الحمامة الواحدة المائة دولار. يعرف مربّو الحمام في الرقّة والعديد من المدن السّورية الأخرى "الكشّاشين" أو "الحمايماتيّة".

ويستعين كشّاشو الحمام بأصوات وإشارات خاصة من أجل تسييرها في السّماء وجلبها إلى أعشاشها فوق السّطوح.

المهمّ في القصّة أنّه وبعد وفاة أبي الشّهيد، ظنّ العديد من متساكني الحيّ أنّ البيت غير أهل بالسّكان بالنّظر إلى فصالي غالبيّة الأوقات خارجه.

في ساعة متأخّرة جدّا من ليل أحد الأيّام، سمعت قرعا على الباب. استغربت طارق اللّيل الّذي جاءني دون سابق موعد. حملت مسدّسي واتّجهت إلى الباب. أعاد الطّارق دقّ الباب. فتحت. وجدت مجهولا يغادر المكان وجّهت مسدّسي نحو ظهره مطالبا إيّاه بالتّوقف وكشف

هويته. ادّعى أنه لم يطرق الباب وأنه كان عابر سبيل
يقترب من الباب الليلة. قبضت عليه من يده وأشبعته
ضربا بعقب المسدّس بعد مغالبة من طرف لحيته
أقرب حاجز أمني.

كان أقرب الظن بالنسبة إليّ أنّ زائر الليل الغريب
من أجل سرقة الحمام.

قرب الحاجز استغلّ المجهول وجود سوريين من
من جنود الدّولة ليتّهمني بأنّي ظلمته وادّعيت عليه
بعد نقاش وشدّ وجذب هاتف أمير الحاجز الأمنيين اللذين
جاؤوا في سيارة رباعية الدّفع لحملنا إلى مقرّهم في الفرقة
في المقرّ. وبعد أن علموا بالقصّة وبأنّي جنديّ في
جيش الخلافة وأنّ الرّجل من عوام المشوريين أبلغونا أنّ
الأمر ليس من اختصاصهم ووجّهونا إلى الشّرطة الإسلامية
في مقرّها في شارع 23 شباط وهو المقرّ الذي كان في السّابق
كنيسة البشارة وهي الكنيسة الموجودة مقابل حديقة
الرّشيد.

بعد مزيد التّحرّي مع المعني بالأمر والتّيقّن أنه من
العوام وقع توجيهنا إلى الشّرطة العسكريّة بحكم وجودي
كمُدّع مُنتم إلى جيش الخلافة. أخذونا إلى مقرّ الشّرطة
العسكريّة. كرّرت لهم القصّة من أوّلها وأصرّ المشوري على
روايته الأولى وأنه بريء، وكونه مجرّد عابر سبيل بالمكان!

انتهى أمير النّقطة إلى إيداع العامّي في الإيقاف وإطلاق
سراحي ليحصل بعد حوالي ثلاثة أيّام استدعاء للوقوف
أمام القاضي في المحكمة الشّرعيّة في الرّقة.

كانت حادثتي مع العامّي مثالا حيّا لشكل المعاملة الّتي
يقوم بها الدّولة مع عوام المسلمين في الرّقة وفي المدن
الأخرى الخاضعة لسيطرتها.

كان هاجس إرضاء العامّة وعدم إغضابهم باسم توفير
"الحاضنة الشّعبية" همّ قيادات الدّولة منذ تأسيسها.

في كلّ المشاكل الّتي تقع بين مقاتلين أو مهاجرين وبين
العوام، يسعى القاضي الشّرعيّ إلى التّخفيف قدر الإمكان
على العوام حتّى وإن أدّى الأمر إلى هضم حقوق جنود
الدّولة.

يوم المحاكمة وقفت أمام قاض شرعي جزراوي. وجدت
العامّي وقد سبقني إلى المحكمة. حاولت تجنّبه قدر الإمكان
في قاعة الانتظار. مع بدء الجلسة، طلب مني القاضي
تفصيل ادّعائي ثمّ طلب من المتّهم تفصيل دفاعه. رويت له
ما حصل وشكوكي بكونه يريد سرقة الحمام. وكرّر العامّي
تكذيبه لي.

بعد أن أتمّ المتّهم حديثه، سألني القاضي عن سبب
ضربي للمتّهم عند إيقافه أمام بيتي. ردّدت حجّتي للقاضي،
بأن سألته: "ماذا كنت تفعل مكاني في ساعة متأخّرة من
اللّيل وقد جاء يدقّ باب بيتك مجهول دون سبب وجيه
سوى أنّه كان يدبّر أمر سوء؟".

ردّ القاضي، بأنه وفي كلّ الأحوال، ليس من حقّي
ضربه طالبا منّا تبادل الصّفح. رفضت الصّفح عنه أمام
إنكار المتّهم وتكذيبه لي حكم القاضي بعدم سماع دعواي
عليه وأمر بجلدي عشرين جلدة بسبب ضربي له بعقب
المسدّس ليلة الواقعة.

أحضر الجلاد إلى مكتب القاضي حاول حتى من
فمنعته من ذلك. قلت له "سأتبعك!"
بدأ بجلدي على ظهري في مكتب جانبي لمكتب القاضي
الشرعي. ضربني بعنف ولكني لم أكن مهتما. كان لتكوين ال
شيء آخر تماما. كان الغيظ يتملكني من الضيم الذي
لحقني. انتهت الجلدات العشرون.
خرجت من المحكمة والتقيت بأحد أصحابي معجبا إل
بأني جُلدت في الدولة التي جئتها مهاجرا قاطعا الآ
الكيلومترات!
منذ حادثة جلدي أصبحت أكثر ضلعا وتشددا مع
عوام الرقاوية. ما معنى أن أكون مهاجرا ومقاتلا في الدولة
وأحاكم ظلما أمام عامّيّ قاعد عن الجهاد في بيته؟ ما
الذي يدفع الدولة إلى كل هذا الخوف من العوام وهم
الذين يمثلون عبئا ثقيلا عليها؟!
بعد حادثة الجلد، لم أتردد في القيام بدور ديوان
الحسبة في الشوارع عندما أخرج بسيارتي.
فبالنظر إلى تقسيم المهام والنظام السّاري في الدولة
فإنّ ديوان الحسبة هو وحده المكلّف بمراقبة التجاوزات
الشرعيّة في الشوارع لم أعد أعبأ بهذا التقسيم. كلما رأيت
ما أحسبه تجاوزا إلا وتدخلت، أنادي بعدها في القبضة
(اللاسلكي) على رجال الحسبة من أجل تسليمهم
المتجاوزين.
تدخلت أكثر من مرة من أجل إجبار نساء الرقة على
الالتزام الكامل بالنقاب وخاصة بالنسبة للشعر والعينين.

كما تدخلت أكثر من مرة في حوادث تعلّقت بالتدخين الذي
يمنع منعا باتا في كل أراضي الدولة.
باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أجد الفضاء
الشرعي للقيام بهذا الدور والذي أجد فيه من رجال
الحسبة كل التفهم. صحيح أني لا أمارس أيّ عنف ضدّ
المخالفين ولكني أسعى إلى تسليمهم كلّما تيسّر إلى سيّارة
الحسبة التي تأخذهم إلى مقرّها في الرقّة.
من بين المقرّات العديدة للدّولة تمثّل مقرّات الحسبة
والتي تحتوي على مراكز إيقاف، الأكثر أمنا من القصف
بالنظر إلى وجود المئات من المدنيّين المسجونين بسبب
مخالفات ارتكبوها.
في الحقيقة لم أكن الوحيد الّذي له نقمة على العوام.
كثيرا ما تناهى إلى سمعي أنّ كثيرا من مهاجرين ينتقدون
ويسبون العوام.
كان هناك رأي عامّ داخل جمهور المهاجرين معاديا
للعوام ويعتبر أنّهم عبء ثقيل على مستقبل الدّولة. كان
الاعتقاد الرّائج أنّه لا يجب الثّقة فيهم خاصّة أنّهم
مستعدّون للوقوف مع الأعداء.
مازالت الصّور الّتي بثّتها بعض وسائل الإعلام العالميّة
يوم سقوط مدينة تلّ أبيض بيد الأكراد ماثلة بالنّسبة
إلينا. يومها خلعت نساء المدينة نقابهنّ أمام آلات التّصوير
بكلّ فرح.
كان هناك اعتقاد سائد بين المقاتلين من المهاجرين أنّ
الابتسامة الّتي نراها في طرقات الرّقة والمدن الأخرى الّتي
تسيطر عليها الدّولة، هي ابتسامة نفاق صفراء لا صدق فيها.

كان غالبيتنا متفقين أن الأمر يتعلق بمظهر حس
إضافة إلى خداعهم كنت أرى في أهل الرقة ولي العهد
الأرياف بساطة تقارب من البلاهة. كتونسي جئت إلى سو
تلمست فروقا كبيرة بيننا في تونس وبين أهل المنطقة لم
سيطرت عليها الدولة.

بطبيعة الحال للرقاوية وأهل الشام خاصة على
خاصة تجاه التونسية. كانوا يهابوننا ويعتبروننا الأكثر ج
ودموية في القتال. نفس النظرة التي ينظر بها للقاتلين
الأكراد تجاهنا.

تسود البهجة جماعات المقاتلين الأكراد كلما قيض
على تونسيّ من الدولة حيّا. نفس النظرة انتشرت في
العراق. فالقبض على مقاتل تونسيّ حيّا يمثل كسبا كبيرا
بالنسبة إلى القوات العراقية ولجماعة الحشد الشعبي.

أصبح الحديث عن العوام وتصنيفهم أحد المواضيع
التي كثيرا ما نتطرق إليها في جلساتنا. كثيرا ما كان مصطلح
المشركين في وصفهم يتردد من قبل بعض جنود الدولة لم
أكن أعر الأمر اهتماما كبيرا في ذلك الوقت.

من وجهة النظر الشرعية لم أفكر يوما في مسألة
تصنيف العوام من المسلمين في الرقة ولا في غيرها. هل
يتعلق الأمر بمسلمين مثلنا؟ هل هم مشركون أم كفار
كانت كل هذه الأسئلة غائبة عن تفكيري.

اختلطت لديّ التجربة الدائمة المتينة مع الرقاوية مع
بعض التصنيفات العقائدية التي كنت أستمع لها فزاد
ذلك من منسوب الكراهية والرفض بالنسبة إليّ.

أتذكر أن هذا الإحساس شعرت به في تونس في فترة
معينة تجاه عوام المسلمين قبل هجرتي. لم يتعلّق الأمر
لديّ بتكفير العوام ولكن بربطهم بنظرة فيها الكثير من
الريبة في حقيقة إسلامهم.

أصبحت بمرور الأيام مقتنعا أنّ العوام لا يستحقون
كل التضحيات التي نقوم بها في الحروب من أجلهم.
شاركني في هذه النظرة العديد من المهاجرين. في تلك الفترة
وفي خضمّ الموجات الكبرى للاجئين السوريين من تركيا إلى
اليونان وسوريا أصدرت الدولة بولاية حلب إصدارا كنت
فيه من المتحدثين. كنت يومها في زيارة قصيرة لمدينة الباب.

في هذا الإصدار والذي عنوانه "ويستبدل قوما غيركم"
والذي دعت فيه الدولة الإسلاميّة السوريين إلى عدم
الخروج من أراضيهم عن طريق ضرب مثال للمهاجرين من
أمثالي الذين قطعوا مسافات طويلة للوصول إلى الشام.
دعوت السوريين إلى البقاء في ظلّ أراضي الخلافة مشيرا
إلى أننا في الدولة الإسلاميّة نقيم الحدود ونحكم بالعدل.
في الحقيقة لم أكن مقتنعا كثيرا بالكلام الذي قلته في
الإصدار. لماذا تكلّمت بهذه الطريقة؟! أكان خوفا أم تقيّة؟
لا أدري.

ما أعلمه حقيقة أنّ نظرتي تغيّرت كثيرا حول الدولة
الإسلاميّة التي لم تعد كذلك.

كنت موقنا وقتها أني تلقطت دون قناعة حقيقيّة بها.
قلت ما كان يريد صاحب الكاميرا سماعه. لم تعد الدولة
هي الدولة ولم أعد أنا ذات الشخص الذي سجد شكرا

عندما خطا اول خطواته عابرا الأسلاك الشائكة [illegible]
الأراضي التركية.

عندما كنتُ في مدينة الباب كنتُ قد [illegible]
في هذا المحفل الكبير الذي جمع شتات الشباب الثوري
مثال آخر غير الأمثلة التي تركوها خلفهم في [illegible]
الأصلية.

عندما وصلتُ إلى مدينة الباب، كنتُ قد استئنس
بما فيه الكفاية رائحة البارود ومشيت على بقايا أشلا
الجثث. في الباب عاودتْ مشاهدة دماء الرعب الخاصة
في "الباب" أمسكتْ يد سارق من العوام قطعها بع
السّيف أحد أصحابي!

فقد صادف وجودي في هذه المدينة أيامها، تطبيق حـ
السّرقة على عاتق من عوامّ المسلمين عمره في حدود الأربع
والعشرين سنة. كنت من بين الّذين مسكوا يد السّارق
قبل أن تخدّر فيما قام السيّاف بقطعها بحضور الإعلامي
الّذي صوّر المشهد كاملا.

قُطعت يد السّارق فكبّر الحضور من المقاتلين والعامّة.
ركبتُ مع العاقّ في سيّارة الإسعاف بعد قطع يده وحاولت
معرفة سبب الحكم عليه أو بالعبارة السورية "شو بكيت"
أي ماذا سرقت. فأخبرني أنّه سرق دراجات ناريّة وأنّه
سعيد بأنّ حدّا من حدود الله طبّق عليه!

لا أعلم هل أبدى العاقّ سعادته لي بقطع يده خوفا
أو قناعة. لم أخف رأفتي وقتها تجاهه ولحاله بعد قطع
يده. سألته عن إمكانيّة أن يكون قد ظلم في ما حدث له؟!
كنت ربّما أبحث عن شيء آخر يثبت لي أنّ هناك خللا ما في

هذه الدّولة نفى العاقّ أن تكون الدّولة قد ظلمته! أقالها
مرّة ما؟! هل كان يظنّ أنّي أحد أمنيّي الدّولة الباحثين
عن ثأر من قطع يده إلى قطع رأسه؟!

طوال الطّريق الّذي قادنا إلى المشفى لم يقل العاقّ
أيّ كلمة نقد للدّولة مكتفيا بالقول إنّه بقي شهرين
موقوفا في السّجن قبل تطبيق الحدّ عليه.

في قضيّة تطبيق الحدود وإقامة العدالة ودرء الأسباب
الّتي قد تؤدّي إلى السّرقة تبادر إلى ذهني وجود المئات من
المشرّدين والنّازحين في الرقّة من المدن والقرى الأخرى الّتي
سيطرت عليها الدّولة.

إنتشرت ظاهرة الأطفال المشرّدين والفتيات اللاّتي
ليس لهنّ مأوى في شوارع الرقّة. لم أكن أتصوّر أن أرى
مثل مظاهر التّشرد هذه في الدّولة. كنت أسأل بعض
الأمراء: "لماذا لا تهتمّ الدّولة بكلّ هؤلاء الفقراء بينما يتمتّع
مقاتلوها وخاصّة المهاجرون منهم ببذخ مبالغ فيه أحيانا؟!"
كان بطبيعة الحال سؤالا دون جواب. من السّهل أن
تلاحظ مثل هذا البذخ في مآدب العشاء وفي الأكل
المخصّص للمقاتلين في الجبهات.

لم تغيّر حادثة العاقّ صاحب اليد المقطوعة من
نظرتي المريبة تجاه العوامّ بشكل عامّ. واصلت القيام بدور
الحسبة تجاههم في الشّوارع. كنت أتشدّد ضدّ كلّ من
أكتشفه يدخّن في زوايا الرقّة ومحلاّتها وكنت لا أتسامح
تجاه الفتيات اللاّتي يسهبزن بنقابهنّ.

مع حلول عيد الأضحى، شفيت تقريبا من مرض
البوصفير.

كنت دائم التّردّد على أحد المقرات التي يجتمع فيها أصحابي وسط الرقّة. لم أتوقّف عن انتقاداتي للتنظيم ولأخطائها وهو الأمر الّذي شاركني فيه عدد من أصحابي توسّع نقدنا للمراجع الفكريّة والعقائديّة الّتي انبنى عليها فكر الدّولة في ظلّ خشية البعض ومعاوليهم تعلّم الحديث عن المهاجرين الّذين سجنوا أو قتلوا.

كثيرا ما كان حديثنا يتوسّع في المسائل العقائديّة عبر العلماء بحثا عن أصول فكر الدّولة. لم أتردّد وقتها في وصف شيوخ السّلفية المعاصرة من الجزراويّة بالكفر والرّدّة عندما تحدّث أحد أصحابي عن عبد العزيز بن باز ومحمّد بن صالح العثيمين وغيرهما.

كان تصنيفي لهما بالنّظر إلى ما اعتبرته وقتها مساندتهما للحكّام. كانت هذه أوّل مرّة تقريبا منذ دخولي إلى الشّام الّتي أخوض فيها في المسائل الشّرعيّة وأبدي رأيي فيها. لم يجل بخاطري أن أخوض في هذه المواضيع لأنّي اعتقدت أنّ وجودي هنا كان للقتال في سبيل الله وأنّ الطّريق إلى ذلك بيّنة واضحة لا تحتاج إلى دليل.

لفت ما قلته حول بن باز والعثيمين انتباه أحد الحاضرين من أصحابي. سألني بعد هذه الجلسة بيومين في لقاء بيننا عن سبب تكفيري لبن باز والعثيمين. قلت له إنّ الأمر بيّن فيهما مواليان للطّواغيت. متابعة لحديثي سألني عن حكم من لا يقول بكفر هؤلاء. كان السّؤال هو: "ما حكم من لا يكفّر الكفّار؟!".

لم أرَ تردّدت في الإجابة أو لم أجد الإجابة المناسبة. عادت بي الذّكريات إلى تونس. نعم لقد تعرّضت لهذا السّؤال يوما ما في تونس ولكنّي لم أهتمّ به.

بعد تفكير أشبه بالارتباك قلت لمخاطبي: "لم أفهمك"! وأردفت: "هؤلاء يُعتبرون علماء ولا علم لي بحكم من لا يكفّرهم". قال لي: "سابسّط لك الأمر". وضرب لي مثال زيد الّذي يعبد صنما وعمرو الّذي لم يكفّره. ما حكم عمرو؟! أجبته عمرو كافر. وأضاف بعدها أن جاء شخص ثالث ورأى أنّ عمرو لم يكفّر زيدا الّذي يعبد الصّنم. أجبته بأنّ هذا الشّخص الثّالث كافر كذلك.

بعد صمت قصير توجّهت له بالقول: "هل تتحدّث عن مسألة العذر بالجهل؟!" ضحك صاحبي. طالبته بتفسير الأمر. قال لي: "إنّ مسألة العذر بالجهل هي بالنّسبة إلى إنسان وقع في الكفر فجاء إنسان آخر عذره بجهله وقال لن أكفّره لأنّه جاهل".

أصابني دوار. ما العمل الآن؟!

قطعُ الدُّومينو

أتذكرُ حَيّكَ في حديقة مجمع المهاجرين السّكني في مدينة دورتموند؟ كنتَ طفلا لم تبلغ الخامسة من عمرك بعد لم يكن هناك مسلمون وكفّار. كان هناك فقط أطفال.

كان هناك ذاك الطّفل، ابن الأسرة الألمانيّة الوحيدة في العمارة لم يكن وقتها كافرا بعد. كان غضبك الطّفولي تجاهه بسبب أنّه يريد اللّعب مع الفتيات الصّغيرات اللاّتي كنّ في نظرك ملكك وحدك. كنت وقتها مهاجرا مع والديكَ. لم يكن لمعنى كلمة مهاجرين نفس معناها اليوم في الرقّة.

أُعِدت فيما بعد بغير رغبة منك إلى أرض الإسلام خوفا من فتنة المهجر الأوروبيّ. ثمّ كبرتَ. كنتَ بين جموع المسلمين أو هكذا كنتَ تعتقد. انقسم عالم المسلمين في ذهنك في نهاية مراهقتك بين "الإخوة" وكلّ "الآخرين" الّذين مازالوا في نظرك من عوامّ المسلمين. ثمّ انتفت عنهم صفة الإسلام. أصبحت الدّولة الإسلاميّة حُلمك. الطّائفة المنصورة الّتي بشّر بها الحديث أو هكذا قيل لك. انقسمت الأمّة في ذهنك إلى ثلاث وسبعين فرقة. كُلّها في النّار إلاّ واحدة. كانت الدّولة هي الفرقة النّاجية.

ظلّت الدّولة هي الطّائفة المنصورة حتى حانت معارك
الدّولة السرتة في الرقة. فلب الدّولة الإسلاميّة. لتعلن
أنّها لم تكن لا الفرقة النّاجية ولا الطّائفة المنصورة.
اكتشفت أنّ هناك من يكفّرها من داخلها هناك من
هاجر إلى الدّولة الإسلاميّة وقاتل في صفوفها واكتشف أنّ
خارجة عن الإسلام لأنّها لم تكفّر الكافر!
طرح أسئلة قضيّة عدم العذر بالجهل يعني في ما يعني
طرح السّؤال حول شرعيّة اتّباع الدّولة لهذا المنهج نعم
الدّولة تعذر بالجهل فهل يعني أنّ منهجها على باطل؟ هل
يعني أنّ قياداتها الشّرعيّة وعلى رأسها الشّيخ تركي البنعلي
شرعيّ الدّولة الأوّل كافر لأنّه لم يكفّر الكافر؟!
هل أنّ أمير المؤمنين أبابكر البغداديّ نفسه منحرف
ضالّ لأنّه أمير على دولة تعذر بالجهل؟!
من المهمّ أن تسأل نفسك حول جدوى هذا النّفق
الطّويل الّذي دخلته؟!
تبعات كلّ هذا والمضيّ في الأجوبة يعني انهيار مسيرة كاملة
تملّكتك حيرة شعرت بالضّياع. تساقطت قطع الدّومينو في
ذهنك واحدة تلو الأخرى طبق مبدإ التّكفير بالتّسلسل. هذا
المنطق الحجاجيّ سوف يخرج الجميع من الإسلام.
الأمر لن يتوقّف على النّظرة الشّرعية لأمراء الدّولة
وقادتها بل يشمل كلّ المنهج من أصله. كان كلّ من يعذر
بالجهل طبّق نفس النّظرية كافرا. ومن ضمنهم العلماء الّذين
يوجدون اليوم في سجون السّعودية من قبيل الشّيخ ناصر
العلوان والشّيخ الخضير.

طبقا لنفس النّظرية فإنّ عوامّ العالم أجمع بطبيعتهم
جاهلون وبالتّالي كفرة مشركون، ومن يعذرهم من العلماء
ويُبقي الدّولة كفرة مشركون. من يتآمّر على هؤلاء
المُرعيين من مجلس شورى الدّولة كفرة مشركون. إذًا
البغدادي الّذي يقود الدّولة يندرج ضمن هذا التّصنيف!.
كان الأمر بالنّسبة إليك هو ولوج دوّامة من الأسئلة الّتي
كثيرا ما هربت منها. أسئلة كثيرا ما أجّلتها. أسئلة كثيرا ما
قدّمت فيها عملك ونشاطك الجهاديّ على أصل اعتقادك.
انتبه يك الأمر إلى الفهم أنّ في هذه الفرقة النّاجية الّتي
هاجرت إليها وتركت الغالي والنّفيس من أجلها، تضمّ فرقة
أخرى أصغر تعتبر نفسها ناجية. وقد يأتي يوم تخرج فيه من
الفرقة الصّغيرة النّاجية طائفة "أنجى".
اكتشفتَ أنّ منطق التّكفير بالتّسلسل سوف يؤدّي إلى
تكفير الدّولة وأمرائها وقادتها لأنّ الدّولة لا تكفّر بعض
العلماء الّذين يعتبرون من شيوخ الجهاد والّذين بقوا على
مساندتهم لتنظيم القاعدة. ماهذا النّفق الطّويل؟
اكتشفتَ أنّ في الدّولة الإسلاميّة تكفيرا متبادلا بين
تيارين: "البنعليّة" نسبة إلى شرعيّ الدّولة الأوّل البحرينيّ تركي
البنعلي[1]، وشيخ آخر سعوديّ له أتباع في الدّولة هو أحمد بن
عمر الحازمي[2] ويُطلق على أتباعه بـ"الحازميّة". كانت الحازميّة
فرقة سرّيّة تعتبرها الدّولة من الخوارج الّذين يُستحلّ دمهم.

[1] تركي البنعلي: وتلقب بأبي سفيان السلمي وهو شرعي بحريني من جبهة النصرة بالبحرين من مواليد 1984 كان من المنظرين الأوائل لبيعة أبي بكر البغدادي من طريق كتابه الذي سموه بـ"منّ الرحمن لبيعة البغدادي" والذي أصدره تحت توقيع همام بن بكر الأثري في حوينية من سنة 2013 أيضا قتلته بعد إعلان ما يسمّى بدولة الخلافة

[2] أحمد بن عمر الحازمي سعودي اعتقلته السلطات السعودية في أفريل 2015 ثم قبل استقالته تقدم الانتقاد للدّولة الإسلامية بناء على عدم عذره بالجهل

فيهمك بعد الانشغال للنقاش الشائك الذي جر
بعض مجالس الرقة حول قضية العذر بالجهل
الدولة محمد الزين (أبا دجانة)
انتهوا إلى إخبارك بأن قتل هذا الجهور
لانضمامه إلى الفرقة التي كفرت الدولة وأميرها
كان لا بد أن تفهم لماذا قتل هذا الشاب
في الهجرة والجهاد. حدثوك عن صلابته وتشدده
لثة قادة الدولة منذ تأسيسها عندما كان يُطلق
الدولة الإسلامية في العراق والشام في سنة
أبو دجانة من تونس وكان ضمن كتيبة من المهاجرين
مدينة الدانا. بايع البغدادي وأصبح من قادة الدولة
الشام. انضمّ فيما بعد إلى الجهاز الأمني
أصبح من أشرس الأمنيين حكايات كثيرة كانت تروى
عنه، عن تعذيبه للمعتقلين وتنكيله بالأسرى وانتزا
الاعترافات منهم بالقوة.

أخبروك أنه كان يُعلّق المساجين بالمسامير من أيديه
وأرجلهم. حدثوك عن عدم رغبة معاونيه في الحضور في
التحقيقات بسبب شدّته والطرق الرهيبة التي يتبعها في
الحصول على الاعترافات في حصص التعذيب التي يشرف
عليها. كان محمد الزين يعذّب الجميع: موالين
وموالين للمعارضة الإسلامية وغيرها.

لا يُعلم متى تحوّل أبو دجانة إلى تكفير العوام طبقا
لمقولة عدم العذر بالجهل. بدأ يحتقب ويسلبُ أموال من
يعتبرهم مرتدّين ولم يتردد في قتلهم. انتهى به الأمر إلى
الاعتقال من قبل الجهاز الأمني الذي كان أحد أبرز

ساهموا بطريقة إخوان الأمس. كفّرهم فحاكموه وانتهى
بهم الطريق إلى قتله تعزيرا.

تحدثوك أن محمد الزين لم يكن الأول الذي قتلته
الدولة طيلة إتباعها لمنهج أفكار الغلو والخوارج. كان قبله
البغدادي أبو جعفر الحطّاب الذي كفّر جميع الفصائل
الإسلامية في سوريا وأبو مصعب التونسي الذي كفّر تنظيم
القاعدة وأسامة بن لادن وأبو عمر الكويتي وغيرهم من
المرتدين الذين سجنتهم وقتلتهم الدولة.

كانت الخصومات العقائدية التي اكتشفتها في الدولة
فرصة لك من أجل متابعة الحوارات التي تجري سرّا والأسئلة
التي يطرحها البعض حول مسألة عدم العذر بالجهل.

اكتشفت أنك في ماكينة من التكفير الذي لا نهاية له.
فرقة تكفّر الأخرى في نهاية الأمر لن يبقى من الإسلام إلا
اسمه.

تذكر بك البحث مع بعض أصحابك إلى طرح السؤال
الأساسي: ما الغاية الأصلية لوجودك هنا في الشام؟ الأكيد أنّ
غاية وجودك ليست القتال بحدّ ذاته ولكنّ الغاية هي
بحسب تعبيرك "توحيد الله عزّ وجلّ" ولكن ما هو التوحيد؟
كيف ينتهي تحقيق التوحيد إلى حالة التقتيل المتسلسل
داخل الطائفة الواحدة؟!

كيف تضيق دوائر التكفير داخل العقيدة الواحدة
لإيجاد رويبا لتضيّق معها صفة الطائفة الناجية وتتحوّل
إلى بضعة أفراد من مليار مسلم يعيشون في هذا العالم؟!

كان الأمر يتعلّق بأكبر صدمة نواجهك منذ عرفت هذا
المنهج. هل يتعلّق الأمر بخطأ مسرود كاملة؟!

مرّت صور كثيرة أمامك لكلّ السّنوات السابقة ك
الّتي تركتها. زوجتك الّتي في السّجن في تونس بسبب و
ما خلّفته هناك. حروب خضتها. هجرة قطعتها. كلّ الم
يتعلّق بجدوى كلّ ما فعلته. هل يتعلّق الأمر بخطإ
مسيرتك كاملة؟!

اكتشفت أنّك على الرّغم من حفظك لكتاب الله وتبحّ
البعض لك سواء في تونس بحكم علاقتك الوطيدة بالشيخ
الخطيب الإدريسي أو دوائر الإخوة في الشام. اكتشفت أ
طرح المسألة الاعتقاديّة كان مهملا ومُغيّبا بالنّسبة إلى
طرح هذه الأسئلة كان لك بداية التّساؤل حول مسيرة
بأكملها. مسيرة عمر كاملة. وتضحيّات آلاف من الشبا
التّونسيّ الّذين قدموا إلى الشام من أجل ما يعتبرونه نصرة
لدين الله دون ضبط للمسائل الشّرعيّة!

عدتَ بعد هذه الأسئلة إلى قضيّة مسألة طلب العلم
ووجوب البحث عن الحقيقة. بالنّسبة إليك أصبح هناك
شكّ في متانة إسلام كلّ رموز السّلفيّة الجهاديّة. اتّضح لك
أنّ تطبيق بعض المنطلقات ونفس الرّؤية سيؤدّيان بالضّرورة
إلى تكفير الدّولة الإسلاميّة ذاتها وتكفير أمير مؤمنيها!

كان الأمر بالنّسبة إليك هو ضياع البوصلة من أنت؟
وماذا تريد؟ وما الغاية أصلا من وجودك في الشام؟ وإذا
كانت الدّولة منحرفة وكافرة فما حكم تنظيم القاعدة؟ ما
حكم أيمن الظّواهري الّذي يعذر أيضا بالجهل؟ وما حكم
أسامة بن لادن؟!

شعرتَ أنّك ضائع. اكتشفت أنّ عليك أن تبحث عن
نفسك وسط كلّ هذا النّفق الطّويل الّذي لا نهاية له.

بدأت البحث دون أن تعرف النيّة البحث ومنهجيّته. لم
تكن الكتب متوفرة وكان استعمال الأنترنات يمثّل مشكلة
في الرّقابة بالنّظر إلى بطشها الشّديد ومراقبة محلاّت الأنترنت
من قبل أمنيّي الدّولة.

في تلك الفترة، استمعت إلى الكثير من دروس عمرو
الحارثي الصّوتيّة على مواقع الأنترنت باحثا عن أيّ كتاب
له بطبيعة الحال كانت الدّولة تمنع مقاتلها من سماع أو
قراءة ما يقوله. هذا الأخير كان الإقدام على هذا الأمر
بالنّسبة إليك خطرا حقيقيّا على أمنك وسلامتك الجسديّة
إذا ما تفطّن لك أمنيّو الدّولة.

قرأتَ واستمعتَ أيضا لدروس تركي البنعلي شرعيّ
الدّولة وأحد المقرّبين من البغدادي.

بين البنعليّة والحازميّة في الدّولة، صنف ثالث من
أمثالك، جاء للدّولة برؤية بسيطة هي ما كنت تعتقد أنّه
"جهاد في سبيل الله" دون أن تعلم الفروقات العقائديّة
والخصومات الجارية الّتي تنتهي إلى الهدم والدّم والتّقتيل
تحت ذريعة وصف الخصوم بالخروج والغلوّ. كان الكلّ
يدّعي أنّه الفرقة النّاجية!

لم يكن الصّراع بين البنعليّة والحازميّة في الدّولة
صراعا بسيطا. أحدهما يعتقد أنّ الثّاني على مذهب
الخوارج والثّاني يعتقد أنّ الأوّل كافر مشرك. كان نفقا
طويلا لا نهاية له.

فهمت أنّك أمام منهج متنال من التّكفير سوف يؤدّي
بك إلى نتيجة مفادها تكفير بالتّسلسل، الحازميّ منتهاه
تكفير لمنهج الدّولة الّتي ناقضت بدورها منهج القاعدة الّتي

بدورها من منهج السّلفيّة الجهاديّة والتي تعاود
بدورها منهج الإخوان الّذي ألغى بدوره منهج جهاد
المسلمين. نفس المنطق سوف يؤدّي أيضا إلى تكفير الجهاد
ولكن القائلين بعدم العذر بالجهل لسبب ما.
سوف ننتهي يوما إلى مقولة "المسلم الأخير" الشبيهة
بمقولة "اليهوديّ الأخير" الشهيرة.
عاد بحنك في الرقّة لما اعتبرته العقيدة الصّحيحة بها
عشته في تونس في مرحلة معيّنة من حياتك.
كان أوّل شيء فكّرت فيه في تلك الفترة هو كيفيّة
اعتزالك القتال وعدم الاستجابة لنداءات النّفير. رغم
خرقتك له وحنثك للسّلاح والغزوات.
انتهى بك الأمر إلى القناعة أنّك خضتَ الحروب وكنتَ
شاهدا على دماء الزّعب الغامقة واختنقتَ برائحة البارود
ومشيتَ على بقايا الأشلاء الآدميّة وصُمّت أذناك جرّاء
المفخّخات ولكنّ بعيدا عن دمار الحرب الّتي جئت للمشاركة
فيها كان هناك دمار داخل نفسك هذه المرّة. أما آن لك أن
تسألها: ماذا بعد؟!
إذا كُتبت لك أن تحيا يوما آخر في هذه الدّولة من
الأفضل لك أن تتوقّف في منتصف الطّريق. إبحث لك عن
طريق جديدة!
طبعا وسط جلبة الأفكار الّتي تتزاحم في رأسك لم تتردّد
في الخوض في هذه المواضيع مع أصحابك الّذين كنت
تجالسهم في الرقّة. وجدت أنّ الكثير منهم يعتقد في خطأ
منهج الدّولة حتّى قبل أن تفاتحهم في الأمر. كانت لعبة
الصّمت وإخفاء المعتقدات سبيلهم. كان الخوف والهروب

إلى الإمام حدّا بالنّسبة للغالبيّة منهم. لقد سلكوا طريقا ولم
يعد بإمكانهم العودة من حيث بدؤوا. فمن يدخل
التّنظيم، أيّ تنظيم عقائديّ، ليس من الهيّن أن يتركه
مجرّدا. سيبني التّنظيم عندما يكتشف أنّك بدأت تبني
عالما جديدا خارج عالمه. التّنظيم متاهة منتهاها الموت. هي
كذلك كلّ التّنظيمات العقائديّة، يصبح فيها الفرد لاشيء.
صُدم البعض من طريقة تفكيرك الجديدة، وما زاد
من صدمتهم هو معرفتهم بشخصك. وابتعادك عن مثل
هذا الحبل وأنت الّذي عرف عنك الوفاء للدّولة ومنهجها.
صدموا أكثر من تجرّتك على قادة الدّولة.
بالنّظر إلى أجواء الرّعب المبثوثة في الرقّة تجاه أيّ
تشكيك في عقيدتها أو إنتقاد لقادتها وأمرائها كان عليك
الصّمت.
في هذه المرحلة، لم يكن الأمر يتعلّق بالنّسبة إليك،
بمجرّد انتقادات لتصرّفات قادة الدّولة وأخطاء الحروب
وشبهات خيانات أدّت إلى قتل المئات من مقاتليها في كوباني
وبيجي وتلّ أبيض وغيرها. أصبح الأمر يتعلّق بانتقادات
لمنهج الدّولة بحدّ ذاته والأسس الّتي انبنت عليها. إذا كانت
تهمة الانتقادات الأولى هي "التّخذيل" وربّما السّجن
والتّعذيب فإنّ تهمة الشّكّ في معتقدات الدّولة سيؤدّي بك
حتما إلى القتل والصّلب بتهمة الغلوّ أو الزّندقة.
كانت عمليّات التّصفيات الّتي تُجرى ليلا في مطار
كشيش، هو التّاريخ السّرّي الّذي لا يعلمه المهاجرون
القادمون إلى ما يحسبونه دولتهم الإسلاميّة. هذه دولة
تصفّي كلّ من يخالفها المنهج حتّى ولو كان من أبنائها

طرحت أسئلة كثيرة عن المهاجرين الأوائل في الشام
وعن طبيعة الخلاف وأسبابه الحقيقية من أجل منع
وضوح الرؤية بالنسبة إليك.
اكتشفت من خلال أحاديثك أنّ العشرات من العناصر
في الدّولة وجنودها يتبنّون آراء عمر الحازمي في عدم العذر
بالجهل وبالتّالي تكفير جلّ قيادات الدّولة. اكتشفت أنّ
هناك تنظيما داخل تنظيم الدّولة الإسلاميّة. تنظيما أكثر
تشدّدا لا يعذر بالجهل اعتبرته الدّولة تيارا من الخوارج من
الّذين يجب قتالهم واستئصالهم.
اكتشفت أيضا أنّ مسألة عدم العذر بالجهل تلك
بين المقاتلين التّونسة بشكل ملحوظ وهو الّذي جعل
الدّولة تقوم بتصفية العديد منهم منذ الأيام الأولى
لتأسيسها.

كان التّونسيّون في مقدّمة من دمّروا صلبان كنيسة
البشارة بالرقّة وكانوا هم أوّل من هاجم وحطّم شواهد المدينة
المسيحيّة بالموصل. كانوا أوّل من طالبوا بتطبيق الحدود في
مدينة الدّانا في الأيّام الأولى للصّراع المسلّح في سوريا. كانت
الدّانا أحد أبرز تمركزهم أثناء قدومهم بالمئات من تونس.
بشهادة الرّقاويّة وأهل سوريا عامّة. كان التّونسة
الأكثر عنفا ودمويّة من بين بقيّة المهاجرين الأجانب. ربّما
تمثّل مجزرة مطار الطّبقة العسكريّ الّتي قتل فيها أزيد من
مائتين وخمسين جنديّا نظاميّا أحد الأمثلة على هذه
الدّمويّة. شارك التّونسة في هذه المجزرة بشكل كثيف
مقارنة بأعداد بقيّة المهاجرين.

جاء قتل الكثير من الشّرعيّين والأمنيّين التّونسة من
قبل تنظيم الدّولة فيما بعد استتباعا لكلّ هذا التّشدّد
والغلوّ الّذي يوصفون به. ربّما لهذا السّبب كانت الدّولة
حريصة على عدم إتاحة الفرصة للتّونسة للوصول إلى
المراكز القياديّة الأولى في الدّولة رغم كثرة أعدادهم وقوّة
تموكهم.
كان "البنعلية" داخل الدّولة يقولون أنتم التّونسيّون
فيكم الكثير من الغلوّ جرّاء العمل الّذي قام به عمرو الحازمي
وأمثاله بعد الثّورة في تونس حيث أقام مذهبه ونشره بين
أنصار التّيار السّلفي في العديد من مساجد البلاد[1].
هل كان عنف التّونسة في تنظيم الدّولة ناتج فقط
على عمل هذا الشّيخ الجزراوي في تونس؟! بالتّأكيد لا.
الأمر أعقد من ذلك بكثير. جاء التّونسة إلى الرّقّة وغيرها
من المدن السّورية بالآلاف. كان يُشار لهم مجازا بالبنان:
"أنّ هؤلاء جاؤوا إلى بلد بورقيبة والحداثة وحرّية المرأة".
كانوا مطالبين بإثبات أنّهم ليسوا أقلّ إسلاما من بقيّة
المهاجرين الّذين قدموا إلى الدّولة من أصقاع الدّنيا
الأربعة.
كان التّونسة مطالبين بإثبات أنّهم ليسوا أقلّ إسلاما
وليسوا أقلّ غيرة على الدّين من الجزراوية والأسبوتين
وغيرهم. كانت النّتيجة أن تمرّغت أيديهم في الدّماء. وكانوا

[1] بدأ أحمد بن عمر الحازمي بإلقاء دروس على تونس منذ نهاية سنة 2011 وأقام لمدة في تونس متنقلا بين المدن
في مساجدها وانتقل بين العديد من المدن ونشر مذهبه في عدد من مساجد البلاد. أحد أهمّ المساجد الّتي مرّ بها
جامع الزّمسة بحي الخضراء في تونس العاصمة. مكّنا التّحقيق من التّونسة حول مسائل العذر
بالجهل ونواقض الإسلام والأصول الثّلاثة وغيرها.

في مقدمة الذناحين وارتكبوا المجازر ضد التونسيين
الرقة أنّ هناك مشكل ما في نموذج التعديث التونسي
هل كانوا نتيجة نموذج حداثي معين لم يقطع مع
بنيته الخرافية؟!. الأرجح هو ذلك. مجتمع تتعايش
تتعايش فيه الخرافة مع مظاهر التعديث.
ومثلما كان التونسة أحد عجلات ماكينة الدم الثقيل
(نسبة إلى الدّولة) وأدواتها، فإنهم كانوا ضحية للماكينة ذا
يتحدّث التونسيّون الخارجون عن تنظيم الدّولة
هناك حوالي خمسمائة تونسي وقع إعدامهم من قبل
الدّولة الإسلاميّة منذ نشأتها!.
ربّما يكون في هذا الرقم مبالغة ولكنه يؤكد بشكل
مهمّا وهو أنّ التونسة الذين ساهموا في تأسيس الدّولة
تحوّلوا في مرحلة معيّنة إلى مشكلة أمنيّة بالنسبة إليها
عندما يتحدّث قياديو الدّولة عن مسألة قتل التونسة
يقولون: "إخواننا رحمهم الله ولكن كان عندهم غلوّ".

آخر الحروب

نوفمبر 2015

في خضمّ تفكيري في قضيّة العذر بالجهل، شعرت بالضّياع هل يمكن أن يكون كلّ ما قمتُ به باطلا؟ كنت أشارك أصحابي المقرّبين هواجسي وأفكاري. كنّا نبحث عن الحقيقة. لم يضرنا أنّنا كنّا مخطئين. كنّا في دوّامة ونفق طويل لا ندري إلى ما سيؤول بنا. ولكنّنا حسمنا أمرنا وقرّرنا عليهنا الخروج من الدّولة. يجب أن نجد مخرجا وسط هذا النّفق الطّويل الّذي لا نهاية له.

في ما يخصّني وبعد شقائي من البوصفير، قرّرت الاعتزال محاولا إيجاد الأعذار لعدم الذّهاب إلى مقرّ الكتيبة. كنت عازما على البحث عن بوصلتي قبل خوض أيّة معركة جديدة مع كتيبة سيف الدّولة.

كانت خُطّتي أمام قائد كتيبتي من أجل الهرب من القتال، هو أنّي مازلت مريضا من بقايا البوصفير. كنت أحاول كسب الوقت واعدا إيّاه كلّ مرّة بالقدوم إلى مقرّ الكتيبة دون أن أفعل.

كان قراري نابعا من مسألة تعليق آية مشكلة أو
الغزوات حتى يتبيّن لي الحق في ذات الوقت كنت أحا
إقناع نفسي بتأويل معيّن للآية التي تقول "وقال لي سي
الله لا تكلّف إلاّ نفسك"[1]. بما يعنيه ذلك من طمعي أ
يحاسبني الله فردا بحسب نيّتي.

لم أستطع مواصلة التهرّب أكثر. كان خياري ملعو
قرّرت العودة دون رغبتي إلى مقرّ الكتيبة.

أخبرنا أمير الكتيبة باقتراب معركة كبرى جديدة وأم
النّفير العامّ لها. أخبرنا أنّها ستكون في حجم معركة تسر
أكبر. هذه المرّة لم أجد من مهرب إلاّ الالتحاق بالكتيبة

كالعادة، جمّعونا وأخذونا في شاحنات إلى مكان ما قر
الغزوة. كان الأمر يتعلّق بالطّريق المؤدّية لريف حماه دون
أن ندري الاتّجاه الحقيقيّ للغزوة.

كان من الواضح أنّ الأمر يتعلّق بغزوة كبيرة بالنّظر إلى
حجم الكتائب والأسلحة الثّقيلة والمفخّخات المجهّزة إضافة
إلى تجهيز أبراج على البيكابات (المشهارات رباعيّة الدّفع)
إضافة إلى فرقة خاصّة مجهّزة بمسدّسات كاتمة.

بقينا في ريف حماه لمدّة أسبوع، تفرّقنا بين الضّيعات
المنتشرة في المنطقة.

إيذانا بقرب موعد المعركة، جاء الشّرعيّون إلى الضّيعات
وجمعوا كلّ كتيبة في مكان معيّن. احتلّت كتيبة سيف الدّولة
أحد المساجد القريبة من إحدى الضّيعات.

ترأّس الشّرعيّ أبو مروان المصريّ اجتماع كتيبتنا. ألقى
فينا كلمة. كان أبو مروان المصريّ أحد الشّرعيّين الّذين

[1] صحيح البخاري (2615) مسلم (140) عن رسول الله قال "بينما الثلاثة الرهط فقراء يا رسول الله
ولا يشبع والثوب الذي يواري عورته إلا بالخبز والماء على الجوع
والتمر، وفقر الشخص الذي يواري عورته المعوذتين"

له مكانة في الكتيبة ولأسباب أجهلها كان له كره غريب
تجاه التونسيّ.

خطب فينا قائلا "إنّه ها قد بدأ العدّ التّنازليّ للمعركة
وبعد سويعات قليلة ستفتح ولاية جديدة في الدّولة إسمها
ولاية إدلب".

إلتأمت أركان المسجد بالتّكبيرات. كبّرت مع من كبّر لم يكن
لي في هذه الأجواء الحماسيّة النّارية إلاّ أن أكبّر فيمن يكبّر وأن
إنّه ما كانوا ليرتدّون وإلاّ فإنّي سأصبح محلّ شبهة!.

كنت حزينا لا أدري ما أنا فاعل. قد أموت في معركة
لست مقتنعا بها. كنت جنديّا مثل آلاف الجنود الّذين
تاركوا مجبرين في حروب سابقة في مناطق عدّة في تاريخ
هذا العالم. بعضهم قضى نحبه وبعضهم نجا دون أن
يكون لهم الخيار في تحديد مصيرهم. الأكيد أنّ هناك
شبابا مثل حالي في الدّولة. ذهبت دمائهم هدرا لأنّه لم تكن
لهم الجرأة ولا القدرة على مغادرة هذا النّفق الطّويل. أسوأ
الفرضيات أن تكون جنديّا مطيعا في المكان الخطإ والزّمان
الخطإ كحالي في غزوة إدلب المنتظرة.

لم أكن أملك من أمري شيئا. ماذا لو جاهرت أميري بعدم
رغبتي في القتال؟ الأكيد أنّ التّهمة جاهزة وحكمها واضح.
كثيرون قبلي سجنوا بسبب "التّولّي من الزّحف"[1] هذا فضلا
عن الفضيحة الّتي ستلاحق صاحبها في الرّقة بهمة الجين.
وإذا تأكّد المحقّقون أنّ وراء هذا التّولّي شبهة من قبيل

شكوك في الجوسسة أو الشكّ في الولاء إلى القتل فالأمر سيكون القتل.

لم أجد وسط هذه الهواجس والشكوك إلا الصلاة والقيام ليلا والدّعاء لله في أن يحسن خاتمتي.

الإشكال في معركة إدلب المنتظرة أنّ المدينة كلها واقعة وقتها تحت سيطرة المعارضة السّورية وأساسا جبهة النّصرة. عسكريّا كان هناك مشكل وهو أنّه تفصلنا عنها مساحات شاسعة يسيطر عليها النّظام السّوري من بينها طريق نحن مطالبون بتجاوزها.

كان المطلوب منّا قطع هذه المسافات وقطع هذه الطّرق الواصلة بين المدينة وأثرية- خناصر، للوصول في مرحلة أولى والسّيطرة على مطار "أبي الظّهور" العسكريّ الّذي سيطرت عليه جبهة النّصرة في سبتمبر من سنة 2015، لنصل بعدها إلى الحواجز الأولى لمحافظة إدلب.

من الواضح أنّ المعركة ستكون معركة كبرى. بعد كلمة الشّرعيّ جاء دور العسكري ليكشف لنا عن تكتيك المعركة وأهدافها. وكعادة كلّ معركة جيء بخرائط كبيرة نصبت على حائط المسجد وبدأ العسكري في تحديد النّقاط المستهدفة وطرق التّحرك.

كشف لنا القائد العسكريّ أنّ مجهودا كبيرا سيقوم به الأمنيّون التّابعون للدّولة والمنتشرون في الجبهة المقابلة للمعركة أي في مدينة إدلب وأريافها. تتمثّل مهمّتنا، باعتباري من المجموعات الأولى الّتي ستتسلّل هو تجاوز طريق المتلمية وأثرية - خناصر.

كان عنصر المفاجأة الّذي تعتمده الدّولة أحد التّكتيكات العسكريّة الّتي اشتهرت بها بمنطق اللاّمتوقع في الحروب. كانت الدّولة قويّة في اعتماد هذا الأسلوب من عمليّات التّسلّل الخاطفة في المكان والزّمان غير المتوقّعين. في هذه المعركة فضلا عن المفاجأة الّتي سنحدثها للنّظام بعبور طريق ومنطقة تتبعه عسكريّا، فإنّنا سنصل إلى منطقة تنتمي إلى مناطق سيطرة المعارضة وهو الأمر الّذي سيقوّي شكوك البعض بأنّ الدّولة الإسلاميّة تنسّق مع النّظام!

كان التّكتيك العسكريّ مبنيّا على عنصر مفاجأة قوّات المعارضة والنّظام في آن واحد.

بُنِيَ التّفكير في السّيطرة على إدلب إنطلاقا من الجهد الاستخباراتي الكثيف الّذي تقوم به الدّولة داخل هذه المدينة وأريافها. كانت أخبار الاغتيالات الّتي تنفّذها العناصر السّرّيّة للدّولة في المدينة تصلنا تباعا. كانت الدّولة تمتلك جهازا أمنيّا قويّا ويعتبر من أقوى الأجهزة الأمنيّة الفاعلة من بين جميع الفصائل المسلّحة المعارضة للنّظام في سوريا آنذاك.

قبل نفيرنا إلى غزوة إدلب بأيّام أصدر أبو محمّد العدناني كلمة صوتيّة بعنوان "قل للّذين كفروا ستغلبون"[1] من إنتاج مؤسّسة البتار توعّد فيها كالعادة الأنظمة العربيّة والولايات المتّحدة الأمريكيّة ولكنّه أدرج في خطابه جملة صغيرة مرّت دون أن تلفت الانتباه وهي قول: "سنحرّر المحرّر لأنّ المحرّر يجب أن يحكم بشرع الله".

[1] كلمة صوتية لأبي محمد العدناني من إنتاج مؤسسة البتار الإعلامية بتاريخ 13 أكتوبر 2015.

لم تسلم المهاجر الأوروبيّة من رياح العركات الإسلاميّة
الّتي هبّت على العالم العربيّ. أصبحت هذه المهاجر ملاذا
لكلّ التّنظيمات الأصوليّة المطاردة في بلدانها. كان سقوط
المرحلة في العالم العربي وفي أوروبا هو خروج التيار
الإسلاميّ من قمقمه.
نتيجة للحياة المهجرية والخوف الدّائم بين العائلات
المهاجرة من ضياع أبنائها. حرصت أمّي على التّمسّك أكثر
بالفرائض الدّينيّة وتربيتنا تربية تونسيّة محافظة.
نشأت في هذه الأسرة. وكان ميلادي حدثا سعيدا وهيا
بالنّسبة لكلّ العائلة الموّسعة. لا فقط لأنّي جئت بعد
فتاتين ولكن أيضا للمحبّة الخاصّة الّتي تكنّها أمّي وجدّتي
للذّكور. احتفلت عائلتي بحدث ميلادي بسبعة ليالٍ وسبعة
أيّام من الأفراح والبهجة.
كنّا نعود تقريبا مرّة كلّ عام إلى تونس وتحديدا إلى
مدينة نابل منشأ والدّيّ والمكان الّذي يجمع كلّ عائلتنا
الموسّعة.

لم تبق لي ذكريات كثيرة في ذهني عن طفولتي في
دورتموند ولكنّي كنت أتذكّر أنّي كنت شغوفا، في العمارات
السّكنية الّتي نقطنها، باللّعب مع صديقاتي من بنات
المهاجرين. أتذكّر أنّ السّبب الوحيد الّذي كان يفسد عليّ
شغفي باللّعب مع بنات الجيران هو اقتراب طفل من أبوين
ألمانيّين ورغبته في اللّعب مع بنات الجيران. كنت أمقته
فقط من أجل هذا السّبب.
قضّيتُ في دورتموند طفولة سعيدة. أسعد فيها أكثر
بالذّهاب يوم الأحد صحبة والدتي إلى مقرّ الهاتف العموميّ

لمدينة جدّتي في بيتها في نابل. كنت قريبا جدّا من جدّتي
الّتي وكنت محلّ عناية خاصّة منها كلّما عدتُ صيفا. كنت
شديد التّعلّق بأمّي وكنت أختفي وراء جدّتي كلّما قمت
بحماقة وبالمقابل لم أكن متعلّقا كثيرا بجدّتي لأبي بسبب
بعدها الدّائم لأمّي وكيف أنّها بحسب رأيها قد غيّرت طباع
أبي وأبعدته عنها.
قضّيت الخمس سنوات الأولى من عمري بين شوارع
دورتموند. مازلت أتذكّر كُرات الثّلج الّتي نرمي بها على بعضنا
البعض عندما كنّا أطفالا. ومازلت أذكر البيوت والقصور الّتي
بنيها والّتي سرعان ما نهدمها في شتاء المدينة البارد. أتذكّر
نزهتي مع أمّي على حديقة حيوانات المدينة وإعجابي بوحيد
القرن. أتذكّر دراجتي الهوائيّة الصّغيرة المتكوّنة من ثلاث
عجلات الّتي جاءتني هديّة من أحد أصدقاء والدي والّتي كنت
أزمجرها في أروقة البيت وتحت باب العمارة عندما تسمح لي
والدتي بالخروج.
كيف تحوّلتْ كرات الثّلج البيضاء الّتي كنتَ تلعب بها في
دورتموند في طفولتك إلى عبوّة ناسفة سوداء اللّون وزنها
خمسة كيلوغرامات رميتها على مستودع للجيش السّوريّ في
غزوة تدمر؟!. مالّذي حدث لك؟! ما أطول رحلتك!
هناك ربّما حوادث بقيت عالقة في ذهني أكثر من غيرها
والّتي كثيرا ما ردّدتها أمّي على مسامعي لمّا كبرتُ. أتذكّر أنّي
خرجت مع والديّ في أحد شوارع المدينة عندما كنّا في زيارة
لإحدى عائلات المهاجرين من أصدقائنا. حينها كنت كجميع
الأطفال في سنّي أسبق والديّ في المشي وأجري أمامهم.
كانوا خلفي حينما سبقتهم مناديا عليهم

كانت لي ألمانيا حلما معجونا كجزء على أمل الرجوع
يوما ما إلى هناك. كنت كلّما فكّرت في العودة الإجبارية
عطّل هذه العودة. قادتني الحياة إلى قدر آخر في مرفقم
وضعوا بيني وبين هذا الحلم جدرانا عالية
جاءت الثّورة فانشأت حلما ألمانيّا في رأسي كان
تونس في أيّام الثّورة الأولى أجمل من دورتموند وبرلين
وغيرها من حواضر هذا البلد.
في محنة الإيقاف والسّجن بعدها تخلّيت عن حلم
الرّجوع إلى ألمانيا لأنّني بنيت في ذهني حلما أجمل: حلم
الهجرة إلى الشّام. كانت الشّام ألمانيا الحقيقيّة في ذهني
أتذكّرُ لمّا كنتَ في مدينة الباب حينما جاءك منصر
المكتب الإعلاميّ لولاية حلب وصوّب نحوك الكاميرا وأجبرك
على الكلام. يومها قلتَ حرفيّا "نحن تركنا ألمانيا وتركنا
تونس من أجل القدوم إلى دولة الإسلام الّتي لا يُظلم فيها
أحد". ثمّ انهارت دولة الإسلام في ذهنك. ثمّ هربتَ.
المهمّ مرّت سنواتي الخمس جميلة في ألمانيا الحقيقيّة
وقرّرت أسرتنا العودة التّدريجية إلى البلاد.
سجّلتني أمّي في أحد رياض الأطفال في مدينة نابل
أتذكّر إلى اليوم إسم الرّوضة الّتي سُمّيت على إسم
مدرّستها: روضة مادام آتية. آتية من أين؟! لا أدري.
المهمّ كنت أحبّ هذه المدرسة الّتي تركت لي أولى
ذكريات طفولتي الهادئة والجميلة.

جهاد إمام نابل

رغم استقرارنا النّهائيّ بمدينة نابل، كنتُ أتردّد من
حين إلى آخر على دورتموند. أصبحت العمليّة عكسية هذه
المرّة. كلّ صيف كنّا نسافر إلى ألمانيا بينما كان استقرارنا
بمدينة نابل في منطقة الوطن القبلي التّونسيّ.
حينما عُدتُ إلى نابل في أواسط التّسعينات كانت البلاد
تعيش على وقع نهاية الصّراع بين الحركة الإسلاميّة ممثّلة
في حركة النّهضة ونظام الرّئيس بن علي. حُسم وقتها
الصّراع لصالح نظام الحكم وزُجّ بالمئات من أنصار حركة
النّهضة في السّجون فيما فرّ البقيّة إلى خارج البلاد. كانت
المعارضة الدّيمقراطيّة وقتها تبحث عن ذاتها في أتون هذا
الاستقطاب الثّنائيّ. في تلك المرحلة بدأت في المخيّلة
الشّعبيّة صناعة مقولة محاربة التّديُّن والإسلام المطارد في
تونس.
ستتشكّل مراهقتك في هذه الأجواء.
في سنّ السّادسة دخلتُ إلى المدرسة الابتدائيّة والمعروفة
بمكتب البحر أو بتسميتها الإداريّة "حبيب الكرمة" في وسط

ترددت على مسجد الكرمة وطلبت من احد الشيوخ من كبار السنّ من الذين اتخذوا لهم زاوية دائمة في المسجد أن يدلّني على كيفيّة حفظ القرآن نظرا إلى عدم انتظام حضور النوبي إلى جامع الكرمة لم أتمكّن من الحفظ عليه. لم يفارقني همّ حفظ القرآن ما زاد في تغذية رغبتي هو الجوائز التي يعطيها والي تونس للحافظين لكتاب الله كلّ شهر رمضان.

كنتُ شاهدا على تسليم الجوائز من أعلى سلطة رسميّة في ولاية نابل في أحد المساجد يوم السابع والعشرين من رمضان وهو اليوم الموافق لليلة القدر بالنّسبة إلى عموم التّونسيّين. نمتْ رغبتي في حفظ القرآن أتذكّر أنّي كنت يوما في مسجد الكرمة مع ابن خالتي الذي يكبرني سنّا. عندما سألته حول سبب كلّ هذا الجمع في المسجد. قال لي يومها إنّهم حفظة القرآن وأضاف بسخرية "هذا ليس حالك أنت!".

يومها قطعت وعدا لابن خالتي بأن أكون السّنة القادمة من بين المكرمين الذين سينالون جائزة في مثل هذا المجلس. ابتسم ابن خالتي. لا أدري هل كانت ابتسامته سخرية أم استغرابا من الوعد الذي قطعته على نفسي.

كنت وقتها في سنوات الإعدادي. لم تكن الدّراسة تعني لي الكثير ولكن حفظ القرآن أصبح لي هدفا.

في نهاية شهر رمضان من ذلك العام، عُدت إلى إمام مسجدنا وطلبت منه أن يدلّني على من يعلمني حفظ القرآن. قادني إمام مسجدنا إلى جامع الرّبط في منطقة تحمل نفس المسمّى حيث وجدت مؤدّبا يُحفّظ المراهقين

والأطفال القرآن. كان لي هذا المسجد اكتشافا. في هذا المسجد تمنّى لي وقتها لقاء كثير ممّن كنت أسمّيهم "الملتحين".

لم يكن مشهد الملتحين مألوفا في مسجد الكرمة في حي "المنيهلة" حيث أسكن.

في مسجد الرّبط جالست حُفّاظا صغار السّنّ. منهم من يحفظ المصحف كاملا ومنهم من يحفظ شطره وآخرون يحفظون الخُمس أو الأربعين. كنت أغبطهم من أجل هذا.

بدأت أجواء أخرى جميلة مع أولاد وبنات مراهقين في مثل عمري انهمكت في حفظ القرآن وتمكّنت من حفظ خمسة أحزاب أي إلى غاية سورة الجمعة بتلاوة قالون.

كنت كُلّما حفظت سورة جديدة، سارعت بإخبار أمّي بسرور كبير. ورغم تشدّد مدرّسنا في تحفيظنا وتأديبه لي من أجل الأخطاء الّتي أرتكبها، فإنّ ضربه الخفيف كان بردا وسلاما عليّ بخلاف ضرب المعلّمين في المدرسة. كان مدرّس القرآن الّذي يُسمّى في اللّهجة التّونسيّة "المِدّبْ" يؤكّد لي في هذه المرحلة أنّه ليس من المُهمّ حسن التّلاوة ولكنّ الأهمّ هو قواعد الحفظ. عشت في مسجد الرّبط أجمل أيّامي في ظلال القرآن.

جاء شهر رمضان وأوفيت بوعدي الّذي قطعته لابن خالتي. تسلّمت أوّلا جائزة في مسجد الرّبط من أجل حفظي لخمسة أحزاب دون أن يكون يومها أحد من أقاربي شاهدا على تكريمي.

كما تحصّلت بعدها على جائزة أخرى في مسجد الكرمة بعد حفظي لعشرة أحزاب. سلّمها لي بكلّ فخر والي نابل.

قبل تكريمي بالجائزة، اعترضني معتمد الولاية في شارع حيّنا وأمدّني باستدعاء لتسلّمها. قال لي بومها: "إنك من بين الفائزين وسيقع تكريمك من قِبَل الوالي يوم السّابع والعشرين من رمضان".

حملت المكتوب واتّجهت مسرعا إلى البيت. بشّرت أمّي بالخبر السّار. كنت في نابل المدينة الشّاب الوحيد وقتها الّذي تحصّل على هذه الجائزة. سُعدت أمّي كثيرا بالأمر وقبّلتني وعفت عنّي بعد أن خاصمتني لعدّة أيّام بسبب مشاكساتي.

تسلّمت الجائزة. كانت أمّي تشاهدني من سدّة النّساء بالمسجد وسط حضور جمع كبير من أقاربي. كنت محلّ فخر الجميع.

أتذكّر أنّه في نفس اليوم الّذي تسلّمت فيه جائزة حفظ القرآن، وقع طردي لمدّة يوم من المعهد بسبب مشاكسة مدرسيّة. استغرب الأستاذ الّذي كان سببا في طردي يومها من وجودي في المسجد. أعتقد أنّه تساءل باستغراب عن المفارقة الّتي تجعل تلميذا مشاكسا ومعروفا بمعاكسته للفتيات، يجلس في المسجد بوقار مرتديا جبّة تونسيّة ويتسلّم جائزة من أعلى سلطة سياسيّة في المدينة!

تجاوزت الجوائز الّتي حصلت عليها بفضل حفظي للقرآن المستوى المحلّي في ولاية نابل، لأشارك في مسابقة

قرآنيّة على المستوى الوطنيّ نُظّمت في قناة "حنبعل" التونسيّة الخاصّة في شهر رمضان.

تمكّنت مرّتين من المشاركة في هذه المسابقة الّتي بُثّت على التّلفاز وشاهدتها عائلتي وكلّ أقربائي وأصدقائي في الحيّ. حصلتُ وقتها على جائزة على المستوى الوطنيّ عن طريق تصويتهم المشاهدين بواسطة رسائل قصيرة يرسلونها على رقم خاصّ.

بعد إتمام حفظي للعشرة أحزاب، كانت لي الرّغبة في حفظ السّور الطّويلة انطلاقا من سورة البقرة، غير أنّ مؤدّب جامع الرّبط رفض الأمر. كان الأمر بالنّسبة لي محبطا ممّا دفعني إلى التّوقّف عن التّردّد على الجامع.

بعد ذيوع صيتي كحافظ لكتاب الله في الحيّ، عرض عليّ أحد أقاربي الدّخول في مدرسة لحفظ القرآن في تونس العاصمة. رحّبت بالفكرة غير أنّ والدتي اعترضت في البداية قبل أن توافق في النّهاية.

انضممت للدّراسة في منطقة سكّرة بمدرسة عمر بن الخطّاب لتحفيظ القرآن الّتي تضمّ أبرز المقرئين وحفّاظ القرآن في تونس على غرار حسن الورغي وعبد الرّحمان الحفيان ومحمّد المشفر.

كانت المدرسة الّتي أسّسها حسن الورغي سنة 1990، تنشط بصفة طبيعيّة في عهد الرّئيس بن علي بالنّظر إلى كون المشرفين عنها من الأشاعرة، هذا فضلا على كونها مدرسة لا تدرّس إلاّ القرآن الكريم.

كنت أتردّد على هذه المدرسة أيّام الأحد في الفترة المدرسيّة. ظللت على هذه الحالة مُتردّدا بين عودتي العاصمة ونابل لمدّة عام رغبة في حفظ القرآن لم يشترط عليّ المشرفون على المدرسة القرآنية أيّ شروط في خصوص السّور الّتي أرغب بحفظها كان حفظ القرآن كاملا هدفا لي. تحوّل من معجزة إلى لإرضاء أمّي إلى عشق شخصيّ. لم ينقطع هذا العشق في كلّ مراحل حياتي اللاّحقة. خرجت من تونس بعدها بسنوات وأنا حافظ لخمسة وأربعين حزبا ثم أكملت ما تبقّى من الأحزاب في الرقّة.

كنت في الدّولة أغتنم الأوقات الّتي تتخلّل الفروض من أجل مراجعة ما حفظته وحفظ آيات وسور جديدة ظلّ هذا الكتاب محفّزا لي ومرشدا. قد أزيغ أيّاما وقد أشرد ولكنّه إنغرس في قلبي مسيطرا على حياتي المهمّ. في مراهقتي في مدينة نابل ظلّ حبّي لحفظ القرآن أحد أهمّ اهتماماتي في تلك الفترة على الرّغم من دخولي إلى إعدادية محمود المسعدي وقتها وبداية إدماني على التّدخين وشغفي بمعاكسة الفتيات الجميلات.

لم تكن حياتي الشّبابيّة وقتها مع آخر تسريحات شعري الّذي أفتخر به وعلب السّجائر الّتي ألتهمها والعيش مع قصص الحبّ البريئة، في تناقض مع إقبالي على حفظ القرآن. كان كلّ هذا ينتمي إلى شخصيّتي المتعدّدة كنت بالتّعبير التّونسي "مْفَرْتِع" أي فتى مجنون.

في مرحلة الثّانوية في نابل تعرّفت على الكثير من الأصدقاء الجُدد. كان من بينهم شابّ أنيق يدعى "أسامة".

ما جذبني في شخصيّة هذا الأخير أنّه يجمع بين جانبين متناقضين وهو أنّه ملتح ومتديّن و يمارس أيضا رياضة الرّقص الشّبابيّة والّتي أعرف بالبريك Break كما كان مغرما بالزّجاجات النّارية مثلي.

ما جذبني في أسامة أيضا أنّي كلّما تطرّقت معه إلى مسألة الجهاد كان يوافقني الرّأي. لم يكن الجهاد في ذلك الوقت يعني لي شيئا غير تحرير فلسطين وردّ الظّلم عن الفلسطينيّين كما يراه جميع التّونسيين تقريبا.

بالمقابل كان أسامة يحدّثني عن مراقبة المتديّنين من قبل رجال الأمن في تونس واعتقال المتديّنين والتّضييق عليهم أثناء خروجهم من المساجد. كان يحدّثني عن "الإخوانجيّة" أي الإخوان وما وقع لهم طوال السّنوات الماضية كان كلّ هذا غريبا بالنّسبة إلى شابّ يحبّ الله والقرآن في مثل سنّي.

كان كلّ ما يرويه لي أسامة من قصص التّعذيب ومراقبة المتديّنين يثير مخاوفي وريبتي في الوقت الّذي كنت فيه متشبّثا بصداقته. ومن خلال أسامة تعرّفت على متديّنين آخرين من أصدقائه.

مع أسامة بدأت الاستماع إلى بعض المشايخ المتلفعين وكان من بينهم خالد الرّاشد المعروف بدروس "الرّقائق" والّتي تتحدّث عن الموت وعذاب القبر وعن الجنّة والنّار بطريقة تُثير الكثير من العواطف. يعرف عن الرّاشد أنّه بكّاء في دروسه. كنت من المتابعين لدروسه باستمرار. كنت أنزّلها من الأنترنت لأستمع إليها أثناء جولاني في المدينة.

في خضمّ كلّ هذه التّغييرات الّتي وقعت لي في تلك الفترة، كانت أمّي مغيّبة تماما عن عالمي الخاصّ كنت أحيانا تقلق حينما أتأخّر في العودة من صلاة لكن دون أن تذهب في قلقها بعيدا. كانت تتبع لي هامشا كبيرا من الحرّية لأنّها تثق في كوني لن أرتكب ما يغضبها.

كنت أعود أحيانا إلى المنزل برائحة الدّخان بعد سهرات السّمر مع بعض صديقاتي من الفتيات، بالتّوازي مع عالمي الآخر عالم حفظ القرآن والفئة المسلمة وحلم الجهاد في فلسطين ورفاق خالد الراشد.

لم أشعر بأيّ تناقض بين ارتدائي سراويل الجينز وقبّعات الهيب هوب وارتدائي من الغد لقميص صلاة أبيض ناصع للذّهاب إلى المسجد.

تعايشت مع هذين العالمين في داخلي دون تضارب ولا تناقض إلى حين. كان هذان العالمان متواجدين في غالبيّة الشّباب الّذين أعرفهم من حولي. يحبّون الله وحفظ القرآن والجنّة ويخافون النّار ولكنّهم يعيشون على وقع العصر: موسيقى وسهرات العلب اللّيلة. "على نفسها جنت براقش".

بالنّسبة إليّ كانت هناك خطوط حمر في حياتي الشّبابيّة وهي أنّي لم أشرب خمرا ولم أزن يوما، هذا الأمر الّذي نجحت في التّمسّك به حتّى التزامي الكامل فيما بعد.

مضت الأيّام وتوطّدت فيها صداقتي مع أسامة إلى غاية اليوم الّذي عرض علي فيه أن أشاركهم مباراة كرة قدم في إحدى بطاح المدينة.

مثّلت كرة القدم غراما آخر لي في مراهقتي حيث انضممت وفقها إلى الملعب التّابلي وهو الفريق المحلّي الّذي يمثّل حيّي.

المهمّ وفي ما يخصّ مباراتنا قال لي أسامة يومها إنّ المباراة تجمع "الإخوة". كان سنّي وقتها سبعة عشر عاما. وصلت إلى الملعب. لاحظت في ذلك الحين أنّ كلّ الشّباب تقريبا وقتها ملتح. كان عددُنا تقريبا اثني عشر شخصا. بدأنا المباراة.

فجأة طُوّق الملعب من الجهات الأربع. كان رجال الأمن الشّامي والّذين علمت فيما بعد أنّها الفرقة المختصّة في كلّ مكان حولنا. جمعونا وقادونا جميعا إلى منطقة الأمن بالمدينة.

كان المشهد صادما بالنّسبة إليّ. كانت هذه فاتحة مرحلة جديدة من حياتي.

إرهاب وكرة قدم!

شتاء 2008

كان جَرُّنا إلى منطقة الشّرطة وسط مدينة نابل بهذه الطّريقة وبسبب واهٍ، هو مباراة كرة قدم مع شباب ملتح، بمثابة دليل آخر أنّ كُلّ الكلام الّذي كنت أسمعه حول محاربة الدّولة للتّديّن والمتديّنين في تونس كلام صحيح. كانت هذه الحادثة حافزا آخر لي لمواصلة الطّريق الّذي اتّبعته فيما بعد.

تميّزت نهاية سنوات الألفين في تونس بحملة أمنيّة على تنامي التيّار السّلفي الجهادي. فقد شهدت تلك السّنوات نشاطا كبيرا لخلايا التّسفير للقتال إلى جانب المجموعات المسلّحة في العراق[1]. أحصت المنظّمات الحقوقيّة في ذلك الوقت اعتقال حوالي ثلاثة آلاف شابّ على خلفيّة قانون مكافحة الإرهاب.

بمجرّد إدخالنا إلى مركز الشّرطة، وقع عزلي مع قاصر آخر في الرّواق، وقادوا بقية المجموعة إلى غرف أخرى. سرعان ما تبادر إلينا صوت الضّرب والصّراخ. كان من الواضح أنّهم بدؤوا تحقيقا من نوع خاصّ مع بقيّة

[1] كتاب "تحت راية العقاب: سلفيون جهاديون تونسيون" فصل مهاجرون في بغداد ص93

في منطقة الشرطة أبدى أبي استغرابه من التصرف على مراهق صغير مثلي في ملعب بلدتي والاشتباه في كون هو جماعة إرهابيّة كان الأمر بالنّسبة الى أبي بمثابة الشبه "السّريالي" وهو الّذي عاش لسنوات طويلة في بلد يحتر حقوق الإنسان والحرّيات العامّة والخاصّة من قبل أنا بعد ساعتين تقريبا أطلق سراحي. خضعت لجلسة تحقيق أخرى وزعمة من المحقّقين في نسج سيناريو سطوه في أذهانهم في كون مباراة كرة القدم الّتي لطّمت لم تكن إلا ضمن تدريبات عسكريّة لعمليّات إرهابيّة قادمة!

طبعا كان هذا من صنع خيال المحقّقين. أعلنت أمام المحقّق ما رويته لزميله في اللّيلة السّابقة وهو "دعوني لي المباراة من قبل صديقي أسامة وبالتّالي مشاركته مباراة كرة قدم مع أصدقائه لا أكثر ولا أقلّ".

علمت فيما بعد أنّه وقع نقل بقيّة المتّهمين ومن بينهم أسامة إلى العاصمة تونس، في حين أطلق سراحي. عدتُ إلى منزلنا ناقما على رجال الشّرطة والعديد من الأسئلة حول التّضييقات على التّدين والمتديّنين في البلاد.

منذ عودتي من ألمانيا، لم يسبق لي أن تعرّضت إلى الرّهبة والخوف والمهانة كانت حادثة الملعب الأولى بالنّسبة إليّ. كانت هذه الحادثة محطّة في رحلة طويلة من الإهانات الّتي لحقتني فيما بعد.

لا أبالغ في القول بأنّي حتّى سنّ السّابعة عشر تقريبا عشت أرغد عيش في رعاية عائلتي بمعاملة تشعرني بعزّة النّفس والاحترام والكرامة. بعد هذه الحادثة تهشّمت أنّ هناك عالما آخر خارج بيتنا.

مرّة أخرى وجّهت اللّوم إلى والدتي وحمّلتها مسؤوليّة لا ما يحدث نتيجة البقاء في تونس. ذكّرتها أنّي طالما حثّت بها أن تعيدني إلى ألمانيا دون جدوى.

أدّيت والدتي بأنّهم حقّقوا معي حول صلاة الصّبح وحول المساجد الّتي أتردّد عليها وحول الأشخاص الّذين ألتقيهم. قلت لها مرّة أخرى: "أهذه تونس الّتي تريدينني أن أعيش فيها؟" بكت أمّي كثيرا يومها دون أن تدري ما هي فاعلة.

بعد حادثة الملعب كان قراري واضحا. لن أبقى في هذه البلاد. سوف أعود إلى ألمانيا حيث ولدت. سوف أهاجر لأعيش هناك بسلام وبشكل دائم.

في خضمّ تحضيراتي للعودة إلى ألمانيا تفطّنت إلى انتهاء صلاحيّة جواز سفري. قرّرت الرّجوع هذه المرّة إلى منطقة الشّرطة من أجل تغيير جواز سفري. قدّمت لهم جوازي القديم وبقيت أنتظر الجديد. وطال الانتظار دون جدوى.

عدت إلى منطقة الشّرطة أكثر من مرّة وكانت الإجابة دائما أنّ الجواز لم يجهز بعد. فهمت أنّي لن أناله أبدا. كانت لعنة حادثة الملعب تلاحقني وسببا مقنعا بالنّسبة إليهم لحجز جواز سفري.

ربّما كانت نقمتك على هذا الجواز الأخضر فيما بعد ناتجة عن الفترة الّتي مُنعت دونه لسبب تافه في بيت أمّ المجاهدين في إسطنبول بعدها، لم تتردّد في أن تسلّمه لها طائعا. لم يعد وقتها يمثّل لك شيئا ذا بال. مجرّد ورقة عبور انتهت صلاحيّتها. نعم في عقيدتك هو أيضا جواز وطنيّات لا أكثر ولا أقلّ. لم يتردّد مهاجرون عديدون في

أصبحت مجموعتنا محسوبة على الخطيب الإدريسي وكنّا نتبعه في كلّ قراراته ورؤيته للمشهد العامّ في البلاد حينما رفض الخطيب تسمية "أنصار الشّريعة" التي أطلقت على تيّار السّلفيّة الجهاديّة بتونس من قبل معمّوا سيف الله بن حسين عقب مؤتمر سكّرة شمال العاصمة في أفريل 2011. ساندناه في موقفه. اعتبر الإدريسي وقتها هذه التّسمية تقسيما للمسلمين. لم ننضمّ كمجموعة إلى "أنصار الشّريعة" ولكن كانت لنا علاقات وثيقة بإخواننا في التيّار السّلفي الجهاديّ بشكل عامّ.

في إطار التّضامن الجهاديّ، كنّا نشارك في كلّ التظاهرات الّتي ينظّمها التيّار سواء في العاصمة أو في غيرها من المدن فضلا عن علاقتي الوطيدة بأيمن مشماش كنت دائم المرافقة لمحمّد الزّرن ورفيق الغول. كنّا رباعيّا لا يفترق كنّا نشاكس رجال الأمن أينما التقينا بهم. كلّما مررنا بحاجز كنّا لا نتوانى عن وصفهم بأبشع النّعوت. كانوا يلتزمون الصّمت ولا يقومون بأيّة ردّة فعل. في تلك الأيّام أصبحت دائم الاستعمال لمصطلح "الطّواغيت"، كلّما تعلّق الأمر بالدّولة ومؤسّساتها.

أبعد من مجرّد خروجنا الاستعراضي أمام رجال الأمن، أصبح لنا نفوذ وسلطة وهيبة في نابل. تزايد عددنا. كنّا نتحرّك أحيانا جماعات من أجل نصرة شخص ما أو نهي أشخاص آخرين عن الموبقات.

لم يكن سبّ الجلالة ليمرّ بسلام إذا ما سمعه أحد منّا. بالتّوازي كان البعض يلتجئون إلينا من أجل إنصافه

بعد تأمّ لسلطة الدّولة وقدرتها على فرض النّظام في الشّهر الأولى للثّورة.

لم تمرّ تلك الأشهر دون إجبارنا للعديد من الأئمّة الّذين كانوا محسوبين على النّظام السّابق على التّخلّي عن إمامتهم لمساجد. أبرز هذه الأحداث وقعت في الجامع الكبير بنابل حينما قمنا بإجبار أحد الأئمّة على النّزول من منبر الجامع. كان ذاك الجامع من حركة النّهضة يقومون بدور مزدوج في نظري، فمن جهة كانوا يحرّضون شبابنا من أجل إزاحة إمام هذا المسجد أو ذاك، ومن جهة أخرى وعندما تندلع المواجهات يخرجون إلى وسائل الإعلام يدينون مثل هذه الحوادث!

منذ الأشهر الأولى للثّورة قرّرت العودة من جديد إلى مقاعد الدّراسة سجّلت في معهد خاصّ في مستوى البكالوريا. فوجئ أصدقاء الدّراسة السّابقين بلحيتي الكثّة الطّويلة في الحقيقة، لم يغيّر مظهري الجديد من عاداتي القديمة في المناعية والمشاكسة ولكنّي أصبحت أكثر التزاما وخاصّة مع الفتيات.

وبالنّظر إلى طبيعتي الشّبابيّة المرحة أصبحت شديد التّأثير في وسطي الدّراسيّ. نجحت في الكثير من الأحيان في تغيير التّصوّر الشّائع حول السّلفيّين. كان الشّباب الجانح والّذي ليس له علاقة بالتّديّن يوافقني في كلّ ما أقول في أيّ نقاش ديني. كان كلّ الشّباب تقريبا مع تحكيم الشّريعة وإقامة الجهاد والقناعة بأنّ ما يرتكبونه من فواحش لا يوافق تعريفهم بكونهم مسلمين!

الفرق بيني وبين الجانحين لم يكن في مفهومهم للإسلام والتّديّن والجهاد ولكن في كونهم لم يقترفوا بعد

الالتزام بهذه المبادئ "ربّي بهديانا" كما يقول معظم الشباب
عندما تدعوهم الى كتاب الله وسنّة رسوله!
لم تكن عودتي الى الدّراسة، للثّراسة بعدّ ذاتها، كما
الأمر بغاية إرضاء رغبة أمّي وإيجاد فضاء للنّشاط والتّسلية
لم أنجح في امتحان البكالوريا في تلك السّنة، فاخترت
مقاعد الدّراسة، لم يكن لهذا الأمر أيّ تأثير في حياتي، كنت
مهتمّا بأشياء أخرى.
تابعت جولاتي بين الجوامع من أجل دروس المشايخ
الّذين تقاطروا على منطقة الوطن القبلي ومدينة تلّ
بالذّات. عدتُ بقوّة إلى دروسي في حفظ القرآن. كانت تلك
الأيّام بمثابة سنوات الفتح الكبير في شخصيّتي.
كان الزّمن زمني والأمر أمري. تقدّمت النّاس وأمّتهم في
صلاة التّراويح في مسجد الفلاح في سيدي عاشور بتلّ.
في تلك الأيّام شاركت رفقة صاحبي رفيق الغول في دورة
شرعيّة نُظّمت في مدينة القيروان في أحد المنازل في هذه
الدّورة الشّرعيّة التقيت العديد من شباب التّيار الجهاديّ
كسيف الدّين الرّايس الّذي تقلّد في تلك الفترة مهمّة
النّاطق الرّسمي باسم أنصار الشّريعة. كما جالست العديد
من الشّباب الّذين التقيت بهم فيما بعد في الشّام.
تعرّفت في الدّورة الشّرعيّة أيضا على محمّد البختي كان
وقتها أمير الغرفة الّتي جمعتنا وكنت نائبه. توفّي البختي بعد
لقائنا ببضعة أشهر أي في نوفمبر 2012 بعد إلقاء القبض
عليه في أحداث السّفارة الأمريكيّة ودخوله في إضراب عن
الطّعام في سجن المرناقيّة. منذ أن التقيته في القيروان

أصبحنا صديقين لا نفترق. في هذه الدّورة جُلب لنا مشايخ
مختّصون معتمدون من الجزيرة العربيّة ومن مصر.
دامت هذه الدّورة الشّرعيّة حوالي شهرين. كانت الدّروس
تدور حول شروط لا إله إلاّ الله والأصول الثّلاثة وكلّ الأدبيّات
الّتي تتعلّق بالمنهج السّلفيّ الجهاديّ. انتهت الدّورة وقتها بمنحي
جائزة حفظ القرآن.
عمرتني في تلك الفترة نشوة حقيقيّة. كنت أتجوّل بين
المساجد وأتابع الدّروس وأضحك مع الإخوة وأفاكهيهم. لم
يكن التّعليم العقائديّ في هذه الدّروس مهمّا بالنّسبة إليّ،
الأهمّ كان لقاء الأصحاب في باحة المسجد وخارجه.
انتبهتُ بعد مرحلة ما بعد الثّورة إلى أن تنبّؤ الجهاد
كمفيدة بعد أن كان مجرّد رغبة عاطفيّة في الجهاد في
فلسطين المحتلّة.
فترة ما بعد الثّورة حدّدتُ لكَ ما تريد فعله كما حدّدت
لك تقسيم النّاس من حولك. تركّزتُ في شخصيّتك الـ نَحْنُ
والـ هُمْ "نحن" الّذين ننتمي إلى شباب التّيار مقابل "الآخرين"
من عوامّ المسلمين.
كما انتبهت بك فترة ما بعد الثّورة إلى التّفريق بين
الفِرَق في التّيار الإسلاميّ. كنتَ تزدري حركة النّهضة وتسخر
من النّهضويّين وتكره المداخلة من السّلفيّين. كنت تنفر من
كلّ بقية الفِرَق ولكنّ نفورك من المداخلة كان الأشدّ.
كانت الأيّام والأشهر الّتي تلت الثّورة، بمثابة أيّام الله الّتي
وعدني بها والّتي كنتُ أقرؤها في كتابه. لم يكن ينقصني يومها
إلاّ شيء واحد، أن الأوان أن أكاشف به أمّي وأعلنه أمام الملأ
بلا حرج.

المفارقات العجيبة وقتها أن وجدنا أنفسنا نحمي العديد من المؤسسات، ومن جملتها نقطة لبيع العصير بمدينة نابل والمعروفة "الكرمة"، صفّا واحدا مع من نعتبرهم في ذلك الوقت بـ"الطّواغيت"!.

كان مشهدنا ونحن ننسّق مع رجال الأمن لحماية أعدائنا، في تلك الفترة مثيرا للاستياء بالنّسبة للمعارفين برؤيتنا وعدائنا العقائديّ لهم.

كانت التّوريات الّتي قمنا بها مناسبة من أجل إظهار وجودنا كقوّة جديدة في الميدان. لم تخل مسألة حمايتنا للمؤسّسات الحكوميّة من فرض رؤيتنا في العديد من المسائل الدّينيّة وخاصّة في مسألة سبّ الجلالة وهو الأمر الّذي حدث أثناء تجوالنا في أحد الشّوارع الرّئيسيّة للمدينة رغم عمليّات استعراض القوّة الّتي كنّا نقوم بها مع التّيار السّلفيّ الجهاديّ بعمومه ومشاركتنا في أحداث السّفارة، كنّا كمجموعة قريبة من الخطيب الإدريسي، نملك رؤيتنا الخاصّة بنا.

في تلك المرحلة تعرّفت على غالبيّة المجموعة الّتي كانت تدين بالولاء للخطيب الإدريسي وترفض الانخراط في تنظيم أنصار الشّريعة وخاصة بأيمن مشماش والهاشمي المدني[1] الّذين عرفتهم بعد عملية بئر علي بن خليفة[2].

مثّلت مشكلة القيادة وقتها إحدى المشاكل المطروحة داخل التّيار الجهاديّ. غابت تقريبا القيادة المركزيّة المؤثّرة

[1] الهاشمي المدني: عسكري سابق كان يعتبر أمير مجموعة شمّاخ في وادي الثّلج وقع القبض عليه بعد عملية الرابطة مع عنصر آخر يدعى مروك بن سالم بقتل صالح القسّاريني وهو حارس الاستراحة الكائنة بشط العرب و الرابطة بين مدينتي قبلي وتوزر.

[2] عملية بئر علي بن خليفة: قتل فيها كل من صلحي الرّحيلي وحمدي بن محمود اللّذين كانا بصدد الهروب السّلاح من ليبيا إلى تونس. ووقع في هذه العمليّة حجز سيارة كانت تحتوي على أسلحة كالكلاشنكوف وذخيرة

حسب رأيي، شهدنا تنطّعا واجتهادات فرديّة
بداية مستقلّة واضحة وهو الأمر الّذي أدّى فيما بعد
لفرض داخل التّيار الجهاديّ في كلّيته.
ة في خصوص مجموعتنا، وبعد أحداث بئر علي بن
علمت أنّ أيمن مشماش (أبا ذر) قام بجلب الهاشمي
عنه في قضيّة بئر علي بن خليفة، إلى بني خيار
في منزل هناك واتّصل بي.
زرت هذا المنزل والتقيت بالهاشمي فكان اللّقاء
يّنا بالنّظر إلى تعلّقي الشّديد به منذ أن عرفته في
الخطيب الإدريسي. تزوّج الهاشمي من ابنة شقيق
الخطيب وكان أحد المقرّبين من الشّيخ.

في تلك الفترة كنّا نتابع أخبار الثّورة السّورية وخاصّة أخبار الفصائل الجهاديّة من جبهة النّصرة إلى الدّولة الإسلاميّة في العراق والشّام قبل تغيير تسميتها فيما بعد إلى الدّولة الإسلاميّة. كان تعلّقنا طبعا بالدّولة أكثر من غيرنا وكانت تلك الفترة مرحلة بداية هجرة التّونسة إلى بلاد الشّام.

كثيرا ما تحاورت مجموعتنا حول ما يجب فعله في تونس. كان أغلبهم يميل إلى تنفيذ عمليّات ميدانيّة فيما كان لي رأي آخر تماما.

كان تقديري أنّ العمل في تونس ليس له أيّ أثر على المستوى المتوسّط والبعيد وأنّ الأفضل هو الهجرة والجهاد في بلاد الشّام.

كان رأي البقيّة وأساسا أيمن مشماش هو الجهاد في تونس وسانده في الرّأي الهاشمي المدني وبقيّة المجموعة. كانوا

يستندون في رأيهم إلى ضرورة الاستجابة إلى الكلمات التحريضيّة لأبي محمد العدناني وفتاوات الدولة بتسهيل من يعتبرونهم جنود الطاغوت في كل مكان وأن قتل عنصر منهم ومهما كانت رتبته يمثل عملا مهمّا من أجل نصرة الدولة الإسلاميّة.

بالتّوازي كان موقفنا من قيام كتيبة عقبة ابن نافع في جبال الشّعانبي بقتل الجنود والقيام بالعديد من العمليّات في تلك الفترة متراوحا بين الفرح بقتل من نعتهم "حرس طاغوت" وبين موقفنا النّاقد للقاعدة وواجبها في تونس ممثّلة في أنصار الشّريعة وبالتّالي لجناحها المسلح ممثّلا في هذه الكتيبة.

زادت ريبتنا من عمليّات كتيبة عقبة بن نافع بعد الصّراع الّذي وقع في الشّام بين جبهة النّصرة والدّولة الإسلاميّة في العراق والشّام.

في خضمّ الجدل حول أهميّة العمل المسلّح وجدواه في تونس اتّخذت المجموعة الّتي كنت أحد أعضائها، قرارها بالانتقال من منزل بني خيار والسّكن في العاصمة وتحديدا في منطقة وادي اللّيل بالضّواحي الغربيّة للعاصمة.

كان من الواضح أنّ أيمن مشماش كان غاضبا من قراري رفض العمل المسلّح في تونس إلى الحدّ الّذي جعله في آخر صلاة جماعة لنا، يتلو آيات قرآنيّة تحذّر من المنافقين. فهمت الرّسالة جيّدا ولم أعلّق بعد الصّلاة. اختاروا طريقا آخر فحواه القتال في تونس واخترت الهجرة إلى الشّام.

في تلك الأيّام نشطت عمليّات الهجرة إلى الشّام. كان محمد القرّي الملقّى "أبو دجانة" من أوائل الّذين هاجروا وانضمّ إلى كتيبة المهاجرين وكان من المؤسّسين الأوائل للدّولة الإسلاميّة في العراق والشّام.

هاجر بعده رفيق الغول وتنالت هجرات أخرى لشباب المنطقة مجموعات وأفرادا. خرج العديد من مطار تونس قرطاج بطريقة طبيعيّة فيما خرجت أفواج أخرى من الحدود اللّيبيّة الجنوبيّة.

كانت الهجرة إلى الدّولة الإسلاميّة في تلك الفترة بمثابة الحلم الأكبر بالنّسبة إليّ. كنت أتابع الإصدارات والكلمات الصّوتيّة بشكلٍ مستمرّ. لم يَفتني أيّ إصدار وقتها تقريبا.

كانت قناعتي فعلا أنّني أمام خير أجناد الله في الأرض!.

قرّرت في نهاية الأمر الهجرة إلى الشّام. اقتطعت تذكرة لي ولزوجتي وكان برفقتنا صديقان من نفس مدينتنا قرّرا أيضا الهجرة إلى الشّام.

وقع إيقافي في المطار ومُنعت من السّفر فيما سمحوا لزوجتي بالعبور. بعد انتظار القرار النّهائي بشأني قرّرت زوجتي إلغاء سفرها واشترطت عبورها بعبوري. ألغيت الرّحلة بسبب قرار منع السّفر الّذي شملني آنذاك.

عدت إلى مدينتي وازداد إصراري على الهجرة إلى أراضي الدّولة. طبعا لم يكن أهلي ولا أهل زوجتي على علم بقرار هجرتنا ولا بمواعيد سفرنا. أردنا أن تتمّ كلّ العمليّة في كنف السّرّ والكتمان.

اتّخذت قرارا آخر وهو أن أغيّر نقطة العبور الحدوديّة من أجل الخروج من تونس. توجّهت إلى نقطة العبور

التونسيّة الجزائريّة ببوشبكة القريبة من القصرين على أن
تلتحق بي زوجتي بعد ذلك من أيّ مكان آخر بحكم حريّة
الحركة الّتي تتمتّع بها وعدم منعها من السّفر.
توجّهت إلى نقطة بوشبكة التّونسيّة الجزائريّة تحت
غطاء التّجارة مع صديق لي لم يكن يعلم بنيّتي البقاء
بالجزائر والانتقال بعدها إلى أيّ بلد آخر للالتحاق بالدّولة
الإسلاميّة. كانت النّتيجة أن مُنعت مرّة أخرى من العبور
بحكم القرار الأمنيّ الصّادر في شأني.
عُدت بالسّيّارة مع صديقي من حيث أتينا في الطّريق
إلى تونس العاصمة وبمجرّد وصولنا إلى مدينة القصرين
وقع إيقافنا.
كانت هذه محنة أخرى في حياتي زادت من إصراري على
الخروج والهجرة إلى الدّولة الإسلاميّة.

"من بوشوشة لبيت الدّوش"

رغم عدم صدور أيّة بطاقة تفتيش في حقّي وقتها،
وعلى الرّغم من أنّ أوراق السّيارة كانت قانونيّة فإنّ القرار
في الحاجز الأمنيّ المؤدّي إلى مدينة القصرين كان باعتقالنا
وتوجيهنا إلى منطقة الأمن.
منذ اللّحظات الأولى لدخولي مكاتب منطقة الأمن
بالقصرين بدأ ضربي ودهمي ولطمي على مختلف أنحاء
الجسد كان الضّرب مصحوبا بالسّبّ والشّتم. استسلم
جسدي الصّغير لغلظة الجلاّدين.
كانت هذه المرّة الأولى في حياتي الّتي أُضرب وأهان فيها
بهذا الشّكل كان أمرا لا قبل لي به.
أنا القادم من عائلة محترمة ومستوى اجتماعي راق
وتربية يضرب بها المثل خُلقا وأخلاقا، أُضرب وأُهان
بطريقة وحشيّة وتقع تعريتي من جميع ملابسي تحت وقع
الضّرب المبرّح! كان الأمر مريعا لي.
لا يمكنني وصف لحظات الضّرب واللّطم الّتي شملتني.
كان أمرا لا يمكن وصفه ولا تحمّله من قبل عشرة أعوان.

زاغت عيناي جرّاء الضّرب الّذي انهال على مختلف أنحاء جسدي العاري.

كان سؤالهم الّذي يتكرّر: "إلى أين أنت ذاهب؟" وكانت إجابتي رغم الضّرب المبرّح: "ذاهب إلى الشّعارة من الجزائر بحكم أنّ لي دكانا تجاريّا في نابل يعرفه القاصي والدّاني".

لم يقتنعوا بإجابتي وواصلوا ضربي بأيديهم وبالعصي وخراطيم البلاستيك.

كان سؤالهم التّالي:"من ذا الّذي كُنت تريد مقابلته من الإرهابيّين في جبل الشّعانبي؟".

طبعا كانت السّلسلة الجبليّة للقصرين وقتها تعيش على وقع الهجمات الّتي تقوم بها الجماعات المنتشرة في الجبل والّتي تنتمي إلى كتيبة عقبة بن نافع.

حاولت إقناعهم بأنّه لا علاقة لي بجماعات الشّعانبي كيف لشابّ يريد الالتحاق بمقاتلي الشّعانبي أن يعبر المدن بسيارة وهو ملتح وذو هيئة سلفيّة كحالتي!

لم يكن الأمر منطقيّا بالمرّة ولكنّهم أصرّوا على كوني عنصر اتّصال مع الجماعات المسلّحة المتحصّنة بجبل الشّعانبي.

طلبوا منّي وقتها عنوان حسابي على الفايسبوك وكلمة العبور. أعطيتهم حسابي الّذي كان تقريبا خاليا من كلّ الرّسائل الّتي كنت أمحوها في وقتها وخاصة مع أصحابي الموجودين في الشّام.

واصلوا ضربي على أن أعترف بكوني كنت أنوي إمّا الهجرة إلى سوريا أو الاتّصال بالمجموعات المنتشرة في الجبل. واصلت

إقناعهم بأنّه ستنفع تصفيتي وإلقائي في الجبل بدون أن يعلم أحد.

بالرّغم من أنّي فشلت في مواجهة معهم.

في الحقيقة، أخذت هذا التّهديد مأخذ الجدّ وشعرت بأنّهم قد يفعلون ذلك.

دارت في خلدي العديد من الأفكار واسترجعت شريط ذكرياتي وخاصة مسألة رفضي العمل المسلّح في تونس وخصامي مع أيمن مشماش حول هذا الأمر.

ندمت بعد هذا الضّرب والإهانة بعدم انضمامي إلى مجموعة الهاشمي المدني! كان جديرا بي أن أبدأ بهم (الأمن) قبل أن يستفردوا بي بهذه الطّريقة.

على حسابي في الفايسبوك وجدوا أناشيد تمجّد الدّولة الإسلاميّة وخليفتها أبا بكر البغدادي. برّرت لهم ذلك بكوني كنت مغرما بها. وحاولت إقناعهم أنّي تخلّيتُ عن هذا الغرام دون جدوى.

حاسبوني عن رسائل صفحتي على الفايسبوك على أشخاص أعرفهم وآخرين لا أعرفهم.

في خضمّ الضّرب والتّعذيب هاتفتني شقيقتي. طلبوا منّي إخبارها بأنّي وصلت إلى الجزائر وأنّي عبرت الحدود بسلام. ما لم يعلموه أنّ شقيقتي هاتفتني قبل القبض عليّ وأخبرتها أنّ الديوانة منعتني من العبور وأنّي قرّرت العودة إلى نابل.

كان الأمر مثيرا للرّيبة بالنّسبة لشقيقتي وخاصّة مع نبرات صوتي المتعبة من شدّة الضّرب. استغللت فرصة وجودي مع شقيقتي على الهاتف وأخبرتها سريعا وبصوت

واضح قائلا لها: "إنّ الشرطة قد اعتقلتني وتريد تورّطي في قضيّة لا علاقة لي بها!".

اقتنعوا منّي الهاتف بسرعة وقطعوا المكالمة وانصبّ ضربي بقوّة.

رغم الضّرب، هذه المرّة شعرت بطمأنينة غريبة. شعرت أنّه بمجرّد إخباري لعائلتي بأمري ضمنت أمني وعدم قدرتهم على إيذائي وتنفيذ تهديداتهم لي بقتلي والرّمي بجثّتي على سفح جبل الشّعانبي كما هدّدوني.

بعد ضربي بالعصيّ (المتراك) والسّياط جرّبوا معي الغاز المسيل للدّموع. كانت الغرفة بكاملها مغطّاة بالغاز فيما غادروا هم المكان من شدّة الرّائحة الخانقة المنبعثة والّتي غطّت كلّ الغرفة.

لم أقو على تحمّل ضربهم لي، طلبت منهم الكفّ عن إيذائي واعدا إيّاهم بإخبارهم بكلّ شيء. هدؤوا قليلا استفرد بي أحدهم. طلب منّي إخبارهم بكلّ شيء. طلبت منه ملابسي الدّاخلية من أجل تغطية عورتي. رمى لي ملابسي الدّاخلية لبستها سريعا.

جلست إليه. أعدت عليه روايتي الأولى من جديد. قلت له إنّني أردت المغادرة مع زوجتي في البداية من مطار قرطاج من أجل قضاء عطلة زواجنا ولكنهم منعوني فحاولت الخروج من الجزائر لتلتحق بي زوجتي ولكن دون جدوى.

لم يمكّني من مواصلة حديثي لينهال علي سبّا وضربا وعاود إدخال أصحابه. استأنفوا حفلة تعذيبي ضربا ولطما وإهانة. لم يغيّر ذلك من إصراري على نفي أيّ علاقة لي

بالمجموعات المسلّحة في الجبل أو حتّى رغبتي في الهجرة إلى الشّام.

كان الأمر واضحا في ذهني. لن أكشف لهم بأنّي أرغب في الهجرة إلى الشّام. كان مجرّد اعترافي بذلك يعني إحالتي على القضاء مباشرة. واصلت إصراري على النّفي بما يعنيه من بطلان كلّ وسائل التّعذيب الّتي أخضعت لها.

بعد نهاية حفلة التّعذيب، أخذوني إلى غرفة الإيقاف (الجوّل). واصلوا ضربي وإهانتي وجذبي من شعري ولحيتي بعنف.

في قلب اللّيل وقع إخراجي من الإيقاف إلى التّحقيق من جديد. تواصلت عمليات الضّرب حتّى الهزيع الأخير من اللّيل. تيقّنت أنّهم وصلوا إلى نهاية وسائلهم وأنّه لم يعد لهم ما يقدّمونه لي من وجهات التّعذيب.

كان يوم إيقافي يوم خميس وتمّ ترحيلي إلى تونس العاصمة يوم الإثنين. كان المحجوز الّذي مسكوه معنا في السّيارة هو مشروبات غازية فُسّرت من قبل بعض الأعوان على أنّها مشروبات احتفالات بقتل الجنود في الشّعانبي!

لم يقع التّعامل مع مرافقي بمثل المعاملة القاسية والتّعذيب الّذي تعرّضت له. ربّما كان عدم انخراطه في التّيار المتلفي سببا كافيا للتّسامح معه.

أخذونا إلى مركز الإيقاف القرجاني بالعاصمة تونس. تواصلت الإهانات ضدّي.

كان من بين الموقوفين كذلك نساء منتقبات. أهانوا بعضهنّ من أجل استفزازنا دون ردّة فعل من قبلنا.

بعد ساعات في الفرجاني تمّت إحالتنا الى منطقة الإيقاف ببوشوشة.

لفتتْ الأنظار من بين الموقوفين الجُدد أكثر من غيري بسبب لحيتي الكثّة وشعري الطّويل. كنت بعد ثلاثة أيّام من الإيقاف في القصرين، أشعث أغبر. أدخلت الى مركز الإيقاف (الجبول). شعرت بالاختناق بين كلّ هذه الجموع الموقوفة. سلفيّون وموقوفون من أجل الحقّ العامّ من مختلف الأعمار ومختلف أنواع القضايا. رغم التّعب والآلام استسلمت للنّوم في غرفة الإيقاف حلمت أنّي وصلت الى الشّام بعد عيد الاضحى.

أفقت من النّوم. كان بقربي أحد الملتحين الموقوفين من أجل قضايا الإرهاب. أخبرته بأنّي سأحال إلى السّجن ولكن سينتهي بي الأمر الى الوصول إلى الشّام. تملّكني شعور بالفرحة. كنت متيقّنا بأنّي سأصل يوما إلى الدّولة الإسلاميّة.

بعدها بأشهر كنتَ تعبر الحدود من جهة مدينة أورفا التّركيّة. وجدتَ يومها أمامك أسلاكا شائكة عبرتها وواصلت السّير. تأكّدتَ أنّك دخلت إلى الأراضي الّتي تسيطر عليها الدّولة. كان شعورا بالفخر والرّغبة والشّوق. كان شوقك ربّما مضاعفا عن بقيّة المهاجرين الّذين عبروا معك الحدود يومها. لم تعد تشعرُ بالتّعب رغم طول المسافة ورغم لفح البرد وتثاقل حذائك الرّياضي بطين الأرض المبلّل بالمطر.

في مركز الإيقاف ببوشوشة كنتُ متأكّدا لسبب ما أن حلمي سيتحقّق وسأصل إلى الشّام. من الغد أرسلوني إلى الفرجاني.

تواصلت عمليّات الضّرب هناك من أجل إجباري على الاعتراف بأنّي كنت راغبا في الهجرة إلى الشّام.

من بين العمليّات التّعويميّة الّتي أرادوا من خلالها تعذيبي نفسانيّا هو وضع رأسي في سطل ماء وإحضار الكهرباء من أجل الإيحاء بأنّهم سيوصلون الكهرباء بالماء. كان مشهدا مريعا بالنّسبة لي. انتظرت هذه المرّة نهايتي. في الحقيقة لم يكن الأمر يتعلّق إلاّ بعمليّة تخويف وهميّة من أجل إجباري على الإعتراف.

بعد فشلهم في نزع أيّ إعتراف منّي، وقع إرجاعي إلى مركز الإيقاف (الجبول) في بوشوشة. أخذت بعدها إلى مركز الإيقاف بالمحكمة. بعدها وقع إيداعي السّجن.

من بوّابة سجن المرناقيّة بدأت حفلة الاستقبال ضربا وإهانة. في الطّابور الطّويل المؤدّي إلى الأجنحة كنّا في صفّ طويل. كان الواحد منّا لا يمرّ أمام الأعوان إلاّ ويأخذ نصيبه من الضّرب. كنّا حوالي ثلاثين موقوفا جدد قادمين إلى السّجن.

نلتُ النّصيب الأوفر من الضّرب أو هكذا خُيّل لي. استفرد بي حوالي عشرون عونا واشبعوني ضربا. كان الضّرب مشفوعا بسبّ داعش وسبّ ابي بكر البغدادي. كانوا يضربونني ويطالبون منّي الاستجارة بالبغدادي علّة يحميني أو ينقذني!

ربّما كان كلّ هذا العنف تجاهي، ناتجا عن طول شعري
الأشعث ولحيتي الطّويلة الّتي تثير الانتباه
من شدّة الضّرب أصبح العالم حولي بلون البياض لم
أعد أرى شيئا. كانت هناك عمامة بيضاء
في الطّريق إلى أورفا تذكّرت ذاك البياض كنت في
الحافلة. انزاحت العمامة البيضاء من أمام عينيك بشكل
نهائيّ. كان هناك بياض آخر في بعض المناطق الّتي عبرنا
الحافلة. إنّه بياض الثّلوج الّتي تغطي بعض الجبال والهضاب.
تتنوّع جغرافيا بلاد الأناضول بين مساحات تغطّيها الثّلوج
وأخرى تكسوها مساحات شاسعة من السّهول الخضراء الّتي
تزيّن الطّريق.

في باحة سجن المرناقيّة واصلوا ضربي إلى غاية وصولي
إلى ما يسمّى بيت الدّوش. كنت أترنّح. لم تعد لي القدرة على
الوقوف. كنت أخرس. كنت عاجزا عن الكلام. كان الطّابور
يقود إلى حلاّق السّجن.

أمام الحلاّق تدخّل أحد السّجّانين وأمر رفاقه بالتّوقّف
عن ضربي. ربّما أشفق عليّ. المهمّ توقّفت عمليّة ضربي
ووقع حلق لحيتي وشعر رأسي. هذه هي المرّة الأولى والأخيرة
الّتي حلق فيها شعري إلى غاية وصولي إلى أراضي الدّولة
فيما بعد.

أُدخلت إلى بيت الدّوش. بقيت في هذا البيت يومين. كانت
غرفة شاسعة مشهورة بالنّسبة إلى كلّ الوافدين على سجن
المرناقيّة. غرفة زادتها شهرة أغنية الرّاب لـ"ولد 15" الّتي

تحدّثت عن الموقوفين في قضايا الرّطلة والّتي تقول في أحد
مقاطعها "من بوشوشة لبيت الدّوش"[1]!
بقيت في هذه الغرفة يومين. غزاني القمّل و"البورفراش"
وكلّ حشرات السّجن. كانت الدّماء تكسو جلدي نتيجة
القمل المتواصل.

بعد بيت الدّوش تمّ توجيهي إلى غرفة من غرف
السّجين. بمجرّد دخولي إلى الغرفة اتّجهت مباشرة إلى
ركن الإخوة" داخل السّجن.

كانت التّوصية لي في مركز الإيقاف من أحد "الإخوة" أن
أتّجه مباشرة إلى حيث يوجد السّلفيون. تجاهلت نداءات
"الكبران شامبرا"[2] بمجرّد دخولي إلى الغرفة واتّجهت مباشرة
إلى حيث يتجمّع الإخوة.

وجدت مجموعة من الإخوة منتشرين في زاوية، بعضهم
كان يقرأ القرآن. قلت لهم إني "أخ". رحّبوا بي وضمّوني إلى
مجلسهم. أمدّوني بملابس نظيفة كما أفسحوا لي مكانا
مناسبا للنّوم على ضوء مشكلة الاكتظاظ الّتي تعيشها
السّجون. كان عددهم في هذه الغرفة حوالي خمسة عشر
شخصا.

كان عدد السّلفيين وقتها في تزايد نتيجة الاعتقالات
المتواصلة بعد العمليّات الإرهابيّة.

تعرّفت على الكثير من الإخوة الجدد. تعرّفت على
عائدين من الشّام. كان بعضهم شديد النّدم على رجوعه.
عاد غالبيّتهم لأسباب عائليّة وصحيّة.

---

[1] يتعلق الأمر بأغنية مأخوذة للمجموعة التونسية "كلاش".
[2] يقصد شامبرا مسؤول سجني يعني المسؤول عن الغرفة من بين المساجين.

في سجن المرناقية زاد شوقي إلى أراضي الدولة الإسلامية
وزاد غرامي بأجواء جلسات المجاهدين. هناك تعلمت
الأغنية المشهورة التي يتغنّى بها المجاهدون والشوق بقلبهم
بالحور العين. هذه الأغنية نشرها الجزراوية بين جنود
الدّولة وتقول كلماتها "إلا يالالي يا لالي طرت في خاطري
وبالي. وما تسالني عن حالي..." إلى آخر الأغنية.

من بين الّذين التقيتهم في الغرفة شابّ كان من الّذين
قُبض عليهم في طريقهم للخروج إلى الشّام. اتّهام لقاني به
كان هذا الشّاب قد قضى حوالي عام في السّجن. ولما سألته
لماذا أبقيت كلّ هذه المدّة في السّجن ردّ علي بأنّ القاضي
لمّا طرح عليه السّؤال حول محاولته مجدّدا الالتحاق
بسوريا في صورة إطلاق سراحه. ردّ الشّاب: "إذا أطلق
سراحي سأحاول مجدّدا الوصول إلى الشّام!"

في غرفة السّجن كنت أُقدّمُ عادة للصّلاة بالمجموعة
لحسن صوتي وحفظي للقرآن. كان جوّا رائقا خفّف عنّي
الكثير من الأتعاب والحزن الّذي أصابني في فترة الإيقاف.

من ذكرياتي في المرناقية هو اليوم الّذي زارتني فيه أمّي
رفقة شقيقتي. يومها لم أتمالك نفسي وبكيتُ كثيرا. أثناء
خروجي إلى الزّيارة وفي الممر المؤدّي إلى (الباراوار) طلبتُ من
أحد السّجانين الّذي كان بصدد سقي حديقة في السّجن
أن يمدّني بقليل من الماء لغسل وجهي. شتمني وشتم أمّي.
وصلت إلى أمّي في حالة يرثى لها. لن أنسى مثل هذه
الحوادث ما حييت.

جاء موعد جلستي. وقفت أمام القاضي. دافعت عن
نفسي وذكرت الأسباب الواهية الّتي وقع إيقافي من أجلها

وبعدي في مدينة القصرين وهو الأمر الّذي تطرّقت إليه
محاميتي الّتي طالبت منهكمة فرض تأشيرة تنقّل بين
الولايات التونسيّة حتّى لا ينتقل مواطنونا بين الولايات.
انتهى فصل إيقافي بالحكم عليّ ستّة أشهر مع تأجيل
التّنفيذ.

أطلق سراحي. التقيت بأمّي على بوّابة السّجن. كان
لقاؤنا حارّا ومؤثّرا بيننا. كان لقاء مؤقّتا في انتظار تباعد
دام بيننا من جديد.

رصاص وادي اللّيل

نهاية أوت 2014

كانت ليلة أربعاء وكانت السّاعة تشير إلى الحادية عشرة ليلا تقريبا، عندما فتحت أمامي بوابة سجن المرناقيّة الزّرقاء للخروج.

في الأيّام التّالية لخروجي وجدت أنّ غالبيّة أصحابي الّذين عرفتهم قد هاجروا إلى الشّام. خضعتُ لمراقبة متواصلة تقريبا من رجال الأمن. كنت أشعر بضيق شديد وأنّ البلد أصبح سجنا كبيرا.

كان القرار واضحا في ذهني. لن أبقى في هذه البلاد بعد اليوم. قمت ببيع درّاجتي النّاريّة وبدأت في جمع بعض أموالي تحضيرا لليوم الموعود.

بعد مرحلة الإيقاف حاولت بكلّ السّبل استرداد زوجتي من بيت أهلها لكنّي فشلت في ذلك.

قضّيت آخر عيد أضحى بين أفراد عائلتي. أثناء التّجهيز لخروجي اتّصل بي أكثر من واحد عبر المواقع الاجتماعيّة من أجل معرفة تحرّكاتي. كنت موقنا أنّ رجال الأمن السّياسي يتخفّون وراء العديد من الحسابات الوهميّة. كنت أوهمهم بأنّه ليس لي أيّ رغبة في الخروج إلى الشّام.

في الأثناء، لم تنقطع علاقتي بأيمن مشماش ومجموعته في منطقة وادي اللّيل حيث كان يختفي مع الهاشمي المدني صحبة مجموعة من النّساء. كانوا في تلك الفترة في حالة فرار وكانوا محلّ بحث من السّلطات الأمنيّة. وفي الحقيقة فإنّ منزل وادي اللّيل الّذي وقعت فيه المواجهة المسلّحة فيما بعد كان مجرّد مضافة لتهريب الأشخاص إلى الشّام. التقيت بعدها بأشخاص في الرّقة أكّدوا لي أنّهم مرّوا بهذا المنزل قبل هجرتهم.

كنت على اتّصال مستمرّ بأيمن بهواتف مختلفة مسجّلة تحت أسماء أشخاص آخرين أو عن طريق المواقع الاجتماعية. أجريتُ معه مقابلة مباشرة في منطقة منوبة في ضواحي العاصمة.

لم أفهم وقتها ما كانوا يعتزمون فعله. طبعا مازلت على قناعة بعدم جدوى العمل المسلّح في تونس.

تواصل تردّد رجال الأمن على منزلنا إلى غاية وصول أفراد منهم من تونس العاصمة. كنت يومها خارج المنزل. تأكّدت حينها أنّ الأمر أكبر من مجرّد مراقبة أمنيّة عاديّة وأنّهم توصلوا إلى أنّ لي علاقة بمجموعة وادي اللّيل.

تواصل وقتها أيضا اتّصالي بأصحابي في بلاد الشّام. زادت الصّور الّتي كانوا يرسلونها لي من هناك من رغبتي في الهجرة والالتحاق بهم. كانوا يرسلون لي صورهم من ميادين المعارك حاملين الأسلحة.

أخبرت أيمن مشماش (أبا ذر) في الهاتف أنّ فرقة خاصّة قدمت من تونس العاصمة إلى منزلنا مبديا له خشيتي من أن يكون الأمر يتعلّق بالمجموعة الّتي تختفي في وادي اللّيل. طلب

الهاشمي المدني الانضمام إليهم. طلبت منه تأجيل الأمر إلى حين التفرّغ في موضوع يهمّني وبعدها لكلّ حادث حديث.

جرت الانتخابات التّشريعيّة يوم 26 أكتوبر 2014 وتلتها بعد شهر الانتخابات الرّئاسية في دورتين فاز فيها الرّئيس الحالي قايد السّبسي على حساب المنصف المرزوقي. تكاثف تواجد الأمني وزادت الاحتياطات الأمنيّة. كنت أقضّي ليالي طويلة خارج البيت عند البعض من أصدقائي. بدأت عمليّات الاعتقال للشّباب تتنالى في مدينتنا.

قبل الانتخابات التّشريعيّة بأيّام قرّرت الدّخول في الخلوة إلى غاية العثور على طريق للفرار من تونس.

ليلة 24 أكتوبر، وفي أحد البيوت الّتي كنت أتردّد عليها للاختفاء وأثناء تصفّحي للأخبار على الأنترنت قرأت خبرا عاجلا يتحدّث عن "إلقاء القبض على الإرهابيّ الهاشمي المدنيّ" في مدينة دوز في الجنوب التّونسيّ.

استغربت أمر وجود الهاشمي في تلك المنطقة. حاولت الاتّصال به وبأيمن عبر الهاتف دون جدوى. كانت هواتفهما مغلقة. زاد إحباطي وقرّرت الهروب في أسرع وقت. زاد من قراري التّهاني في الخروج. اتّصال أحد جيراننا بي وإخباري بمداهمة رجال الأمن لمنزلنا وتفتيشه وتكسير بعض الأثاث.

أغلقت هاتفي وبقيت أفكّر في ما وقع لأيمن.

بعد القبض على الهاشمي المدني في دوز وقعت اشتباكات في منزل وادي اللّيل. قُتل على إثرها أيمن صحبة خمس نساء بعد محاولات عديدة فاشلة من أجل إقناعه بتسليم نفسه.

جاؤوا وقتها بالهاشمي للتفاوض مع المرابطين في البيت
كما أحضروا عائلات العديد من الفتيات اللاتي كنّ في
المنزل دون جدوى. رفض أيمن تسليم نفسه فقتل مع
بعض النّساء اللاتي كنّ في البيت. استعمل أيمن والنّساء
اللاتي كنّ معه أسلحة الكلاشنكوف في البيت الذي كانوا
يتحصّنون به. وقع تهريب هذه الأسلحة من ليبيا قبل
الواقعة بأشهر عديدة.

كان الأمر واضحا بالنّسبة إليّ. سأكون من ضمن
المتهمين في ملفّ القضية شئت ذلك أو أبيت.

اطّلعت على وثائق التّحقيق في قضيّتي عندما وصلت
إلى الرقّة فيما بعد. وصلتني عن طريق الأنترنات نسخة منها
كانت توقّعاتي في محلّها. من الواضح أنّ كلّ الشّهادات
كانت تدينني بحقّ وبغير حقّ. كان كلّ من يقع اعتقاله في
نابل في تلك الفترة يذكر إسمي في التّحقيقات. أصبحت
بقدرة قادر العنصر الذي جنّد جميع الجهاديّين في مدينتي!

مباشرة بعد عمليّة وادي اللّيل اتّصلت بأحد الوسطاء
الّذين أعرفهم لتسهيل خروجي من تونس.

بالنّسبة إلى كلّ الخارجين الملتحقين بتنظيم الدّولة
الإسلاميّة عادة ما تتمّ عمليّات الخروج عبر إيجاد عنصر
اتّصال في ليبيا أو في سوريا والّذي يمثّل عنصر الضّمانة
والتّزكية. ثمّ يقع فيما بعد البحث عن مهرّب لتسهيل
الطّريق. بالنّسبة إليّ، كان العنصران متوفّرين. فالعشرات
من أصحابي كانوا في ليبيا وسوريا.

بخلاف القصص الرّائجة، فإنّ مسألة الخروج والهجرة
إلى الشّام تعتبر أمرا يسيرا في تونس في ذلك الوقت. فكلّ

...ي تقريبا يضمّ شبابا التحقوا بالشّام. ما كان على
...د في الالتحاق بالدّولة إلاّ الاتّصال بهذا العنصر من
...ه أو جيرانهم الّذي يمكن أن يكون مزكّيا لهم.
...مجرّد وصول خبر رغبة أحد الشّباب الالتحاق بالشّام
...وم أصدقاؤه أو أحد جيرانه بالتّوجه لإدارة الحدود في
...لدّولة ويعطيهم هويّة الشّخص.
...تعمل إدارة الحدود على تسهيل طريق وصول العنصر
...عنيّ بالأمر بالتّنسيق مع عناصرها المنتشرة في تركيا أو
...يبيا أو غيرها من البلدان.
...تقوم إدارة الحدود بالتّكفّل بأمر التّهجير أو إعطاء رقم
...مهرّب في البلد المعنيّ لتنسيق الأمر معه.

الهروب إلى الدّولة

أواخر ديسمبر 2014

كان يوم خروجي من تونس يوم أحد. اتّجهت في سيّارة صحبة إثنين إلى مدينة بنقردان. قبل خروجي من البيت الّذي أختفي فيه حلقت لحيتي ولبست أفضل ما لديّ. ركبنا سيّارة. انطلقنا في اتّجاه الجنوب. كانت المهمّة إيصالي إلى بنقردان بعدها لكلّ حادث حديث.

لم نتوقّع الحواجز الأمنيّة المنتصبة على امتداد الطّريق وقتها أنّ السّيارة الّتي تقلّنا تحمل أحد أبرز الإرهابيّين المطلوبين.

لم يقع إيقافنا إلاّ مرّة واحدة من قبل الحواجز الأمنيّة المنتصبة على جانبي الطّريق. سلّمنا الدّورية رشوة أو"فرحنا بهم" كما يقول التّونسة وواصلنا طريقنا إلى بنقردان.

المهمّ وصلنا إلى بنقردان حوالي السّاعة الثّانية والنّصف صباحا. تقابلت مع "وسيطي" في المدينة وقضّيت بقيّة ليلتي في دكّانه الصّغير وسط المدينة.

مع صلاة الصّبح جاءلي وخرجنا الى السّوق تفارقنا على أن نهاتفني في نهاية اليوم. تجوّلت في المدينة الى غاية صلاة العشاء تقريبا، بعدها التقيت به مجدّدا حيث استضافني في بيته إلى حين وصول هاتف من المهرّب.

كنت مرهقا بدنيّا ونفسيّا. غفوت للحظات. رنّ هاتف وسيطلي ليخبرني بأنّ الطّريق أصبحت جاهزة.

التقيت عبر الوسيط بالمهرّب. بعد تفاوض سلّمت المهرّب ما قيمته ألف وخمسمائة دينار تونسيّة.

كان غطاء قصّة خروجي خلسة أمام المهرّب هو أنّني أرغب في الهجرة إلى إيطاليا عبر ليبيا. كان إصراري على الإسراع في إتمام التّفاوض كبيرا. الأمر الّذي لفت انتباه المهرّب وبعث الشّكّ في قصّتي من قبله أو هكذا فهمت الأمر.

ركبت سيّارة المهرّب. ابتعدنا عن الطّريق الرّئيسي واتّجهنا نحو الطّريق الصّحراوي.

بعد بضعة كيلومترات اعترضتنا سيّارة مهرّبين منيرة أضواؤها. أُصبت بالذّعر من أن يكون الأمر يتعلّق بسيّارة شرطة الحدود (الدّيوانة).

المهمّ لم نتوغّل كثيرا في الطّريق الصحراويّة. كان من الواضح أنّنا مازلنا في بنقردان. كانت أشجار الزّيتون تنتشر في كلّ مكان.

أمرني المهرّب بالنّزول. قال لي مشيرا إلى ضوء ينبعث إلى كبد السّماء: "أرأيت هذه الأضواء المنبعثة في اتّجاه السّماء، إنّها ليبيا!"

اء إلى الشّام فيما بعد، كثيرا ما شاهدت
ن الأضواء المنبعثة الى السّماء كلّما اقتربنا من مدينة أو
رية لانتحاميا.

رجل من السّيارة وخطوت في اتّجاه الأضواء المنبعثة
ل السّماء. كنت أحمل حقيبة صغيرة الحجم ممسكا
باقي الجوّال فيما بقي لي حوالي خمسة ملايين من
ليرات الليبية قمت بتحويلها في بنقردان.

بقيت بعد مسيرة حوالي نصف كيلومتر تقريبا، أنّ
لهرّب تحتال عليّ وأنّه تركني في أوّل الصّحراء بلا دليل.

لم يكن لي خيار. كنت مضطرّا لمواصلة الطّريق في
تجاه هذا الضّوء المنبعث في الصّحراء.

واصلت مسيري. كُنت كلّما وضعت قدميّ على الرّمال
لأنغمست واضطررت إلى بذل مجهود لإخراجها للتّقدّم
من جديد. أضطررت في نهاية المطاف إلى نزع حذائي والمشي
حافي القدمين.

كانت هذه بداية رحلة طويلة وشاقّة في الصّحراء بلا
دليل إلاّ من بوصلة هاتفي الجوّال الّتي أستدلّ بها على
الطّريق.

كنت أظنّ أنّه سيقع استقبالي من سيّارة أخرى لمهرب
آخر على الحدود. كان مجرّد وهم. واصلت مسيري كيلومترات
أخرى في الصّحراء. كنت أحيانا أسمع نباح كلاب قادمة
من بعيد. أصابني عطش شديد. كان الظّلام الدّامس يسود
المكان. كنت كلّما تفطّنت إلى ضجيج حولي، انبطحت.

ازداد عطشي مع طوال الطّريق الطّويلة. بعد كلّ بضعة
كيلومترات، أفتح هاتفي من أجل تحديد موقعي في بوصلة

هاتفي. بعد عناء وطول مشقة طريق وصلت إلى مدينة "ملاحة البريقة" على الحدود التونسية الليبية.

كان جزء منها في تونس وشطرها الآخر في ليبيا سومتة.

هاتفي الجوّال تيقنت أني على خط الحدود.

تيقنت أني وصلت الى ليبيا أصبحت الآن في الصحراء الليبية. واصلت المشي. نزعت كل ملابسي تقريبا من شدة الحرارة. وضعت كل أمتعتي في حقيبة ظهري من حين لآخر كانت تمرّ سيّارة. كنت أختفي سريعا خشية أن تكون عربة حرس الحدود. قررت من شدّة عطشي، أن استعد بأول سيّارة تعترضني. لم أعد أحتمل. كانت بغيتي الحصول على شربة ماء. السّيارة الوحيدة التي اعترضتني من بعيد واصلت طريقها عند رؤيتي مسرعة.

استبدّ بي يأس. هاتفت أصحابي في كلّ من ليبيا وسوريا. طالبتهم بإيجاد حلّ لي. أخبرتهم أني أشرف على الموت من شدّة العطش. هذا فضلا عن الآلام التي ألمّت بساقيّ. كانوا يجيبونني أنهم لا يملكون في الوقت الحالي لا حول ولا قوّة.

وصلت إلى حالة يأس.

كان الحلّ الوحيد هو أن تواصل طريقك إلى الرقّة.

كانت طريقا لا نهاية لها. ستصلّ إلى الرقّة. ستكونُ شاهدا على دماء الرّعب الغامقة وستختنقُ برائحة البارود وتمشي على بقايا الأشلاء الآدمية وتصمّ أذنيك المفخّخات. هذا قانون الحروب التي أنت مهاجر إليها. إذا لم تقتل تُقتل. الأفضل لك أن لا تفكّر في كلّ هذا الآن. عليك أن تواصل طريقك.

بدا شعاع الشّمس يلوح في الأفق حينما صلّيت الصّبح وأردفته بدعاء من أجل نجاتي. وصلتُ إلى طريق معبّد. أزعجني حذائي الرّياضي. كنت أشعر أنّ أسفل قدميّ قطع من الشّوك والجمرات تحرقني.

جيّدت سيناريو إذا ما ممسكتني قوّات ليبية. سأكون أحد التّجار الذين تعطّلت بهم سيّارتهم. هندمت نفسي واصلت طريقي. بلغت منطقة سكنية تابعة لمنطقة وكماش اللّيبيّة جنوب رأس جدير. كانت المنازل تنتشر هنا وهناك. كان الأطفال يتجهون إلى مدرستهم.

كانت هيأتي وأنا عابر أمام الأطفال حاملا حقيبتي لافتا للنظر في الطّريق توجّهت إلى أحد المقاهي على الطّريق طلبت قارورة ماء ومشروب "شارك" Shark وقطعة مرطّبات. حاولت التّظاهر بكوني مرتاحا بدنيّا ومعنويّا شربت "الشارك" قبل الماء شعرت أن حلقي احترق وانشقّت أوصاله.

بالفعل فقد أصاب فمي وحلقي بعض الجروح نتيجة مكوّنات مشروب الشّارك لكوني كنت عطشًا ولم أشرب الماء في الصّحراء بعد حوالي عشر ساعات من المشي أتذكّر أنّه بعد هذه الحادثة وجدت صعوبة في الأكل لحوالي ثلاثة أيّام.

بعد راحة دقائق في المقهى تطلّعت إلى هاتفي. وجدت أنّه خال من الشّحن نسيت شاحني في بيت الوسيط في بنقردان قبل خروجي.

هل أعود إلى بنقردان؟! قلت في سريرتي ضاحكا. كان ضحكي شعورا بالانتصار. نعم لقد نجحت في الفرار.

شعرت بسعادة بالغة لوصولي. طلبت من صاحب المقهى شحنا لهاتفي. هاتفت بعدها أحد أصحابي في صبراتة.

رويت لصاحب المقهى قصة متخيلة فحواها أن سيارتي تعطلت وتركتها في منتصف الطريق وأني تاجر تونسي أريد الوصول إلى صبراتة. تفهم صاحب المقهى وضعيتي وعرض على أحد الجالسين في المقهى إيصالي مقابل مبلغ من المال. اتفقت مع أحد زبائن المقهى على إيصالي إلى صبراتة مقابل خمسين دينارا ليبيّة. ركبت السّيارة. أمتني صاحبها بسيجارة أخذتها على مضض ولكني دخنتها بشراهة. تبادلنا أطراف الحديث. قال لي إنه يعمل في الجيش الليبي. اطمأننت أكثر لعلمي أنّ أفراد الجيش لا تقع مضايقهم عادة عند الحواجز إن وجدت.

في منتصف الطّريق، وبالاقتراب من مدينة زوارة، اقترح عليّ صاحب السّيارة أن يوصلني أحد معارفه لصبراتة لأنّ طارئا يدفعه إلى العودة من حيث أتى. سلّمني لأحد أصدقائه. ركبت سيّارة أخرى.

كان السّائق الجديد أكثر أمانا بالنّسبة إليّ. روى لي حكاية مشاركته في الثّورة الليبيّة وكيف بُترت إحدى رجليه. كان من الثّوار. كان كلّما مرّ من أمام حاجز وجّهت له التّحية دون تفتيشات.

بعد مسيرة ساعة تقريبا، وصلت إلى صبراتة. استقبلني أصحابي هناك. قادوني إلى إحدى الشّقق. كان معظمهم حليقي اللّحى لاعتبارات أمنيّة.

في هذه المدينة التقيت الكثير من القيادات التّونسيّة يحوّن عنها من قبيل وناس الفقيه[1] ونورالدين شوشان[2] لقب بصابر الذي كان شديد النّقد للمقاتلين التّوانسة لذين هاجروا إلى الشّام.

كانت الوجوه الّتي التقيتها في ليبيا في معظمها أشخاصا يعيشون عنهم في تونس وصادرة في شأنهم برقيّات تفتيش. تعاوا بطبيعة الحال يتمتّعون بمساندين وأنصار لهم من الليبيّين.

كان كلّ التّونسيّين الّذين التقيتهم هناك يملكون أسلحة في منازلهم. من الواضح أنّهم شديدو التّنظيم. زرت أثناء بقائي مع الإخوة في صبراتة العديد من الأماكن كما أدّيت صلاة الجمعة في أحد جوامع المدينة. كانت خطبة مارة تتحدّث عن تطبيق الشّريعة ومحاربة الطّواغيت.

لم يتردّد توانسة مجموعة صبراتة في أن يقترحوا عليّ البقاء معهم في ليبيا للاشتغال على تونس. كانت ذات المجموعة شديدة النّقد لسيف الله بن حسين (أبي عياض التّونسي) في الوقت الّذي تستعمل فيه اسم أبي بكر البغدادي في محاولة لإقناع الشّباب البقاء في ليبيا وعدم الهجرة إلى الشّام.

كانوا خليطا من بقايا القاعدة ومناصرين للدّولة. اجتمعوا في صبراتة من أجل فكرة العمل المسلّح في تونس. اقترح عليّ البعض منهم فكرة إلحاقي بالمقاتلين في جبل الشّعابي فيما كان البعض الآخر يمدح الدّولة الإسلاميّة ومقاتليها.

---

[1] وناس الفقيه سلّمته السّلطات الليبية إلى تونس في ديسمبر 2016 بعد هروبه من ليبيا.

[2] نور الدين شوشان قتل في غارة أمريكية على معسكر لداعش في مدينة صبراتة الليبية يوم 19 فبراير 2016.

كانوا يتحدثون الى محاولين إقناعي بالبقاء معهم ولكن كل أفكاري وجوارحي كانت هناك، في الشام.

من الواضح أن أعداد التونسيين في تلك الفترة في صبراتة كانت معتبرة فمضافاتهم تنتشر تقريبا في كل مكان بالمدينة.

بعد وصولي الى الرقة التقيت في فترات لاحقة بالعديد منهم في الشام. تواصل ارتحالهم فيما بعد، منهم من قتل ومنهم من بقي في الشام ومنهم من عاد إلى ليبيا.

في صبراتة كان كل شيء يدل على أن الشباب يستعدون للقيام بعمليات كبرى في تونس. كانوا مجهزين المضافات بالعتاد والمفخخات.

بقيت حوالي أسبوع في مدينة صبراتة قبل أن أطلب من الإخوة تجهيزي للهجرة إلى الشام. اشتريت تذكرة السفر وبعض الملابس. أوصلني أحد الإخوة من الليبيين إلى طرابلس بعد أن وقع ختم جواز سفري على أني دخلت بطريقة قانونية إلى ليبيا.

في مطار معيتيقة حيث قضيت آخر ساعاتي في ليبيا كانت الفوضى تسود المكان. لا مراقبة ولا إدارة منظمة. المهم بحثت عن مكتب ختم الجوازات بين الأروقة لأصعد فيما بعد الطائرة نحو مدينة إسطنبول، المحطة قبل الأخيرة قبل وصولي إلى الدولة.

وصلت إلى إسطنبول وفي جيبي حوالي مائتي دولار. لم أكن لأهتم بأمر المال. كنت أعلم أنه بوصولي إلى تركيا أكون قد وصلت فعليا تقريبا إلى "الدولة".

وصلت بنا الطائرة في مطار مصطفى كمال أتاتورك وكان الأمر يتعلق بالنسبة إلي بآخر مرحلة يمكن أن تجعلني أطأ أرض الدولة.

في النفق القصير الرابط بين الطائرة والمطار اعترضنا شرطي تركي كان يقوم بمراقبة أولية لجوازات القادمين.

كنت حليق اللحية مع تسريحة شعر عصرية مرتديا سروالا رياضيا وجاكيته سوداء. جاء دوري أمام شرطي ليمد نظر إلى جوازي وإلى صورتي. كانت صورتي في الجواز بلحية كثة. أمعن النظر وابتسم وسألني باستنكار: "تونسي؟" أجبته: "نعم". بسخرية خفيفة عبر إشارة من يده أفسح لي الطريق للمرور إلى مصلحة الجوازات بالمطار. لم تكن مخاوفي في محلها. كان الأمر كما أكد لي بعض الإخوة الليبيين "تمام التمام" لمرور الشباب من أمثالي من مطار إسطنبول.

بعد حاجز الشرطي التركي الأولي جاء الدور على شرطة الحدود من أجل طبع ختم الدخول. من بين الطوابير العديدة اخترت نافذة شرطية حدود تركية دققت قليلا في جواز سفري وفي وجهي قبل أن تعيد لي الجواز مختوما.

كان الأمر يتعلق بالنسبة لي باللحظات الأخيرة لتحقيق حلم طال انتظاره.

"خلاص". أصبحت على بعد أميال قليلة من تحقيق الحلم لم أتجاوز نافذة الديوانة ببضعة أمتار حتى هاتفني الإخوة من سوريا. سألوني: "أين وصلت؟!" أجبتهم: "خلاص" لقد مررتُ من نافذة الجمارك"!.

كانت سعادتك لا توصف. "خلاص" وأتى "خلاص لك".
لقد أصبحتَ قاب قوسين من الوصول الى "دولتك" التي
تريد. ماذا بعد؟!

سيمرّ حَوْلٌ من عمرك. سوف تضحك ملء شدقيك
فرحا برؤية رابة العُقاب في دوّار النّعيم. سوف تبكي كما لم
تبك من قبل تحت شجر مصنع الغاز المهجور. سيقتلك
الشّوق لأمّك الّتي تركتَ سترتل ببعة الموت في الغزوات
الّتي تخوض.

أتذكرُ جثّة الجندي السّوري في ندمر؟! كان في غرغرة
الموت وكنت تفتّش جيوبه بحثا عن مخازن الرّصاص. كنت
تردّد في لامبالاة إذا لم أقتل فإنّني أُقتل. يومها كنت في قلب
التّوحّش أو على تخومه.

ثمّ ماذا؟! اكتشفتَ سراب دابق. الدّولة تقتلُ بعضها
البعض وتكفّرُ بعضها البعض. سقطتْ قطع الدّيمينو.
سقطت أسطورة الفرقة النّاجية. ثمّ هربت من الدّولة
الإسلاميّة.

إذا قدّر لك النّجاة والعيش يوما آخر بعد محنة داعش
ستخبرنا أكثر وقد كاشفتنا عن ينابيع أصل الشرّ الّذي زُرع
فيك منذ حداثة سنّك.

حدّثنا عن دولة الاستقلال وتحديثها الهجين، عن
النّمط الّذي سمّمَ جيلا بأكمله، عن الانفصاميّة الّتي
زرعت في أجيالا بأكملها. أيّ جريمة!

ربّما إذا قدّرت لك الحياة ونجوت نهائيّا، ستحدّثنا عن
الهجانة الّتي صنعوها فيك بنظام قانونيّ ومجتمعيّ تعليميّ
وتربويّ لا ينجب إلاّ الذّوات المشوّهة.

أنت محمّد الفاهم، صاحب القصّة. أنت بضاعتهم
الّتي ردّت إليهم. "الهم" و"الدخن" سواء بسواء في هذا
الكتاب.

"كنتُ في الرقّة". قصّتك لم تكن مجرّد قصّة مشوّقة
لهارب هرب من داعش. إنّها قصّة إدانة وتعرية لكلّ
السّياق الثّقافيّ الّذي صنعك. نعم هنا الرقّة لم تكن مجرّد
مكان. إنّها كلّ النّسق ولم تكن الدّولة الإسلاميّة، داعش،
مجرّد منظّمة إرهابيّة. إنّها تلك الثّقافة الّتي تحمل بعض
أدرانها في داخلها.

"كنتُ في الرقّة" لم تكن مجرّد كينونة في المكان. إنّها
كينونة في النّسق في أغوار الهوّة، تلك الهوّة السّحيقة في
ريف الرقّة الشّماليّ الّتي كان يرمي فيها داعش ضحاياه
أحياء وأمواتا.

محظوظ أنت أنّك نجوت من هوّته الرقّة ولكن هل
نجوت حقيقة؟!

غريبة قصّتك. كيف هربت من الدّولة الإسلاميّة لأنّ
المخيال العربيّ الإسلاميّ بصنعها ويهاجر إليها ولا يهرب منها.

أكان سبب هروبك بخلاف الحالمين، أنّك تحقّقت أنّك
عشت مجرّد وهم؟! من يدري؟!

كرونولوجيا داعش

- سقوط مدينة الرقّة بيد المعارضة السّوريّة (أحرار الشّام وجبهة النّصرة) يوم 3 أفريل 2013 بعد انسحاب الجيش النّوري منها.
- 5 جانفي 2014 تنظيم الدّولة الإسلاميّة في العراق يسيطر على مدينة الفلوجة بالعراق.
- 12 جانفي 2014 تنظيم الدّولة الإسلاميّة في العراق والشّام يسيطر على مدينة الرقّة السّوريّة.
- 12 جانفي 2014 تنظيم الدّولة يسيطر على مدينة الباب.
- 14 جانفي 2014 تنظيم الدّولة يسيطر على مدينة الطبقة.
- 17 جانفي 2014 تنظيم الدّولة يسيطر على مدينة جرابلس.
- 23 جانفي 2014 تنظيم الدّولة يسيطر على مدينة منبج.
- 1 جويلية 2014 تنظيم الدّولة يسيطر على مدينة البوكمال.
- 15 جويلية 2014 تنظيم الدّولة يسيطر على أجزاء من مدينة دير الزّور.
- 25 جويلية 2014 تنظيم الدّولة يسيطر على الفرقة 17 بريف الرقّة الشّمالي.

- 10 جوان 2014 سقوط مدينة الموصل بيد تنظيم الدّولة الإسلاميّة في العراق والشّام.
- 11 جوان 2014 سقوط مدينة تكريت بيد تنظيم الدّولة الإسلاميّة.
- 29 جوان 2014 أعلن تأسيس الدّولة الإسلاميّة في العراق والشّام والتّنظيم يغير تسميته إلى مسمّى "الدّولة الإسلاميّة" ويعيّن العراقيّ إبراهيم عوّاد إبراهيم علي البدري السامرائي والملقّب بأبي بكر البغدادي كخليفة لهذه الدّولة.
- 4 أوت 2014 تنظيم الدّولة يحتلّ مدينة سنجار عاصمة الطائفة الايزيديّة ويقوم بسبي المئات من نسائها.
- 24 أوت 2014 تنظيم الدّولة يسيطر على مطار الطبقة العسكريّ.
- 10 أكتوبر 2014 تنظيم الدولة يسيطر على المرتع الأمني لمدينة كوباني أو عين العرب.
- 25 جانفي 2015 قوات سوريا الدّيمقراطيّة تعلن تحرير مدينة كوباني أو عين العرب.
- 15 أفريل 2015 تنظيم الدّولة يسيطر على أجزاء من مصفاة بيجي النّفطيّة العراقيّة.
- 18 ماي 2015 تنظيم الدّولة يسيطر على مدينة الرّمادي عاصمة محافظة الأنبار العراقيّة.
- 20 ماي 2015 تنظيم الدّولة يسيطر على مدينة تدمر.
- 31 مارس 2015 رئيس الوزراء العراقيّ حيدر العبادي يعلن تحرير مدينة تكريت.
- 16 جوان 2015 قوّات سوريا الدّيمقراطية تحرّر مدينة تلّ أبيض من تنظيم الدّولة.

- 25 جوان 2015 تنظيم الدّولة يسيطر على أحياء في مدينة الحسكة السّوريّة.
- 21 أكتوبر 2015 الجيش العراقيّ يحرّر مدينة بيجي في العراق.
- 10 نوفمبر 2015 الجيش السّوريّ يفكّ الحصار عن مطار كويرس العسكريّ الّذي فرضه تنظيم الدّولة منذ 2014.
- 13 نوفمبر 2015 رئيس إقليم كوردستان يعلن تحرير سنجار من تنظيم الدّولة.
- 23 ديسمبر 2015 قوّات سوريا الدّيمقراطيّة تعلن تحرير سدّ تشرين شمال سوريا.
- 28 ديسمبر 2015 الجيش العراقيّ يعلن تحرير مدينة الرّمادي العراقيّة.
- 27 مارس 2016 الجيش السّوري يعلن تحرير مدينة تدمر من قبضة تنظيم الدّولة.
- 12 أوت 2016 قوّات سوريا الدّيمقراطيّة تحرّر مدينة منبج شمال سوريا.
- 17 أكتوبر 2016 الجيش العراقيّ يبدأ عمليّة تحرير الموصل شمال العراق.

الفهرس

مقدمة _____ 7

سراب دابق _____ 19

حلم الشام _____ 33

مضافة تلّ أبيض _____ 51

أيام الرقّة _____ 59

عاشقُ المنيّة _____ 75

الزانية الهاربة _____ 83

غزوة تَدْمر _____ 95

مُفخَّخة بلا حور _____ 109

دَولة الملثّمين _____ 121

عشرون جلدة ! _____ 129

قطعُ الدُّومينو _____ 143

آخر الحروب _____ 155

التَولّي من الزَحف _____ 167

طُفولة دورتموند _____ 173

جهاد إمام نابل _____ 179

في ظلال القرآن
إرهاب وكرة قدم! 187
عند حلاق الحي! 197
شاركتُ في الثّورة 205
الجهاديّون يحبّون أيضا! 211
شوكة النكاية 221
"من بوشوشة لبيت الدّوش" 227
رصاص وادي اللّيل 235
الهروب إلى الدّولة 247
كرونولوجيا داعش 253
الفهرس 265
269